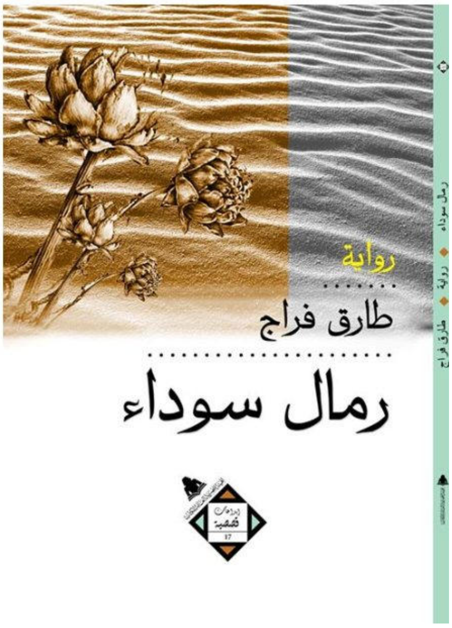

رمال سوداء

رواية

طارق فراج

الهيئة المصرية العامة للكتاب
2019

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

رئيس التحرير

سيد الوكيل

مدير التحرير

سلوى فياض

سكرتير التحرير

محمد عـــلام

رمال سوداء

تأليف/طارق فراج

الطبعة الأولى ٢٠١٩

ص. ب ٢٣٥ رمسيس

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة

الرمز البريدي: ١١٧٩٤

تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩

فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION

P.O.Box: 235 Ramses.

1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo

P.C.: 11794

Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149

Fax: (202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg

E-mail: ketabgebo@gmail.com

www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ:

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إبداعات قصصية

24

الإخراج الفني والتنفيذ الإلكتروني

فتــوح فتحي فــوده

تصميم الغلاف

هنــد سمــير

التصحيح اللغوي

حمدي عبد الرازق

متابعة

عـلاء محمد عـادل

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجيه الهيئة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب. يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة المصرية العامة للكتاب أو بالإشارة إلى المصدر

رمال سوداء

إهـــداء:

إلى جدتي التي فَتَحَت أمامي صندوق الحكايات ونَسِيت أن تغلقه.

إلى جدي ورفاقه الذين تعبوا كثيرًا ولم يحصلوا على ذكرى تليق بهم.

وإلى أبنائي الذين سأحكي لهم حكايتي يومًا.

طارق فراج

"تحدَّث واملأ صدرك بالحنين قبل فوات الأوان. احكِ أنت بدورك قبل أن يتولى غيرك رواية أحلامك. فالورَّاقون التهموا بياض الأوراق الناصعة. تكاثروا مثل القوارض. الذي تعرفه جيدا، رغم التأويلات، هو أنك حين استيقظت وجدت نفسك، للمرة الأولى، تواجه خوفًا من نوع جديد. مسجونًا كنت داخل كهف مغلق مثل أيام القيامة".

واسيني الأعرج

هذه الرواية من نسج الخيال...

وإذا اتفق أن شابهت حوادثها وأشخاصها وأمكنتها أشخاصًا حقيقيين وحوادث وأمكنة حقيقية فهذا محض مصادفة، ومجرد من أي قصد.

١

في المرعى

استيقظنا مبكرًا، كعادتنا. كان قرص الشمس الكبير يصعد تدريجيًا من خلف حافة الهضبة (التي تضرب سورًا شاهقًا حول الواحة) ليرمي على حوائط البيوت ستائر أشعته الحمراء. ظلال النخيل والأشجار تمتد كأشباح عملاقة على البساط الرمليّ الأصفر الذي يكسو شوارع الواحة الصغيرة، وأزقتها الضيقة الملتوية. ترتفع الشمس قليلاً، مُتَسَلِلة أشعتها من نوافذ الحجرات التي عششت فيها الظلمة طوال الليل. يستيقظ الجميع، وتعزف الحيوانات والطيور لحنها اليومي الذي لا تمل ترديده كل صباح طلبًا للطعام.

حين أحسَّت الأغنام بوقع الأقدام أمام الحظيرة، تعالت صيحاتها مستغيثة من حبس ليل طويل. وما أن فَتحْتُ لها الباب حتى انطلقت، لا تلوي على شيء، تتقافز هنا وهناك محتفلة بيوم جديد. لا أدري ما الذي يعجب الأغنام في تلك الأيام المتشابهة؟ لقد وضعنا الله هنا، وسط الصحراء

الواسعة، تحيط بنا الكثبان الرملية، والكُتَل الصخرية المبعثرة مثل بقع سوداء لا نهاية لها، تعصف بنا الريح على الدوام. يستأثر بنا البرد في الشتاء ولهيب القيظ في الصيف. تستقبلنا الأرض بشقوقها الواسعة التي لا تكف عن طلب الماء.

خرجَت الأغنام في جلبة، محدثة غبارًا كثيفًا وأنا وراءها، "قَادس" الخوص الذي يحتوي على طعامي معلقًا بكتفي اليمنى. في انحناءة الزقاق، ظهرت أغنام "حَمّودَة" التي عرفتُها من خروفه الأسود الضخم "أبي القرون"، كما أطلقنا عليه. له قرنان طويلان يلتفان حول أذنيه.

بعدها ظهر حمودة في جلبابه الواسع الذي لا يتلاءم مع نحافة جسده، حاملاً "قادس" الطعام على كتفه اليمنى، وعصا طويلة تشبهه تمامًا، في يده الأخرى، فما أن اقترب مني حتى بادرني بالتحية.

في آخر زقاق "الطاحونة" (من جهة المقابر) ظهرت أغنام الولد " زوَّام"، تنكُش تراب الأرض بأظلافها، بينما يسوقها أمامه متكاسلاً. يقتلع قدميه اقتلاعًا، كأنه يسير على بساط من صَمْغ. عندما رآه حمودة زم شفتيه وقطَّب جبينه قائلاً: "أف، يا فَتَّاح، يا عليم"؟

تابَعْتُ يدَه التي ظلت لفترة تشير بالعصا نحو "زوَّام" المتجه نحونا بأغنامه. يمشي زوَّام وهو يتطوَّح مثل نبتة

واهنة في مهب الريح وآثار النوم عالقة بعينيه. قال دون أن ينظر إلينا:

"صباح الخير يا جماعة".

سأل حمودة: ماذا؟ ألم تسمع عن تحية الإسلام؟ قُل السلام عليكم يا أبله.

فتح المسكين فاه، محاولاً أن يرد لكن ذلك الشقي بادره، وهو يعترض طريقه، عاقدًا يديه على صدره: "هيا ردِّد ورائي: السلام عليكم، السلام عليكم، السلام عليكم".

أما زوَّام، فقد آثر السلامة ولم ينطق. مشي إلى جواري ملتصقًا بكتفي اليسرى وعصاه التي في يده تحتك بطرف جلبابي. وددتُ لو أقول له ابعد عصاك عن ثوبي الوحيد يا زوَّام. عاث "أبو القرون" في القطيع فسادًا. لم يكف عن مطاردة الأغنام التي كانت تتملص منه تارة أو تقف مستكينة مستمتعة بنشاطه الجنسي الزائد تارة أخرى، فكان كلما اقترب من إحدى غنيمات زوَّام، يقفز حمودة صائحًا، مسددًا نظرته القاتلة إلى زوَّام الذي كان يشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى حيث تتناثر، في الخلاء الواسع، شجيرات "دوم"، و"سنط" و"أثل" كادت قلة المياه أن تهلكها.

كنتُ أعرف أن ما يفعله الخروف الضخم يطيب للولد حمودة، ولن يكف عن مزاحه القاسي مع زوَّام محاولاً الوصول، في حديثه معنا، إلى الجنس والزواج والفتيات،

وكل تلك الموضوعات التي تتعلق بالاتصال بين الذكر والأنثى على وجه الأرض. لذلك قلتُ، محاولاً تغيير دفة الحديث: لقد تأخرنا. لابد أن "سُلَيمَان" سبقنا إلى المرعى.

قال حمودة: سليمان لا يفعل ذلك أبدًا. إنه الآن رجل كامل، بالتأكيد سيتزوج قبلنا.

قال زوَّام: ما الداعي إلى فتح سيرة الزواج الآن؟ هو بالكاد بلغ الخامسة عشرة أو ربما أقل.

قال حمودة: ذاك هو السن المناسب للزواج، نريد أن نتزوج يا ناس، لقد كبرنا بما يكفي، يقال إن آباءنا تزوجوا بينما كان المخاط يسيل من أنوفهم.

قلتُ موضحًا: إن أباه الشيخ "منطوق" يريد أن يزوجه ليتحمل عنه عبء الأرض، ويكفي الشيخ أنه يحل مشاكل الخلق ويحمل هَمَّ الجميع.

قال حمودة، إمعانًا في كيد صاحبه: زوَّام. ما أخبار الطعام لديك؟ إياك أن يكون خبزًا وبصلاً مثل كل مرة.

في الحقيقة، نحن لا نعرف ماذا تضع لنا أمهاتنا من طعام. غالبًا ما يكون رغيفًا من الخبز وبيضًا، طماطم وبصلاً أو جبنًا، أيّ أيّ طعام موجود في البيت.. والسلام.

أمام الدار، التي تقع على أطراف الواحة من الناحية الشمالية، كان "سليمان" ابن الشيخ بأغنامه الوفيرة منتظرًا، وأخته "مليحة" تقف في مواجهة الأغنام من الناحية

الأخرى، تهش عليها بعصا صغيرة حتى لا تنفلت نحو المرعى في الطريق الذي اعتادته. حين ظهرت أغنامنا، نظرت إلينا مليًّا. بادرتُها بنظرة ينوء من حملها الشوق، فابتسمت ابتسامة مضيئة، ثم دخلت الدار مسرعة، بينما اندمجت الأغنام في الفضاء الواسع أمام دار الشيخ منطوق مكونة قطيعًا هائلاً.

ما بالك يا مليحة تمُرين بحلاوة وعناد. تتسابين برقراقة كنبع تارة، وتارة تقفزين كطفلة لم تداهمها الأنوثة بعدُ، لكنك تكابرين. رأسك المطرزة بالفراشات والحقول والدُمى المصنوعة من القش والخرق البالية، تعتمل فيها الآن أشياء وخيالات لا تقدرين على الإفصاح عنها. إن مشاعري تصلك بالتأكيد.. أنا أحبك. أريد أن أصرخ بها. لا أعرف كيف أمررها إليك وجميع تلك الحوائط بيننا... ما العمل يا بنت الشيخ؟!

دار الشيخ في طرف الواحة من الناحية الشمالية، ينفتح بعدها الأفق على فضاء واسع تحتله الكثبان الرملية وأشجار الدوم والأثل والسنط، المتناثرة حتى حافة الهضبة التي تظهر للرائي مثل جبل شامخ.

بيوت الواحة في كتلة واحدة دائرية الشكل، تقع فوق ربوة، تفصل بينها أزقة ضيقة مسقوفة في بعض أجزائها، وتنمو في أفنيتها أشجار النخل، وتبسُق في المساحات الواسعة – وهي قليلة – أشجار كافور تسمو إلى السحاب، ذات جذوع ضخمة وأغصان متفرعة في جميع الاتجاهات.

البيوت متلاحمة كأنها تحتمي ببعضها البعض من حر الشمس في الصيف، ولا تسمح لبرودة الجو بأن تنفذ من خلالها في الشتاء الذي يأتي قارصًا لا يحتمل. أما الأفنية فواسعة، لها باب خلفي خاص بالحيوانات، وبوابات البيوت كبيرة ومزدانة في أغلبها بأطر معدنية تعلوها قطع من خشب أشجار الدوم، محفور عليها آيات قرآنية. تشعرك بالحميمية والألفة، تلك البيوت الطينية المعتمة قليلاً في النهار بسبب تداخل حجراتها وكثرة دهاليزها الطويلة، ثم يصعد بك السلم إلى الطابق الثاني الذي يسلمك إلى الفضاء. وهذا الطابق لا يشغله إلا "رواق" للنوم في الصيف، وحجرة "المجلس" التي تستقبل هواء الصيف من نوافذها الواسعة المشرعة على الدوام.

تزايد، في الأيام الفائتة، قلق الشيخ وهو يرى الكثبان الرملية الضخمة تزحف نحو بيوت الواحة وحقولها الواقعة في الناحية الغربية.

الحق أنه لا يمل من التفكير في هذا الأمر. وكثيرًا ما اجتمع الرجال عنده، وتباحثوا في أمر الرمال الزاحفة نحو بساتين النخل وحقول الأرز، لكن أحدًا لا يصدق أن تلك الرمال يمكن أن تطمر البيوت أو الحقول في يوم من الأيام، متعللين بأن الله قادر أن يوقف زحفها البطيء هذا، في أية لحظة. يقولون إن الرمال طمرت البيوت القديمة، لكثرة ذنوب الناس.

وصلنا إلى الساحة الرملية التي يتوسطها المسجد. انفصل القطيع منشقًا إلى معسكرين عندما اخترقه "عبدون" بحماره الهزيل رافعًا يده الخشنة بالتحية وقد تدلت ساقاه حتى كادتا تلامسان الأرض. عندما رآنا منحنا ابتسامته الرائقة وهو يخلل أصابعه الضخمة بين شعر رأسه الأشعث المتشابك مثل غابة من الشوك.

سأله حمودة: إلى أين يا بطل؟

أجاب بصوته الهادئ: سوف أعلّق الثور في الساقية لأروي أرض المعلم رزق.

قال حمودة: ما رأيك، لو علَّقت زوَّام في الساقية بدلاً من الثور؟

قهقه عبدون: يكفي زوَّام أنه قادر على أن يجرّ جسده.

قبل أن يفتح زوَّام فمه كي يضع حدًّا لهذا الهزل، كان عبدون قد لكز حماره فانطلق، متجاوزًا القطيع بمسافة قصيرة.

تناهى إلى سمعي صوت نباح كلاب يأتي من بعيد. دائمًا ما أربط بين نباح الكلاب وبين عبدون؛ منذ تلك الواقعة التي حدثت له وهو صغير. أكاد أجزم أن الكلاب تشم رائحته من مواقع تجمعها عند منطقة المقابر، غرب الواحة.

يغلق عبدون عينيه الضيقتين حين يضحك، فيرتخي حاجباه الكثيفان، حتى تشعر أنه بلا عينين. هو حقًّا فتى

طيب، برغم سمرة بشرته الواضحة، إلا أن قلبه أبيض من الدقيق. لا أكاد أذكر أنه تشاجر مع أحد أبدًا.

عبدون ابن عم "عبد الفضيل"، لا يخرج معنا إلى المرعى، لا لشيء إلا لكونه لا يمتلك أغنامًا. والده، الذي لا يمتلك أرضًا أيضًا، يعمل عند الناس. يدير الساقية ويطحن الغلال، فيعطونه كل ما يحتاجه من غلال وفواكه وخضروات، حتى أنه يستكثر ما يُعطى له. صديقنا عبدون يؤثر الوحدة، يعشق حياته برتابتها المعتادة، ويكره تلك الأحداث المفاجئة التي قد تهزه من الداخل، ذلك لأن حوادث مفاجئة سابقة قد اخترقت مسار حياته وأحدثت فيه أثرًا. هو لا يصاحبنا إلا في الليل، أما في النهار فهو يعمل، يساعد والده في ري أراضي الخلق وطحن حبوبهم.

اقترب منا سليمان بعد أن اندمج القطيع:

قلتُ مبتسمًا: كيف حالك يا شيخ؟

قال سليمان معترضًا: يا أخي، ألا يكفيك أبي في البيت؟

قال حمودة: إن أباك يحكم هذا المكان، ويحل مشاكله، تعرف يا سليمان، أنا لو كنت مكانه...

ابتسم زوَّام: ماذا كنت ستفعل يا فالح؟

قال حمودة: كنت أشعلتُ فيك النيران يا زوَّام حتى تتفحّم فيُعمّر بك أبي الشيشة التي لا يكف عن تدخينها ليل نهار.

علت القهقهات ورفع زوَّام عصاه منطلقًا وراء حمودة

الذي أسلم ساقيه للريح، ثم ما لبث أن قفل عائدًا وهو يتودد إلى زوَّام كي يصفح عنه.

وسأله زوَّام: حقًّا يا حمودة. ألم تجرب أن تدخن ذلك الشيء؟ ألم تذُق طعم الدخان؟ إن أبي يدخن أيضًا. منذ سنوات، وأنا أعجب من الدخان الكثيف الذي يُخرجه من أنفه وفمه. يَخرج الدخان صاعدًا في فضاء الحجرة حتى يتسلل من الكوَّة الصغيرة في السقف متحدًا مع شعاع الشمس الداخل. رائحته طيبة ذلك الدخان، أليس كذلك؟

قال حمودة: نعم، جربته مرة واحدة. كان أبي قد غادر المنزل تاركًا نارجيلته مشتعلة. تلفّتُّ حولي، كان المكان آمنًا. حاولتُ أن أفعل مثله. سحبتُ نَفَسًا عميقًا، دخل الدخان رئتيَّ حتى كدتُ أختنق. لم أعد إلى مثلها ثانية، لكني الآن، أفكر جديًّا أن أدخن. ولم لا، فكل الرجال يدخنون. ألسنا رجالاً الآن؟

خلّفنا بيوت الواحة وحظائرها وراء ظهورنا، ونحن نحث السير خلف القطيع الذي اتخذ طريقه المعتاد نحو الجنوب الغربي متخطيًا منطقة المقابر. ما أن تجاوزنا شجرة السنط الكبيرة التي تحرس المنطقة حتى رفعنا أصابعنا السبابة مشيرين إلى المقابر القليلة المتناثرة ونحن نتمتم بسورة الفاتحة. تقدمنا في هدوء، لا ننبس ببنت شفة، ولم يكن سوى ثغاء متقطع واهن يصدر عن القطيع الذي ربما تضامن مع صمتنا أو أخذه جلال الموقف أيضًا، حتى

خروف حمودة الضخم كف عن مغازلة الأغنام والتزم الهدوء.

تقول أمي بأن الطيور والحيوانات لا تُخطيء رائحة الموت، تشعر باقترابه فتعلو أصواتها مجلجلة في فضاء الواحة، خاصة قبل موت الرجال. "ولم الرجال تحديداً يا أمي؟"، سألتُها مستغرباً فأجابت: "إن موت الرجل يعني خراب البيت"، قالت ذلك ثم استطردت: "البوم والكلاب أكثر المخلوقات قدرة على التنبؤ بالموت". قلت مُحتجاً: "الله وحده يعرف متى يموت الناس". أومأت برأسها موافقة على كلامي ثم قالت: "لكن الطيور والحيوانات تشم رائحة الموت مثلما تعرف بالفطرة أماكن تواجد الماء".

تأملتُ القبورَ التي أحاطتها الرمال، محاولاً أن أتخيل كيف صار حال من فيها. تزحف الكثبان الرملية من ناحية الغرب وتمتد بأقواس كبيرة ذات حواف عالية مسنونة نحو الشمال، تقترب في كل عام نحو القبور، ثمة قبور غطتها الرمال ولم يعد لها أثر.

كسر حمودة رهبة ذلك الجو الذي سيطر علينا، عندما التفت إليَّ صائحًا وهو يشير إلى زوَّام قائلاً: انظر يا حسين، ذلك الغبي يُحَرِّك شفتيه مُتصنعًا أنه يقرأ الفاتحة.

قلتُ: ولماذا يتصنع ذلك يا حمودة؟

قال حمودة: لأنه لا يحفظ الفاتحة أصلاً، لقد ذهب تَعَب العم "شعيب" معه، في الكُتَّاب، أدراج الرياح.

قال زوَّام في ثقة: مَن يراهنني على أنني أكثركم حِفظًا للقرآن؟

قال سليمان: دعكَ من ذلك المُدَّعي الذي لا يفقه شيئًا يا زوَّام، أنت أكبر من أن ترد عليه.

تهلل وجه زوَّام وهز رأسه اختيالاً.

ظهر الأفق أمام أعيننا واسعًا. أشجار السنط والدوم متناثرة يمينًا ويسارًا، تحيط بها أقواس صغيرة من الرمال تكاد تطبق فكيها على جذوعها الضامرة. الأغنامُ تعرف الطريق، ونحن وراءها في درب صحراوي مطروق. في البعيد، تظهر تلال رملية ممتدة ورُبَى عالية تشبه أسنمة الإبل، تكسو قممها المدببة طبقة من حصى صغير أسود. انحدرت الأغنام مع انحدار الأرض نحو بقعة واسعة تنمو فيها الحشائش وأشواك "العاقول" والحلفاء التي تتخللها بعض أشجار السنط. كانت الأغنام تحث الخطى كلما اقتربت من هدفها المنشود. اعتزلنا العالم عندما دخلنا إلى عمق المنخفض، غابت البيوت ومزارع النخل والكثبان الرملية العالية. لم يعد في مرمى أنظارنا سوى شجيرات متناثرة وحشائش فقيرة ندهسها بأقدامنا الحافية. أحاطنا المنخفض الصغير بحوافه التي تبدو مثل أسوار الأفنية، وسقط العالم في طبق كبير من السكون. تبدو حافة المنخفض الشرقية أكثر ارتفاعًا، تشرف على منطقة واسعة تحتلها صخور جرانيتية سوداء، تأخذ أشكالاً لطيور

وحيوانات في أوضاع مختلفة. حين وصلنا، كان قطيع آخر في انتظارنا.

ابتسم لها سليمان فابتسمَتْ؛ ترتدي "سبيل" جلبابًا، أرضيته خضراء، نُقشَت عليه دوائر حمراء وبنفسجية وسوداء. عيناه تشعان بنور عجيب، وعيناها تستقبلان نظراته بارتياح. كانت "سبيل"، ابنة العم "صُبحي" جالسة مع "عفاف"، ابنة "على المجَبّراتي"، على صخرة سوداء، ضخمة وناعمة أسفل إحدى شجيرات السنط المتناثرة في المرعى. أغنامهما القليلة التحمت الآن مع قطيعنا وتماهت معه، حتى كادت تذوب فيه. المرعى يمتد باخضراره الفقير على مساحة واسعة، من الناحية الجنوبية للمرعى، ثلة كثيفة من أشجار الأثل والدوم ونباتات الرطريط والحلفاء. تلك الصخرة السوداء الضخمة كانت وحدها في هذا المكان، ترقد في ظل الشجرة كأنها جاءت هنا باختيارها. اقتربنا وتبادلنا التحية.

لقد تقابلنا هنا من قبلُ مرات قليلة بمحض الصدفة، فأغنامهما لا ترعى، لأن عم "على المجبراتي"، وعم "صبحي" يجلبان لها الأعلاف في الحظائر. سبيل ابنة صبحي تجلس ساكنة، وإلى جوارها ابنة المجبراتي بجلبابها المتسخ ونحافتها البائنة. صدرها الناهد على خلاف تام مع جسدها الجاف، وعجيزتها المكورة المنكمشة لا تتوافق مع عودها الطويل، فقط كانت عيناها الواسعتان تملكان نظرات قاتلة.

حين اقتربنا، حاول حمودة أن يلتقط خيطًا للكلام، فهو يميل إلى عفاف. يشاكسها وهي تسقيه المرار. تستخدم معه أسلوب الإقدام والإحجام، فتشعل ناره.

سألهما حمودة وهو يركز نظراته على عفاف: كيف حالكما، متى وصلتما هنا؟

أجابت سبيل: جئنا منذ فترة وجيزة.

كان يتمنى أن تجيبه عفاف، لكنها التزمت الصمت. تقدم سليمان خطوة واحدة في اتجاه سبيل التي تشاغلت بحك أظافرها في الحجر الذي تجلس عليه. سألها عن قبعة الخوص التي تصنعها له والدتها فأجابت على الفور: "إنها تزينها الآن، سترسلها إليك حال الانتهاء منها". لمحتُ ابتسامتها العذبة التي منحتها له. كلنا نعرف قصتهما، وسبيل تعرف أننا نعرف.

أم سبيل بارعة في صناعة قبعات من خوص النخيل. تمنحها كهدايا لمن يحتاجها ولا تأخذ أجرًا مقابل ذلك. أنتَ إذا أردتَ واحدة فما عليك إلاّ أن تأخذ منجلكَ وتخرج حيث أشجار النخل المتناثرة على أطراف الواحة- تلك التي لا تُثمر، ولا تخص أحدًا- تمُد يدك بحرص خلال الجريد المتأهبة أشواكه للانقضاض، وتقطع، في حذر، ذلك السعف الأبيض من قلب النخلة، ثم تعود بها إلى العمة "زهرة". ستقابلك مُتهللة الوجه؛ فهي امرأة خدوم، لا ترد أحدًا كاسف البال.

الحوار المقتضب، الذي دار بينهما على مرأى ومسمع منا، لم يرض حمودة الذي توجه بسؤاله هذه المرة إلى سبيل: لا بد أن والدتك سوف تهتم بقبعة سليمان كما لم تهتم من قبل، لكنها بعد أن تنتهي من تزيينها، مع من سترسلها؟

صمتت سبيل وبادرته عفاف بغيظ: وما شأنك أنت؟!

هي فتاة مبتسمة على الدوام، قال سليمان إن ابتسامتها لا تشبه ابتسامة أحد. لا أدري لماذا يغفل أن لوالدتها الابتسامة العذبة ذاتها. أما حمودة فهو يعرف أن العم صبحي ليس لديه سوى ابنة واحدة، ولا مناص من أن سبيل سوف تذهب بشمسيَّة الخوص إلى بيت الشيخ، بنفسها.

إن سليمان، في الحقيقة، لا يلتقي بها إلا لُمامًا، وحين يجتمعان يدور بينهما حوار مقتضب، لكنهما حين ينفردان في فناء البيت الخلفي يكون لهما شأن آخر. والده يريدها زوجة له، وسليمان لا يستريح في الحديث إلا معي؛ فحمودة لا يؤتمن على سر(اختبرناه أكثر من مرة، وائتمناه على بعض الأسرار، لكنه لا يستطيع قفل فمه) وزوَّام لا يتحمَّل الكلام في مثل تلك الأمور؛ يحمرّ وجهه خجلاً ويرتبك. سبيل فتاة جميلة.. مربوعة وغضة. شعرها ناعم فاحم السواد، تظهر مقدمته اللامعة من "الإيشارب" الذي تتعمد إزاحته قليلاً إلى الخلف، وتترك خصلة صغيرة من شعرها تنسدل على جبينها الوضاء.

انطلقت عفاف وراء غنيماتها التي شردت متجهة ناحية أشجار الأثل في طرف المرعى، وأنا لكزت حمودة بعصاي، ثم أفهمته أن يتبعني لنراقب الأغنام من الناحية الأخرى. وهكذا، أخلينا الطريق أمام سليمان وسبيل. وقفت أنا في ناحية، وزوَّام فى ناحية. أما حمودة فقد تعلل بأن عفاف تأخرت وربما لا تستطيع أن تعود بالأغنام الشاردة وحدها، حيث أن غنيماتها لم تتعود الخروج من الحظيرة إلا نادرًا... وانطلق يناديها.

عفاف ابنة الطبيعة. تحيا بفطرتها. هي هكذا... مثل شجرة برية تمتص غذاءها من خصب الطبيعة.. لا تهتم كثيرًا بنظافة ملابسها، تقفز حافية بين الأشواك والحشائش مثل غزالة برية. تداهم الرمال الساخنة بباطن قدميها ولا تهتم!!

تأخرت عفاف بالفعل، وحمودة الذي انطلق وراءها تأخر هو أيضًا، وسليمان واقف أمام سبيل الجالسة على صخرة سوداء ناعمة أسفل شجرة السنط.

كانت الصخرة الكبيرة، مثل بيضة طائر خرافي، سوداء وناعمة. طالما اصطففنا فوقها في الصغر؛ على اعتبار أنها سيارة العم "رزق". كان ثمة إحساس واسع بالحياة، وخيال جامح يقود العربة ويسافر بها إلى مصر، حيث الماء وفير والخير مكدس في الشوارع تطوله الأيدي دون عناء. كانت الصخرة متنفسا رحبا، كما كانت شجرة الدوم (موطن

طفولتنا ومرتع أحلامنا) وطنًا حقيقيًا نقضي فيه معظم ساعات النهار، فلا نبرحه إلا عندما يقرصنا الجوع. بيتٌ واحد يضمنا جميعًا في ظل الشجرة. لا أدري لمَ لم نفكر وقتئذ أن نقلد آباءنا في أن يكون لكل طفل منا بيت مستقل. صنعنا بيتًا من الأحجار الصغيرة التي جمعناها من الفضاء الواسع المحيط بنا؛ حجرًا إلى جوار حجر، لتتضح معًالم البيت الذي كانت تجلس فيه الفتيات، في ظل الشجرة، يجهزن الطعام إلى أن نعود، نحن الرجال، من الحقل، يضعنه في علب صغيرة وأوعية متهالكة لفظتها أمهاتهن خارج البيوت، ثم يقدمنه فوق حجر أسود كبير مستطيل الشكل، كان موجودًا بالصدفة أسفل شجرة الدوم من سنوات. طعام من الحصى وأوراق الشجر المفتتة، والتراب أيضًا. كانت حقولنا المتخيلة على مقربة من ذلك البيت المتخيل. تلك الحقول التي نعود منها مجهدين!! فنزعق كما يزعق آباؤنا: "الطعام يا بنت"، فتهرول الفتيات نحونا، يقدمن لنا الطعام، بينما نتصنع الوقار ونحن نمثّل التهامه.

تلك كانت دنيانا الحقيقية، ولم يكن البيت والآباء والأمهات سوى حلم صغير، سرعان ما نتجاوزه، لنعود في لهفة إلى الشجرة/الوطن، فنفعل كما يفعل الآباء: نروي حقولنا حين يروون حقولهم، نزرع القمح حين يزرعون ونأنس إلى زوجاتنا في حجراتنا المتخيلة كما يأنسون. كان حمودة وعفاف زوجين، بدر وثريا زوجين، عبدون وراضية

زوجين، وكنت أنا ومليحة زوجين. أما سليمان ابن الشيخ فلم يكن يلعب معنا تلك اللعبة إلا نادرًا، وعندما يكون حاضرًا ونحن نلعبها، نظل أنا ومليحة جالسين معه على بعد خطوات دون أن نشارك الآخرين.

كان البيت وما حوله من أراض نموذجًا متكاملاً للواحة بعلاقاتها الإنسانية وأعمالها، وحيواناتها التي كنا نتخذها من جريد النخل، إلا أنه كان نموذجًا مثاليًا يخلو من العراك والمشاكل.كنا نتسلق "الدومة" عندما تثمر، نقطف ثمرات الدوم قبل أن تنضج، نجمعها في أكوام، ثم نثقبها بأشواك متينة من جريد النخل الجاف. نشرب، ونعطي زوجاتنا ليشربن معنا ما في جوف الثمار من عصارة لذيذة، بعدئذ نقطعها بالمنجل: كل ثمرة نقسمها نصفين، لنستخرج قلبها الأبيض ونأكله.

كانت الأيام، وقتئذ، تمر صافية، تحملنا على أجنحة بيضاء ناعمة، ولم يعرقل انسيابية مرورها بذلك الشكل سوى يوم واحد تمزق فيه جلباب حمودة وهو يحاول قطف ثمار الدوم من أعلى الشجرة. في ذلك اليوم شُق الجلباب من طرفه حتى أعلى ركبته لأنه علق في أحد "القحوف" اليابسة بالشجرة.

كنا نرفع أنظارنا إلى ساقيه الرفيعتين ونضحك بينما يتسلق جذع الشجرة المستدير في خفة ومهارة قرد.. صعد حمودة الشجرة، بينما انهمكنا- نحن الرجال- في تمثيل

ارتشاف القهوة بصوت مسموع (كانت عفاف قد تطوعَت بصُنع قهوة متخيلة للجميع). أراد حمودة أن يكافئ زوجته بقطف بعض الثمار لها، لكن جلبابه علق في "قحف" الدوم وتمزق، وقد كلفته شهامته الزائدة توبيخ والدته له وعَلقة ساخنة من العم بركات، لأنه مزق ملابسه قبل أن يحين موعد شراء أقمشة جديدة.

تركت سبيل وسليمان لحالهما وانطلقت - متعللا بتأخر حمودة - أفتش عن الجميع. حاول حمودة، بعد أن فاض به الكيل، أن يطرح عفاف على الرمال الخشنة بين أشجار الأثل لكنها دفعته في صدره - حين حاول أن يقبلها عنوة - وصفعته صفعة خفيفة على وجهه وكأنها تحذره. وقف متخشبًا كتمثال فرعوني لا يدري ماذا يفعل.. استدار ببطء موليها ظهره.. هي أيضًا ظلت متسمرة مكانها، تنظر إلى قفاه الذي لفحته الشمس، وما أن خطا خطوتين حتى سمعها تستدعيه، يدها ممدودة نحوه، مد يده وصافحها.. نظر في عينيها طويلاً دون أن ينبس ببنت شفة فبادرته قائلة: أنا أختك يا حمودة. أليس كذلك؟

وقف ساهمًا، شاخصًا ببصره في الناحية الأخرى، ولم يجب.

توسلت عفاف: ألن ترد عليَّ؟

لكنه لم يحر جوابًا وزاد نشيجه، فانصرفتُ أنا بخفة، ولم أعلم بما دار بينهما إلا فيما بعد.

بنت الجنية تلك، ألن تترك الولد وشأنه!! ألا يكفيها والده الذي يمازح كل فتاة تقابله في وضح النهار؟! أنا رأيته يومًا أمام بيته وقد استوقف عفاف. امتدح جمالها ونعومة صوتها ورهافة مشيتها وهي تنظر في خجل باتجاه قدميها الحافيتين، وعندما شعر بارتباكها بادرها قائلاً: ها قد أصبحت عروسًا، سأزوجك بحمّودة. هرولت عفاف من أمامه وقد احمرّت خجلاً. لقد أخبرته بذلك فلم يبالِ بما فعل أبوه قائلاً: أبي لا يأخذ الأمور على محمل الجد!

أخبرني حمودة أنه تلصص ذات يوم عليها وهي تقضي حاجتها خلف شجيرات الأثل —قال إنه لم يكن يقصد التلصص ولكنه كان هناك للسبب ذاته —أحست بوجوده في الجوار فانتفضت مذعورة ويداها ترفع سروالها، رفعته في غمضة عين. كان يقف مذهولاً، وهي مرت بالقرب منه كأنها لم تره!!

قال إنها لم ترفع، في ذلك اليوم، عينيها في عينيه. وكلما حاول أن يحدثها تجتنبه. وفى اليوم التالي سألته عفاف: ماذا رأيت؟ لكنه لم يجبها.

سألتُه بدوري: وماذا رأيت؟

قال مبتسما: رأيتُ وردة متفتحة.

كان يحدثني بينما تنظر عيناه للبعيد: "مرت يومئذ بجواري، ولم تنظر إلىّ. وقفتُ ساهمًا ثم استدرتُ. أنظر

مليًّا إلى الثقوب التي أحدثَتَها في الرمال. وقتها، داهمني شعور غامض ورغبة شديدة في أن أقدم على الأمر نفسه، في ذات المكان الذي تبوَّلت فيه.

سألته: لمَ فعلتَ ذلك؟ فأجاب وهو يهز كتفيه: صدقني، لا أدري.

❖❖❖

جلسنا في الضحى لتناول الطعام، في هذا الخلاء الواسع الذي لا يدري فيه بنا أحد. السماء ترتدي ثوبًا صافيًا أزرق، تمامًا مثل ثوب الشيخ منطوق الذي يرتديه في أغلب الأحيان، والشمس ابتدأت مشوارها اليومي في الصعود إلى كبد السماء مُرسلة أشعتها الحارقة على كل الموجودات. الأغنام آثرت الظل، فانقسمت إلى مجموعات مسترخية تحت أشجار السنط المبعثرة هنا وهناك. كانت حافة الهضبة – التي ندعوها الجبل – تقف من الناحية الشرقية مثل حائط مهيب، والكثبان الرملية الصفراء على امتداد السهل الصحراوي أسفلها، تزحف ببطء نحو منطقة المراعي، مثل حيوانات ضخمة من عصور بائدة.

حاولت سبيل أن تجعل جلستها إلى جانب سليمان وأفلحت، بينما جلست عفاف إلى جوارها، لم ترفع عينيها عن الأيادي التي تعبث بمحتويات أواني الطعام. تختلس نظرة قصيرة بين الحين والآخر إلى حمودة الذي يلاحظها

بصمت لم يتعود عليه. أما زوَّام فقد جلس هادئًا كعادته لا يكاد يبدي حراكًا. حاولتُ أن أكسر ذلك الصمت الذي طفح على وجوه الجميع فتوجهت إلى حمودة عله يخرج علينا بمزحة أو موقف من مواقفه العجيبة التي لا تنفد؛ سألته: ما بك يا حمودة؟

قال حمودة: لا شيء، فقط أريد أن أترك هذه الواحة وأسافر إلى مصر، حيث الوجوه النظيفة والفتيات الرائعات.

نظرت سبيل إليه بتعجب، وعفاف لم ترفع عينيها عن الطعام، فتابع كلامه: أتمنى أن أعمل في أي شيء آخر، بخلاف رعي الأغنام والذهاب إلى الحقل. أريد أن أرى شيئًا آخر غير النخل والرمال والصخور، أرى وجوهًا غير تلك الوجوه التي أحرقتها الشمس، أشرب من ماء النيل، لا من عين المياه الحامضة التي زهدتُها. أتمنى ألاّ أرى الشمس أبدًا.

قال زوَّام: آه لو أتذوق طعم "الكُمثرى" التي سمعتُ عن طيب مذاقها ممن سافروا إلى هناك!!

ثم قضم قطعة من الخبز وابتدأ يلوكها بصوت مسموع. هنا صفق حمودة: رائع يا زوَّام. إذن نسافر معًا، نعمل في جَمْع القمامة، حتى لو اشتغلنا ماسحي أحذية، المهم أن نسافر ونرى الدنيا. لم لا نسافر مثلما سافر "عوض"، تُرى كيف أصبحت أحواله هناك؟

عندئذ، سألهما سليمان: لماذا تريدان السفر؟ ألم تسمعا عن الشقاء والتعب اللذين يجنيهما الرجال هناك لقاء قروش قليلة. يجوعون وتنسحق كرامتهم من أجل أن يدّخروا القليل لعيالهم.

قال حمودة: لا بأس. أريد أن أجرب؛ إن الرمال التي تحيط بنا هنا تخنقني.

كانت نظرات الفتاتين تنتقلان بيننا بدون تعليق.

قلتُ: تُرى، ما الذي وصلنا إليه هنا؟ وما الذي يمكن أن نصل إليه فيما بعد؟

نظر الجميع إليَّ بدون تعقيب، كانت نظراتهم تستجدي كلمات أخرى.

أردفتُ موضحًا: أقصد من منا أعطى لنفسه مساحة من التفكير ليرى ما الذي حققه، وما الذي يستطيع أن يحققه في أيامه القادمة؟

قال حمودة: يبدو أن أوراق الشيخ التي تحاول استيعابها أثّرت في عقلك. ثم التفت إلى سليمان متأسفًا: عذرًا يا سليمان، لقد أخرجني "حسين" عن شعوري.

قال سليمان: ولمَ تعتذر؟ لقد تلقيت قدرًا من التعليم - شأننا جميعًا - على يد العم شعيب في كُتّاب المسجد.

قال حمودة: أنا لا أحب العم شعيب الذي كان يضربني بسبب ودون سبب، ليس شرطًا أن الأحب الأوراق وما يكتب

فيها مثل حُسين. أفهموني يا ناس. أنا أريد أن أستيقظ من النوم فأجد الواحة وقد مُسِحَت من الوجود بما عليها ومن فيها.

قلتُ: العم شعيب علمنا كيف نقرأ ونكتب، برغم فظاظة أسلوبه وتجهمه.

هزت عفاف رأسها موافقة، وبادرتني بنظرة ثابتة من عينيها الواسعتين.. لأول مرة ألاحظ دقة أنفها وأتابع بحرص صدرها الذي يهتز لأدنى حركة تبدر منها، ثم سألتني:

- قل لنا إذن، ما الذي يدور في رأسك؟

- قال لي الشيخ ذات يوم، إن في داخل كل إنسان منا إرادة تستطيع أن تفتت الصخر. لكن المشكلة تكمن في كيفية اكتشافها وتطويعها لتحقيق أهدافنا. وعندما سألته كيف أعثر عليها أجاب: فتش داخلك يا بني.

سألني زوَّام: وماذا وجدت؟

قلتُ: إنني أحاول، وهذا يكفيني الآن.

قال سليمان: حقًّا، إننا لا نفكر. نعمل ونأكل فقط.

صرخ حمودة: يكفيكم هذا. لا جدوى من الكلام. امسحها من الوجود، يارب.

قال سليمان: ستفهم ذات يوم يا حمودة.

ثم قام وهو ينفض مؤخرته من الرمال التي علقت بملابسه، وخطا خطوات قليلة. وقف تحت سياط لهيب الشمس ووضع حجرًا صغيرًا عند نهاية ظله على الأرض، ثم بدأ القياس: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

قال: أربعة أقدام للظل.

كان ذلك إيذانًا بحلول وقت العودة إلى الواحة. لا يمتلك أي منا ساعة لمعرفة الوقت، لكننا نعرف ذلك بسهولة عن طريق قياس الظل. قمنا نهش الأغنام التي عرفت ما نريد فتجمعت في قطيع واحد، واتخذت طريق العودة إلى الحظائر.

تفرَّق الصَّحْب بعد أن قطعوا الساحة الرملية الواسعة التي تفصل الواحة عن الدرب المؤدي إلى المرعى. حمودة يكرز أغنامه أمامي، ساهمًا على غير عادته. يلتصق بالحائط اتقاءً لحرارة الشمس. الحوائط التي ارتمى ظلها تحت قدميه، تصنع خطًّا ضيقًا، تمامًا مثل صدره الذي انحشر اليوم خزيًا. كان يدهس كل ما يقابله من "بعر" الحمير المتيبس، أو يركله بقدمه فيتناثر أمامه في قطع صغيرة، ويبدو أنه ارتاح إلى هذا الفعل.

هذا الشارع الذي يعج بالصمت والحرارة هو اختصارٌ للحياة، هكذا. خط رفيع من الظلال التي تجود بها الحوائط، يوازيه تمامًا خط رفيع أيضًا من روث البهائم.

خطوط متوازية لا تلتقي أبدًا، ولكنها تنتهي جميعًا عند نقطة واحدة.

أتساءلُ أحيانًا ما الهدف الحقيقي من هذه الحياة، إن كانت أحلامنا لا تتحقق كما نريد، إن كنا نعيش كما يريد آباؤنا، لا كما نرغب نحن. إننا دائما تحت سطوة الكبار الذين يتعللون بأنهم أكثر عقلاً وخبرة. فليذهب عقلهم المتحجر هذا إلى الجحيم: لماذا لا نستطيع أن نعبر عن مشاعرنا بطريقة أفضل من هذه؟! لماذا يقيدوننا هكذا؟! إن أسبابهم وحججهم واهية، لأنهم لم يعطونا الفرصة أبدًا للتعبير عن أنفسنا كما ينبغي.

2

مغلوبان على أمرهما

عندما وطأت قدماي تراب الواحة، لأول مرة، كنت راقصة. قدمتُ مع أهلي الذين لا يعرفون مهنة سوى العزف والغناء، والرقص في الأفراح. كانت أمي - قبل أن يقعدها المرض - راقصة لا تُبارى، وكان الرجال يغذّون السير لساعات طويلة، في ليالٍ شديدة الحلكة كي يمتعوا أنظارهم برؤيتها ترقص. وعندماً استدار جسدي وطفرت ثماره كان الرجال في ذروة العرض يصيحون: "نريد فاكهة، نريد فاكهة؛ يطلبونني بالاسم، وكانت والدتي لا ترد لهم طالبًا ما داموا سيدفعون".

أمي الآن مقعدة. ركبتاها ترتعشان على الدوام، ولا تستطيع المشي إلا بمساعدة أحدهم. رأيت بعض الرجال يحتضنوها خلسة، وبعضهم كان يحتضنها على مرأى ومسمع من أبي الذي كان يطأطئ رأسه متصنعًا الانهماك في لف سيجارة دخان أو منشغلاً بأي شيء والسلام. كان

ممتنًا للمال الذي يلقونه تحت قدميها... ثم تحت قدميَّ، فيما بعد.

في تلك الليلة التي تعرفتُ فيها على "تعلب" رقصتُ كما لم أرقص من قبل، انتزعتُ آهات الرجال وأنفاسهم الحرَّى، وأُصبتُ بغيرة النساء وحقدهن. كان "تعلب"، حينئذ، قادمًا لتوه من عاصمة البلاد، ملابسه نظيفة، وشعره مرجلٌ تفوح منه رائحة المدن الكبيرة التي تعلم فيها عبارات الغزل، تلك التي كان يلقيها في أذنيَّ، كلما اقتربتُ منه، فتشتعل حواسي كلها وتتفتح ورود جسدي... غادرتُ الواحة مع أهلي بعد انتهاء ليالي العُرس، وتبعني تعلب. اقتفى أثري ولحق بي في أماكن عدة. تزوجني بعد أن هربتُ معه، ليتني ما فعلت...

ذات مساء مضى، جاء "صُبحي" مُتسللاً، طرق بابي ودخل دون أن ينتظر ردًا، ذلك لأن الباب كان مواربًا.. لم أدرِ لم فعل ذلك ليلتئذ، وكيف فكر في ردة فعلي تجاه ما كان يقصده!!

كان يعرف مقصده تمامًا، لكنني لم أكن أعرفُ كيف فكر في أخذي بتلك الطريقة المشينة!! جاء يدب الأرض بقدميه الكبيرتين اللتين تحملان جسدًا قويًا لرجل يستطيع أن يدير ساقيته بدلاً من الثور لساعات.

كان يعرف أن لا أحد في البيت غيري؛ امرأة طازجة لم تذق طعم الرجال. يعرفُ أن زوجي في الحقل يروي شقوق أرضه العطشى. أرضي أنا، من يرويها؟

وصل إلـى البـاب. وجـده مفتـوحًـا بـالكـاد. لمح ضـوء الفانوس الخافت ينفلت من البـاب صانعًا مستطيلاً ضيقًا من الضـوء. قبل أن تسبقه قدمه إلـى الـداخل، كـان صـوت الصبـي - الذي يبيت معي أحيانًـا ليلة أن يغيب زوجي لري أرضه في الحقل - يخترق أذنيـه. تراجع بهدوء، بينمـا كنتُ أتابع صوت خطواته تبتعد.

❖ ❖ ❖

كنتُ أشعرُ بأن الليل كله استحال إلى عين كبيرة تتلصص عليّ. تحسستُ خطاي في الظلمـة الكثيفة التي تقبض على الـواحـة بكاملها، بينمـا يـدي تتلمس الحـوائط بين لحظة وأخرى، والـهواء في أعالي النخيل يصدر وشيشًـا يطن في أذنـيَّ ممتـزجًـا بنباح الكلاب الـذي يـأتي مـن بعيـد.. كلمـا رأيتها أشـعر كأن رأسي ارتطمت في صخـرة كبيرة. إحساس لا أقدر على وصفه. إلـى متى سيظل لسـاني منعقدًا بحبل من الـصمت والتـردد كلمـا واجـهتهـا. أقـول في نفسـي: "لا تتردد يا صبحي؛ فاكهة تعرف.. نعم، تشعر برغبتي فيها".

لم أستطع أن أفسـر مـتى امتلكَتْ فاكهـة هذه القـوة التي تجذبني إليهـا؟ وكيف استطـاعت أن تحرك مشـاعري هكذا ولا أقـاوم؟ أي سـحـر هـذا. . أعـرف أن لـلجمـال سلطـانًـا. تـرى، هل تـريد ما أريده تمامًـا؟ نعم، وإلا فلماذا تلك النظرة الـنهمـة الـتي تشعل جسـدي بلا رحمـة، فـتمـزق أعصـابي وتزلزل حواسي. نعم، نعم، لا رجعة في الأمر الآن.

كنتُ أمشي في الزقاق مُحتاطًا متوجسًا. أمنّي نفسي بليلة عذبة بين أحضان "فاكهة" الطرية، وأقسمتُ في سري إنها لو وافقت، فستكون ليلة لا تنسى. قبل أن أصل إلى بيتها كان المشهد مرتسمًا أمامي كاملاً: سأجد الباب مفتوحًا. أدخلُ. أجدُها في جلباب بيتي خفيف يبرز أنوثتها الطاغية. تنظر إليَّ كأنها ترى رجلا للمرة الأولى في حياتها. أنظر أنا إليها نظرات مفعمة بالشوق. أقترب. لا تتحرك. أحاول ضمها بين ذراعيَّ، فتنفلت من بين أصابعي وتفر هاربة. أجري وراءها، لكنها تزوغ مني... وهكذا دواليك. لكنها حين تشعر بأن الغضب قد تملكني، تقف مكانها مستسلمة تمامًا. وقتها أفرغ غضبي فيها، وهي تتلوى تحتي قابضة عليَّ بذراعين لا ترتجفان ولا تضعفان. وحين تخمد نارها، تسقط ذراعاها إلى جنبيها، راضية مطمئنة.

مغلوبة على أمرها "فاكهة"، وأنا مغلوب على أمري. فزوجتي العجفاء لا تهتم إلا بصنع قبعات الخوص للرجال، وتنظيف حظائر الدواجن، وقص صوف الأغنام. نبيت في فراش واحد، كل ليلة: أنفاسها في وجهي، ورائحة الأغنام (التي أكرهها) قد التصقت بجسدها. إنها تحاول أن ترضيني بجميع السبل، لا شك في ذلك. حاولت أن أعلّمها أن للمعاشرة فنونًا تشعل نار الرغبة في الجسد، لكنها كانت تهز رأسها استهزاءً، وتستلقي مثل جوال من القمح، تاركة

لي حرية أن أفعل ما أريد دون أي حركة منها. وعندما أنتهي، تسألني بلا اهتمام: "هل انتهيت؟" هل هذه حياة؟! لقد أنفت نفسي منها، تلك المرأة الحمقاء.

حين أصبحتُ بعيدًا عن البيت بدرجة كافية، خبطتُ الحائط بقبضة غاضبة، بينما داخلي مرجل يغلي. اجتزتُ الزقاق الضيق - كصدري الذي قارب على الانفجار - وأنا ألعن حظي.

كانت الأضواء الخافتة تتسلل من كوات ضيقة في المنازل صانعة بقعًا حمراء من الضوء على الحوائط المقابلة، بينما اشتدت الرياح قليلاً فتمايلت جذوع النخل المنتصبة في الأزقة وتساقط منها البلح. في الصباح الباكر، سيجتمع الصبية حولها، يدورون تحت النخل. يجمعون البلح المتساقط ويسرعون به إلى دكان "المعلم رزق" ليعطيهم الحلوى بدلاً منه.

❖❖❖

كان ابن الجارة يبيت عندي في الليلة التي يمسي فيها تعلب منشغلاً بري الأرض، يجلس في الداخل على فراش نظيف، يحتل جزءًا من حجرة النوم، وأنا واقفة بجلباب بيتي خفيف أسأله:

- أتأكل؟

- لست جائعًا.

- سأقدح لك بيضتين في الزبد؟ ما رأيك؟ سنأكل معًا.

- ....

لم يجب، لكنه هز رأسه موافقًا.

- هيا لنحضر حطبًا.

سِرتُ أمامه، أمسك بالفانوس الذي ينشر ضوءه المهتز في المَكان. دخلتُ فناء البيت، ثم أشرتُ بيدي لأغصان جافة ملقاة إلى جانب حظيرة الدواجن:

"هات بعضها وهيا ورائي".

دخل المطبخ ورائي، قابضًا على بعض الأغصان الجافة. وضعها في الموقد الطيني. تناولتُ علبة الثقاب وأشعلتُ النار التي توهجت فأضاءت المكان، وارتسم لون لهبها الأحمر على الجدار، وامتد ظلان على الحائط المواجه للموقد، أحدهما لصبي تجاوز الحادية عشرة من عمره بأيام قليلة، والآخر لامرأة منحنية على الموقد تقدح البيض في الزبد. اتخذ الصبي خطوتين للوراء، بينما انهمكتُ في مراقبة قطعة الزبد التي بدأت في الذوبان بفعل النار.

***

اعتادت فاكهة أن تطلب من والدتي أن أبيت معها في الليلة التي يمسي فيها زوجها تعلب منشغلاً بري أرضه، متعللة بأنها تخاف الظلمة ونباح الكلاب. كنتُ قد كبرتُ بما يكفي لتمييز الأمور..

كانت ترتدي جلبابًا فضفاضًا يزخر بورود حمراء وأوراق خضراء. انحنت لتلقم النار مزيدًا من الحطب، نظرتُ إلى جلبابها.. تأملته مليًّا.. فذكرني بالحقول الواسعة التي طالما أحببتها ومشيت بين خضرتها طويلاً دون أن أملّ المشي.

حين اعتَدَلَت، كنتُ لا أزال متسمرًا مكاني، وكأن قدمي قد التصقتا بالصمغ.. مرت إلى جانبي، شممتُ رائحة البيض المقدوح في الزبد قوية.. أخذتُ نفسًا عميقًا وكأني أريد أن أستأثر بتلك الرائحة لنفسي.. أن أحتفظ بها داخلي للأبد.. مرت إلى جانبي وخطت بدلال.. زفرتُ زفرة عميقة. جلسنا متظللين ضوء الفانوس الخافت. هي لاحظت نظراتي التي أختلسها.. صمتت ولم تُعقب.

عندما وضَعَت الطعامَ بين يديَّ، أكلتُ كمن لم يأكل منذ عام. التهمتُ طبق البيض عن آخره. كانت تنظر إليَّ وتبتسم، أما أنا فلم ألحظ أنها لم تأكل. لم أدرك ذلك إلا بعد أن مسحتُ الطبق كاملاً، انتبهتُ بعدها إلى أن يدها لم تمتد إلى الطعام:

قالت وهي تنظر بثبات في عيني: أكلت؟

قلتُ: الحمد لله.

قالت هامسة: لقد غلبني النعاس.

ثم قامت تحمل بقايا الخبز والطبق الفارغ، وتركتني في ظلام الحجرة الدامس أتخيل أمورًا لا أجرؤ يومًا على

الإفصـاح عنهـا. جاءت وفـى يدهـا كـوب من المـاء. علقت الفانـوس في مسمار بـالحائط، وقـدمت لـي الماء فشربت، ثم انطرحتُ على الفـراش. أما هـي فقد أطفـأت الفانوس، فعم الظلام.

❖ ❖ ❖

كـان الصـبي قـد سبقـني إلـى حجـرة النـوم. تحسستُ الفـراش حتى وجدت مكاني خـاليًا إلـى جانبه. هـو أعطاني ظهـره. مضت سـاعـات قبل أن تهـدأ أنفـاسه ويغلبه النـوم. كانت أحـاسيسه الغـامضة كلـها وحركـاته المرتبكة تصل إليَّ عبر ظهره الذي ألصقه بظهري. عنـدئذ ابتسمتُ ابتسامة عريضة، لم يرهـا أحد في ظلمة هذا الكون.

وصل صبحي إلـى البـاب. وجده مفتوحًـا بالكاد. لمح ضوء الفانـوس الخافت ينفلت من البـاب صانعًـا مستطيلاً ضيقًا من الضـوء. قبل أن تسبقه قدمه إلـى الـداخل، كـان صـوت الصبـي – الذي يبيت معي أحيانًـا ليلة أن يغيب زوجي لـري أرضه في الحقل – يختـرق أذنيـه. تراجع بهـدوء، بينمـا كنتُ أتابع صوت خطواته تبتعد.

3

بيوت ورمال

كان بصيص الضوء يمزق بيديه الناعمتين غلالة الظلام المرابضة في الأفق، فتتزلق تحت قدمي الواحة الناعسة، المتشوقة إلى الحياة. ينسحب الظلام بخفة ريشة، تاركًا مكانه لنور الفجر الذي يغافل الأشياء. يتسرب عبر كُوَّات المنازل الضيقة. يرسم خطوطًا ودوائر على الحوائط الطينية...

أُطْفِئَتْ الفوانيس. فُتِحَتْ أبواب الحجرات والبيوت. تحركِ الهواء النائم في الصدور طوال الليل، فاهتزت له أفرع الأشجار وجريد النخل. هدل الحمام فوق أسطح المنازل، وعلا صياح الديكة ونهيق الحمير، مختلطين بدبيب الأقدام ورنّات خلاخيل النساء التي ابتدأت مشوارها اليومي ما بين مواقد الطعام ومواعينه النحاسية في المطابخ، وأواني الماء الفخارية. يهرولن هنا وهناك لإعداد طعام الإفطار – تلك الوجبة التي اعتادها الجميع – الأرز المسلوق في المياه، يُقدَّم في طنجرة نحاسية كبيرة بعد أن

يُغطّى بملعقتين كبيرتين من الزبد. يلتف الجميع حولها، بينما ينضج الشاي على خشب الموقد في سخان نحاسي كبير، اسودّ لونه من دخان الموقد.

إنها معزوفة مكرورة ليوم جديد في حياة تلك الواحة التي نسيها الزمن - بعد أن كانت في سالف العصور ملء السمع والبصر - فتناسته وصنعت لنفسها إيقاعًا يناسبها. هناك في أقصى الصحراء تقبع الواحة الصغيرة في حضن المنخفض الذي يحيطها بحافته المرتفعة كأنه يخفيها عن الأعين. تقع حقولها وبساتينها على أطرافها الشمالية والغربية. أراض خضراء وغابات من النخل وأشجار الفاكهة، ثم تمتد الصحراء الواسعة بساطًا ملتهبًا من الناحيتين الأخريين، بكثبانها الرملية الضخمة، وأحجارها السوداء مثل حيوانات بائدة، تتناثر خلالها بعض الأشجار والحشائش.

بعد أن صلينا الصبح مع الشيخ "منطوق"، سيطر عليَّ قلق غريب فلم أنم. ظللتُ مطروحًا في الفراش، تأخذني الأفكار وتجيء بي حتى تسللت أشعة الشمس من خصاص النافذة الشرقية وبعثت الحياة في الغُرفة. عندئذ أرسل الشيخ في طلبي؛ جاءتني ابنته "مليحة" تطرق الباب: "ياعم بركات، أبي يريدك الآن". ازداد قلقي؛ فقد كنتُ أصلي إلى جواره منذ سويعات، ما الذي استجد في ذلك الوقت القصير؟!

عندما وافيتُه في ذلك الصباح، كان يقف متأملاً بيته الذي أمضى فيه حياته بملابساتها كلها. يبدو أنه يفكر فيما ظللتُ أفكر أنا فيه حتى دخلت عليَّ الشمس مخدعي. كانت اللحظات الحلوة تتراقص في مخيلتي مثل نبع صاف تحطُّ على حوافه الطيور لتشرب. حتى اللحظات والمواقف الصعبة التي مررنا بها وتخطيناها مرّات، ووقفت في طريقنا مرّات أخرى كنتُ أراها من نافذة الماضي أوقات لا تُنسى..

البيت له واجهة جميلة مزينة بحجر أبيض جلبه الشيخ خصّيصا من عمق الصحراء، تعلوه مستطيلات متداخلة من طوب اللبن، لها فتحات تأخذ أشكالاً هندسية مختلفة، وقد غرست أعلاها بعض الرايات البيضاء مكتوب عليها: لا إله إلا الله، الله أكبر، محمد رسول الله. كانت زوجته قد أعدتها قبل وصوله من زيارة الأماكن المقدسة.

تسلقت نظراته ببطء جدران المنزل اللبني ذا الطابقين، ببوابته الضخمة التي أحال الزمن لونها الأبيض إلى لون رمادي متسخ.. أتذكر يوم أن جاء "علام" النجار بناءً على طلبه، حتى يصنع له بوابة من خشب شجر "السنط" الذي تم قَطعَهُ (بمعاونة رجال الواحة) من المناطق المحيطة، وتم تقليمه من الأغصان والأفرع، ووُضِع في مجرى الماء لمدة أسبوع؛ حتى لا ينخر فيه السوس فيما بعد... جاء النجار بأدواته، وابنه الصغير خلفه. مكث أسبوعًا كاملاً عند

الشيخ حتى أتم صنع تلك البوابة، ثم حفر في أعلاها، بخط عربي جميل: "اللّه أكبر، محمد رسول اللّه" على قطعة ناعمة من خشب شجر الدوم، وكتب إلى جانب تلك العبارة اسمه وتاريخ صنعها.

ذبح الشيخُ يوم رُكِّبَت البوابة البيضاء، كبشا أملح، ودعا رجال الواحة لتناول الطعام. يومها عرض على النجار نقودًا مقابل تعبه لكنه أبى، فما كان من الشيخ إلا أن أهداه كمية كبيرة من التمر الجيد، وقال له: خُذ هذا لأولادك. كان ابنه الصغير "بدر" واقفًا آنذاك يتفرج. نظر له الشيخ مبتسمًا. وضع يده في جيبه وأخرج قطعة معدنية بخمسة قروش، وأعطاها له..

كأن البيت ينظر إليه ساهمًا، طاويًا أيامه القديمة تحت إبطيه، لا يكاد يقوى على الوقوف في وجه الكثبان الرملية التي تزحف بغلظة تجاهه.

استدار ناحية الجُزُر الرملية التي تقترب في كل عام من الواحة، واشتعل رأسه بالأفكار والمخاوف. اتكأ الشيخ على يده اليمنى. جلس على المصطبة. استند بظهره إلى الحائط ونظرات عينيه هناك تمشط مساحات صفراء من الرمال تحاول صدها، ومهاجمتها، وطردها بعيدًا عن واحته، وعن بيته الذي لا يتخيل حياته بدونه.

جلسنا أمام البيت على المصطبة التي ما زالت تحمل بين ضلوعها برودة الليل وطراوة ظل الصباح بينما راحت

أفكاري تنزُّ من رأسي وتسيل على بقية الجسد في خطوط سوداء رفيعة. نظرتُ إلى الشيخ، كان شاردًا، تعمل سبابته وإبهامه على تمشيط شاربه الكثِّ بآلية وبلا وعي.

هكذا حياتك يا منطوق. بدأت صافية زاهية ثم عكرتها الأيام وصروف الزمن. تلك الألسنة الرملية الطويلة ستدفن بيوتنا ذات يوم، كما فعلت مع آبائنا من قبل، ألا من باب للخروج؟!

ما بك يا منطوق؟ طوال حياتك وأنت تفكر من أجل الخلق. لكن الرمال تزحف الآن بإصرار نحو بيتك، وحتمًا ستلتهمه، ثم تكمل طريقها بلا مبالاة لتبتلع بقية منازل الواحة، ونحن هنا نتفرج. عجبًا، ألم ينتبه أحد إلى هذا الوحش الذي يحاول أن يعاود الكرة؟! هل تستطيع أن تفكر في نفسك، وتضع حلولاً لمشاكلك بصفاء ذهن؟ استند الآن إلى أوجاعك فلن تخذلك.

❖ ❖ ❖

عندما وافاني بركات أمام البيت، كنت أستندُ إلى الجدار بيدي اليمنى، ثم أربِّتُ عليه. نظر بركات إليَّ ولم يتفوه بحرف، كان مشردًا بين أفكاره مثلي - أشعر أن يدي تغوص في لحم الحائط - حتى حسبته ينبض ويئن أنينًا موجعًا. لا أعرف ما إذا كانت تلك نبضات قلبي، أم قلب بيتي!!

كل شبر في هذا البيت يشهد على لحظات نبتت عبر أدغال حياتي، وكبرت ملقية ظلالاً متباينة على درب عمري

الوعر الذي بدأ يضيق ويقسو كلما اقتربت نقطة النهاية.. إيه يا خيط الذكريات الطويل... كنتُ أراها كما أرى فتيات الواحة، بملابسهن الفضفاضة المزدانة بورود كبيرة ذات ألوان حادة، لكني لا أنسى تلك المرَّة التي انتفضت فيها جوارحي وهَبَّت من مكامنها، حين استقبلتني بنظرة دافئة تحمل معنى يقول: أقبل... لا تتردد. هآنذا أنتظرك. ووجهت تلك النظرة مشاعري تجاهها دفعة واحدة، فدخلتُ بيتهم في اليوم التالي طالبًا يدها.

❖❖❖

كنتُ منهمكة في أعمال البيت عندما مط أبي رأسهُ نحو الداخل وزعق :

- يا بنت يا مليحة.

أجبته من عمق البيت: نعم يا أبتي.

- اذهبي إلى عمك بركات الآن، أخبريه بأنني أريده.

- حاضر. لكن إذا كان قد بكرَّ إلى الحقل، فما العمل؟

كنتُ أقفُ في الداخل، أميل برأسي قليلاً إلى الخارج؛ مُنصتة جيدًا لما سيقول.

- لا شيء يا ذكية. عودي لتخبريني بذلك.

قفزت قطتنا البيضاء متخطية عتبة البيت، بالتأكيد التصقت بأبي وراحت تموء وتحك جسدها بذراعه. زعق أبي هذه المرة:

- يا بنت يا مليحة.

- حاضر، حاضر.

خرجتُ مسرعة. كانت القطة بالفعل تفعل ما تعودَت عليه. أسدلتُ كميَّ الثوب على ذراعيَّ المبللتين بالماء: عذرًا يا أبي، لقد انتهيت توًّا من أعمال البيت.

- هل خرج الولد سليمان مبكرًا إلى الحقل؟

- نعم.

- هل أخذ معه طعامًا؟

- لا، قال إنه سيعود في الظهيرة.

وصلتُ سريعًا إلى بيت العم بركات، في الزقاق ذاته، بعد بيتين تمامًا. أمسكتُ بالسلسلة، المثبتة من إحدى طرفيها على خشب الباب، أدقها:

- يا عم بركات.

"من؟"، جاء الصوت من الداخل واضحًا قويًا.

- أبي يريدك في المنزل الآن.

كنت لا أزال واقفة أمام الباب حين تعرَّف الرجل على صوتي:

قال: ادخلي يا بنت.

دخلتُ قاصدةً مكان جلسته. ليست هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها بيت العم بركات، فقد أرسلتني أمي مرات

عدة مُحمَّلة ببعض الهدايا، كالخبز والخضروات والبلح والدقيق، إلى زوجته، أم حمودة. كان الرجل الذي تخطى الخامسة والأربعين جالسًا على حصير يدوي كبير يشغل نصف قاعة البيت، وأمامه الشيشة، يسحب منها أنفاسًا طويلة ويخرج الدخان من فمه وأنفه يتلوى في الهواء. نظر إليَّ مليًّا، ثم قال:

- كيف حالك يا مليحة؟

قلتُ باقتضاب: بخير.

أعرف أنه كثير الكلام والمزاح، ولن يكف عن مناوشتي إذا لم أسُدَّ عليه الطريق:

- أبي يريدك الآن.

- خيرًا؟

- لا أدري.

- حسنًا، ضعي الشيشة في الداخل.

- أين خالتي، أم حمودة؟

حين سألتُه كنتُ لا أزال منحنية أمامه، ويداي تقبضان على زجاج الشيشة. رأيتُ إلى أين تتجه نظراته، فاعتدلتُ بسرعة. فأجاب بالسرعة ذاتها: خالتك خرجت إلى العين لجلب الماء.

❖ ❖ ❖

استدارت وهي تتأففُ من رائحة الدخان، وخطت بضع خطوات سريعة للداخل. تأملتُها من الخلف بينما كانت تقبض على الشيشة بقوة خشية أن تنفلت منها. كانت مؤخرتها التي ابتدأت تنضج، تهتز اهتزازات خفيفة مع حركة قدميها المتعجلة.

حين عادت، كنتُ ما أزال في قعدتي لم أتحرك، عندما سألتني باستنكار:

- أما زلت مكانك؟

- سأقوم في الحال.

مددتُ لها يدي لتساعدني على القيام. أعطتني أصابعها بلا مبالاة، فجذبتها إليَّ، وأنا أهم بالقيام. كادت أن تقع عليَّ لولا أن تمالكت نفسها في اللحظة الأخيرة...كنتُ لا أزال متشبثًا بأصابعها حين قالت في حدة ظلت عالقة بملامحها لحظات:

- ابتعد عني.

- حسنًا.. حسنًا، ولكنك لم تخبريني؟

- بم؟

- متى ازددتِ جمالاً هكذا؟

احمر وجهها خجلاً وخرجت من الدار تجري.

❖❖❖

العم بركات يفعل هذا أحيانًا، حتى أمام زوجته؛ يداعب الفتيات، يلقي بكلمة هنا وكلمة هناك وهو يتضاحك. لا يخجل منهن، وهن يعرفنه جيدًا، كثير الكلام ولكن قلبه أبيض مثل اللبن – لكن زوجته غالبًا ما تعنفه:

– يا رجل ألا تخجل!! إنهن في مثل عمر ابنك حمودة.

"مزاح يا ستي، قلنا ألف مرة هذا مزاح لا أكثر"، يقول وهو يكتم ضحكة تنم عن لا مبالاة.

إحساسٌ ما لم يكن موجودًا من قبل، ولم أجرّبه قَطُّ، يقبض عليَّ من الداخل، فأشعرُ كأن جسدي كله يؤلمني ألمًا ممزوجًا بغضب خفيف يسري في عروقي... خرج العم بركات من البيت، وهو يحك ذقنه الخشنة.

حين وصلتُ إلى البيت، كان أبي لا يزال في جلسته على المصطبة يمسح الأفق المترامي أمامه بنظرة مشتتة، عندما أحس بوجودي سألني:

"ما بكِ يا بنت؟"

صمَتٌّ لبرهة، كأني اكتشفتُ للتو أنفاسي المتقطعة، وصدري يعلو ويهبط. بعد أن هدأت أنفاسي قليلاً قلتُ: لا شيء، فقط كلب عم صبحي. إنه خارج داره. وأنا خفت عندما سمعته ينبح.

أمام داره، كان الشيخ جالسًا القرفصاء على المصطبة، ومذَبَّته التي لا يتركها من يده لا تفتأ تتحرك أمام وجهه

مثل بندول الساعة. عندما ألقيتُ عليه التحية، التفت إليَّ، أشار إلى وسادة القش التي بجواره ثم قال:

- تفضل هنا، ماذا كنت تفعل في الدار؟

- لا شيء. الولد حمودة جرَّ البهائم، وذهب إلى الحقل مبكرًا. وأنا كما ترى.

نظرتُ مليًّا إلى الشيخ، وجدتُه صامتًا شاردًا، لم يعقب على كلامي كعادته، فسألته: ما بك يا شيخ؟ قال: قم بنا يا بركات. أخذني من يدي واتجه ناحية الفضاء الواسع أمام الدار.

كنا نسير بأقدام حافية على الرمال الممتدة التي ما زالت تحمل برودة الليل. سرنا مئات الأمتار بدون أن ينبس الشيخ بحرف واحد، حتى أصبحنا في وسط الكثبان الرملية وقد أحاطت بنا.

أشار الشيخ بيده إلى جزيرة رملية واسعة تظهر في البعيد، بينما تعلوها رؤوس نخل جافة:

- انظر يا بركات، لقد دُفنت أحلام صبانا هنا.

- آه ، نعم. إني أذكر البيوت القديمة.

- لم تكن قديمة يا بركات، ولكن الرمال التي اعتصرتها بلا رحمة أخرجت آباءنا منها. أترى رؤوس النخيل التي تحاول أن تتنفس... هناك في أعلى التلال؟

- نعم يا شيخ، لكنها جافة الآن!!

- كان تمرها من أجود التمور. الآن وأدتها الرمال. هل تذكر؟

- أذكر جيداً.

- الآن، تزحف الرمال في اتجاه بيوتنا ومزروعاتنا. هل لاحظت أنها تقترب منا في كل عام عن سابقه؟

- نعم، وما الحل يا شيخ؟

"لا أدري. أعتقد أنه لا وجود للحلول"، قال الشيخ وهو يستدير عائداً، وأنا خلفه، ثم تابع حديثه:

- أعتقد أنه لو كان ثمة حل لوجده الآباء قبلنا، لكن لا بأس من الاجتماع بأهل الواحة. وماخاب من استشار.

- لكن، هل ترى أن مكان بيوتنا هذه هو المكان المناسب بالنسبة إلى حركة الرمال واتجاهها؟

- تقصد أنه كان يجب أن يتم اختيار مكان البناء بعيداً عن حركة الرمال، حتى لا تتكرر المأساة ذاتها؟ نعم معك حق.

- هذا صحيح، لكن من يستطيع الآن أن يعيد كل هذا البناء من جديد. لقد كافح الآباء وجاهدوا من أجل أن نعيش. هل نستطيع أن نؤدي الدور ذاته؟ إن هذا الجيل لا يعوَّل عليه.

- يبدو أنه لا يوجد حل آخر سوى السرعة في تدبر

الأمور. برغم أن الرمال تحيط بواحتنا، تحتويها في شكل قوس كبير، يضيق الخناق علينا كلما اقترب.

ثم نظر إلى السماء في تضرع بادٍ قائلاً: إن لم يأت الفرج من عنده فلا مخرج.

جلسنا على المصطبة أمام الدار، بينما زعق الشيخ نحو الداخل:

- إليَّ بالشيشة يا بنت.

أتاه صوت مليحة من الداخل: حاضر.

أشرقت من باب الدار مثل شمس الضحى فتاة وارفة ملفوفة مثل غصن زيتون. كان الكحل يعصف برموشها الطويلة فيزيد وجهها بهاءً. فتاة مثل حقل برسيم تعلقت بأعواده قطرات الندى في صباح عليل نسيمه. انحنت الفتاة لتضع الشيشة أمام أبيها، فرمقتُها بنظرة فيها ما فيها، فزمت شفتيها وقطبت جبينها. كتمتُ ضحكتي وأشرتُ إليها مُحذرًا: الفحم، بسرعة!

قالت ممتعضة وهي تهرول إلى الداخل: قلنا حاضر.

ضحكتُ ملء شدقيَّ، وابتسم الشيخ.

جاءت مليحة تحمل بين يديها "شقفة" من الفخار، تحوى فحمًا متوهجًا:

قلتُ ممازحًا: ها قد أصبحتِ عروسًا، سأزوجك بحمّودة.

انسلت إلى الداخل دون أن تنبس بحرف؛ تخشى بأس والدها بالتأكيد.

❖ ❖ ❖

كان الصباح في الناحية القبلية من الواحة يحمل في طيات ملابسه انكسارًا ما. كنت أعالج بعض الأخشاب بقدّومي لصنع "طبلية" جديدة للسيدة "وجيدة" عندما ارتفع صوت زوجتي من داخل البيت: "الحق يا "علاّم"، تعلب وفاكهة يتشاجران". عندما وصلت إلى مكان الحادثة كان تعلب قد انتهى لتوه من الشجار مع زوجته، كعادتهما في كل صباح ومساء جديدين، عندما يسمع الجيران صوته الحاد يملأ هدأة الليل حينًا، أو ينشر ضجيجهُ في سكون الصباح حينًا آخر، يعرفون أن صوت زوجته الآسر سوف يصعد الآن متسلقًا النخل والأشجار، ومفترشا أفنية المنازل الواسعة، ليصل إلى جميع الآذان، سواء رغبت في السماع أمْ عزفت عنه. تعلب يسبُّ أسلاف جميع النساء وهو خارج، ويلعن اليوم الذي رآها فيه.

منذ أول ليلة من زواجه وهو يحمل حنقًا عظيمًا على زوجته. يشعر أن شعلة قلبه التي حملت حبًّا كبيرًا تجاهها، تخبو شيئًا فشيئًا، وأن كبرياءه ينسحق داخلهُ، حتى ليعتقد أنه صار قزمًا وسط الرجال...

كان شتاءً عندما جاء المأذون، يركب حماره البنيّ، وفراء أسود وثير يزيِّن البَرذَعة. ألقى التحية على الرجال، الذين

تجمعوا عند شجرة الكافور الضخمة لانتظاره. ترجَّل المأذون عن دابته، بينما أسرعتُ أحملُ عنه حقيبته الجلدية المنطفئة اللون، فهمس بصوته الخفيض: "نتعب لك في الأفراح يا أجدع نجّار في الواحات". انتظرته حتى عدّل من هندامه وضبط العمامة على رأسه، ثم سرت أمامه؛ أقوده إلى داخل البيت.

بيت تعلب يضج بحركة تكاد أن ترفعه من مكانه. الدار الصغيرة كُنست ورُشت أمامها المياه، كما فُرشت "المندرة" البحرية بالسجاجيد اليدوية المخططة بخطوط داكنة مستقيمة، تمامًا مثل رتابة الحياة التي تضرب بجذورها الهادئة في أعماق الناس. يُسمع الآن صوت تصادم أطباق ورنين ملاعق، وارتطام أوانٍ معدنية ممتزجًا بصراخ أطفال، ضحكات عجائز، هرولة هنا وهناك، أبواب تُغلَق وأبواب تُفتَح. فأيام الفرح في الواحة في فراشها دائمًا، وتحتاج إلى من يوقظها.

❖❖❖

كنا قد انتهينا من صلاة المغرب، فاتجه الرجال رأسًا إلى بيت تعلب، وأنا قصدتُ بيت الشيخ لاصطحب صديقي "سليمان" معي، على أمل أن أطرق بوابة الدار فتخرج لي "مليحة"... ثمة نسمة هواء ناعمة تحمل رائحة أشجار الكافور، وتبعثرها في الأنحاء، وخرجت من النوافذ المتناثرة أضواء الفوانيس، لتطارد الظلمة الخفيفة التي بدأت تجوب

الأزقة والشوارع الضيقة. الأطفال أمام بيت تعلب يسدّون الأفق بصراخهم وضحكاتهم العفوية. كان تعلب قد علق أمام بيته (للمرة الأولى) فانوسًا كبيرًا يضيء جزءًا كبيرًا من الزقاق الذي رشته النسوة بالماء قبل المغرب بقليل.

دخل الشيخ منطوق ورفاقه "المندرة" البحريّة، وأنا ورفاقي من ورائهم، نتمتم بالتسمية والصلاة على النبي، والدعاء لأهل المنزل. لم يمهل العم بركات أحدًا ليستقر في جلسته وزعق:

- إلينا بالأكل، لقد متنا جوعًا".

ضغط الشيخ منطوق على كتفه قائلاً: يا أخي اصبر، ليس في رأسك إلا الطعام؟!

كانت النساء في الناحية الأخرى، يطلقن الزغاريد في فضاء البيت ويتضاحكن، بينما يجهزن طعام العشاء. يغرفن الأرز واللحم في أطباق كبيرة، يقطعن العيش الشمسي، ويضعنه، مع ما تم طبخه، على صوان نحاسية كبيرة، ستدخل بعد لحظات قليلة للأفواه المنتظرة. تهرول النساء هنا وهناك، ولجلجلة خلاخيلهن، والتي تصل إلى آذان الرجال، وقع الرعشة والانفلات إلى آفاق الذكرى حيث تظهر السماء الداكنة المرصَّعة بالنجوم من فتحات الشبابيك وتشرق داخل كل رجل منهم نية مبيَّتة لمعاشرة زوجته هذه الليلة، كما لم يحدث من قبل...

وحدنا ﴿ حجرة زفافنا: فتاة مرحة. لم أشعر بغربة وأنا أجلس جوارها على فراش سميك من القماش المحشو بقَشّ الأُرْز. اقتربت مني، شعرتُ بدفء جسدها الطري. مددتُ يدي بتردد وضممتُها قليلاً إليَّ، فهم جسدها سريعًا لغة يديَّ وأبدى الموافقة. لكن ما حدث لي لم يكن ﴿ الحُسبان!! ما بال تلك التقلصات اللعينة التي تجتاح أمعائي، تلك البرودة التي تنهش أطرافي ويسري سمها ﴿ بقية جسدي. أنا مريض، لا، لستُ مريضًا، لكن الحاقدين دبروا لي مكيدة. نعم، قاموا بربطي حتى لا أقدر على معًاشرة زوجتي الجميلة التي يحسدونني عليها. لقد ذهب أحدهم إلى ذلك الوغد الذي يمارس أعمال السحر ﴿ واحة "عَنجَريشِ" ودبروا لي أمرًا.

أنا مريض أيضًا، وإلا، فلمَ قطرات العرق الباردة تلك التي تسيل على ظهري؟ يبدو أن الأعشاب التي تحفِّز على المعاشرة والتي أعدَّها لي "علي المجبراتي" (كان قد أرسلها إليَّ ﴿ الخفاء قبل زفافي بساعتين) لم تعط نتيجة.. يعرف المجبراتي بعض أسرار النباتات الطبية، ولا أدري كيف لم ينجح معه الأمر هذه المرّة!

❖ ❖ ❖

ابتعد عني قليلاً فاعتدلتُ بحدة. رميته بنظرة قاسية مزقت جدران ضلوعه، فانسلَّ من جواري حاملاً خزيه على كتفيه. قال تعلب بصوت خفيض كأنما يحدث نفسه:

"أشعر بأن ثمة من يتلصص علينا"، وأشار إلى النخلة العالية في فناء المنزل. أما أنا فقد اعترتني نوبة من بكاء مكتوم.

❖❖❖

كنتُ مختنقًا، حانقًا وأنا في طريقي إلى الحظيرة. ولا أدري لماذا تلطمني الظروف على وجهي وتكتم أنفاسي هكذا.

سبحان الله يا تعلب. إن زوجتك من أجمل نساء الواحة، عيناها قادران على قتل أشد الرجال. بضة ونفاذة مثل عود نعناع أخضر. عندما ترن بخلخالها وهي خارجة لملء الجرار من البئر تستسلم النخلات الثلاث المنتصبة أمام بيتك للريح تطوحها كيفما تشاء، ويكف كلب "صبحي" جارك عن النباح، يرخي ذيله ويلتصق بالجدار.

دفعتُ باب الحظيرة فانفتح من لمسة واحدة، كأن يدًا خفية سحبته من الداخل قبل أن تصل إليه يدي. وجدتُ الثور – على غير عادته – راقدًا، ماطًّا رقبته إلى الأمام وساقه اليمنى ممدَّدة أمامه. نظرتُ إليه مليًّا وأنا أطوّح يدي في الهواء مرات:

– حا... حا.

لكن الثور لم يتحرك. شعرتُ أن خطبًا جليلاً قد حدث. هذا الثور الذي أختال به أمام أهل الواحة، هو كل ثروتي الآن، بعد أن بعتُ بقرته لأبي حماد – يرحمه الله – منذ عامين.

هـذا الثور الـذي يرقـد عاجـزًا، كثيـرًا ما احتاج إليه أهل الواحة كي يطـأ أبقارهـم حينـما تـطلب ذلك. وكلـما اعتلى بقرة، شعرتُ بالفخر، وأحسستُ بأن شيئًا ما يكتمل داخلي، يشفي غليلي. يأتي الـواحد منـهم أمام حظيـرتي، ينـادي: يا تعلب، إن بقرتي تطلب الثور، يقولها الرجل بخجل بينما أرد بـزهـو: لا بـأس يـا رجل، هـاتهـا إلـى الـداخل. تقف البقـرة مستسلمة أمـام الثـور الضـخم الـذي يهـز رأسه ويدب في الأرض بقدميه، ويزفر في الهواء:

"مـرحـى يـا تعلـب انظـر إلـى ثـورك. إنـه الملك المتـوَّج الآن والمتصرف في الأمور".

حينها أفك القيد، تاركًا الثور يشبع غريزته...

تعشّر جميع الأبقار وتتوالد، وأنت كمن لم يذق قطرة ماء منـذ سنـين. تحلمُ بـأن تُنجب ولـدًا يـحمل اسـمك، ويكـون شـاهـدًا علـى رجـولتك أمـام الجـميع. تتمنـى أن تقـطع تلك الألسنـة التي تشعر بأنها تلوك سيرتك، وتجترها لتلوكها من جديد.

❖ ❖ ❖

قـال نسـوة في هـذه الـواحـة الخـربـة أن ابـنتي "ثـريًّا" هـي التي نشـرت الفتنـة في الواحة. يقلن إنـها كذبت وافترت على "فاكهة" وعلـى زوجها المسكين "تعلـب". ابنتـي!! هـذه القـطة مـغمضة العينـين، لا يمكن أن تنقل أخبارًا فـاضحة كهذه، ثم

إنها لا تفهم من الأساس ما الزواج، وما المضاجعة، ناهيكم عن الخيانة. وقحات أولئك النسوة اللواتي لا يشغلهن شيء في الدنيا سوى الأكل والتبرز، وتمزيق شرف الشريفات. أعرف أنهن يحقدن على ابنتي؛ أميرة الواحة المتوجة، وجميلة الجميلات. أعرفُ، يحقدن عليَّ؛ أنا "منذورة" زوجة من يطعمهن ويهرع لخدمتهن. سبحان الله، خيرًا تفعل، شرًّا تجد، فلولا سيارة زوجي "رزق"، حفظه الله، لمات أهل هذه "المخروبة" من الجوع؛ إنه يهدر الساعات الطوال ويعاني وعورة الطريق ليجلب لهم المواد التموينية والبضائع وهم نائمون في بيوتهم. كم مرة تعطلت منه السيارة في الصحراء فنام في العراء بلا غطاء ولا مأوى؟ كم مرة طلع عليه قطاع الطرق فنهبوا أجولة السكر والزيت وتركوه فردًا كجذع نخلة خاوٍ، ولولا ستر الله لذبحوه وأخذوا السيارة. أعرف أن أولئكِ النساء أول من تشمَّمن الأخبار وتناقلنها، فالتقطت أنوفهن خيوطًا متناثرة من أخبار تعلب وزوجته التي أتى بها من خارج الواحة. الغازية التي يتفرس الجميع في لحمها وهي ترقص دون حياء وسط حلبة العُرس، حتمًا تخون زوجها...

تناثرت الحكايات عن محاولات فاكهة المستميتة للإنجاب؛ ذهابها إلى العين مع "زهرة"، زوجة جارهم صبحي" ذلك الرجل الذي عليه العين، وزيارتها السرية للشيخ منطوق كي يجد لها حلاً. زهرة، البلهاء التي لا تفهم،

هي من تعاطفت معها، وزارتها في بيتها مرات عدة، وأهدتها قمحًا وزيتونًا وتمرًا. ترتاح "فاكهة"، زوجة تعلب، للحديث مع زهرة، أنا أخبركم بهذه الأمور ليس من باب الفتنة ولا نقل الكلام، ولكن كي تعرفوا أن "القط لا يحب إلا خنَّاقه". فبرغم كل ما يدور من أحاديث فإن فاكهة، تلك الوقحة، لا تفضل من النساء إلا زهرة، تترك نبع الحديث يجري كيف يشاء دون خوف أو حياء. لقد وصل إلى سمعها كل ما قالته نساء الواحة، عن تمايلها في مشيتها، واهتمامها الواضح بزينتها وملابسها، لكن جارتها الطيبة زهرة تقول إنها غيرة نساء لا أكثر!

أنجبت زهرة فتاة واحدة هي سبيل، ثم انقطع خلفها بعد ذلك. تذرعت بالصبر، ثم سلمت أمرها إلى الله، ومرت السنون دون جدوى.

❖ ❖ ❖

اليوم جاءتني جارتي الطيبة أم سبيل وأوصتني أن أستشير الشيخ منطوق في أمري مع تعلب:

- اذهبي إلى الشيخ فربما وجدتِ عنده الدواء.

- لن نستطيع الإنجاب، أعرف.

- لا بأس من المحاولة، ثم دعينا نحاول من ناحية أخرى.

- كيف؟

- ثمة طريقة واحدة جربتها نساء كثيرات وأفلحت. غدًا بعد العصر، نذهب معًا إلى العين.

- لماذا؟

- ستعرفين وقتها.

قضيتُ ليلتي أفكر فيما عسى أن تُجدي مياه العين. لكنني في النهاية قلت: لا بأس من المحاولة برغم معرفتي التامة بأساس العلة: زوجي.

في عصر اليوم التالي، ذهبتُ إلى زهرة. ظللت في ضيافتها حتى قبيل الغروب، عندئذ انطلقتا إلى العين بينما أقدم رجلاً وأؤخر أخرى. وعند مغطس العين[1]، أمرتني بأن أخلع ملابسي وأنزل المغطس، بعد أن أسمي باسم الله سبع مرات. امتثلتُ للأمر وأنا موقنة أن كل ما سأفعله لن يجدي شيئًا.

عند مغطس العين، أمرتُ فاكهة أن تخلع جلبابها.. سطع جسدها من تحت القميص الأحمر الشفاف أبيض كاللبن. كان القمر قد ارتفع في السماء كاشفًا عن سحره الأسطوري ما حدا بالكون أن يقف لحظة مأخوذًا بعظمة المبدع وروعة المخلوق، والجسد يمنح الماء ناره فيفور ملتاعًا على جانبي المغطس، بينما تتمايل جذوع النخل طربًا.. ضربتُ على صدري شاهقة: "لك الله يا تعلب. أين تذهب، وماذا تفعل يا مسكين؟!".

كان القمريُّ يغرّد على هامات النخيل، ورذاذ الماء يتطاير على وجه فاكهة، فتمرر أصابعها النحيلة على وجهها وتفكر في

(١) حوض مبطن بجذوع النخيل، يصل عمقه إلى متر تقريبًا، تصب فيه مياه العين. يستخدمه الأهالي للاستحمام، وملء الجرار ومواعين الماء.

شأنها وشأن زوجها الذي أعرف أن مشاعرها تتضارب نحوه.

أخرجتُ، من صُرَّة كانت معي، بعض أعواد البرسيم الأخضر، ودعكتُ به الجسد المبتلّ بالماء. وضعت بخورًا في نصف ثمرة " قَرْع" جافة، مجوّفة من الداخل وأشعلتُه فانتشر عطر الدخان حول المغطس.. ظلت فاكهة بضع دقائق في الماء تستنشق البخور، وأنا أبسمل وأحوقل وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، بينما أدعك الجسد العليل بأعواد البرسيم، وحين أيقنتُ أن المراد قد تم، أمرتها بالخروج وارتداء ملابسها فامتثلت.

كانت فاكهة في طريق العودة شريدة الفكر، زائغة البصر، كتائه في الصحراء، كلما لمح سرابًا ظنه ماءً.

❖❖❖

قالت زهرة إن تلك الطريقة أفلحت مع كثيرات. فربما أفلح الأمر معي أيضًا. لكني أنا الوحيدة التي أدرك حجم المأساة، وأعرف موضع العيب فيها. كيف آتي بالولد، وزوجي لا يقدر!!

في ذلك الصباح، أخبرتني "ثريا" ابنتي بحكاية الثور. وكانت زوجتي "منذورة" قد أخبرت البنت أن "عبد الحي"، حارس الحقول، أول من بثّ الحكاية؛ فتناقلها الناس بسرعة العاصفة.. كان النهار ما زال في أوله وتعلب مُنهك القوى، يستحم في عرقه، يشد الثور من مقوده، يستحثه على الحركة وفى كل مرة يفشل فيها، يحاول مرة أخرى،

لكن الثور لا يستجيب. خرج من الحظيرة كالمجنون يتلفت. تبحث عيناه عن إنسان ينجده. جرى حتى وصل إلى أول الزقاق، وصرخ: "الحقوني يا ناس. ضاع الثور وانتهى الأمر. الحقوني يا خلق الله". كان يصرخ ويتلفت يمنة ويسرة، حتى اجتمع عليه نفر من الرجال وفي مقدمتهم "عبد الحي"، حارس الحقول، الذي عرَّج عليَّ أولا ليطلعني على ما حدث ثم انطلق غربًا ناحية الحظائر. قال عبد الحي، عندما رأى الثور في تلك الحالة، بأن أحد قوائمه قد كُسرت ولابد من ذبحه. انهار تعلب ولم تحمله قدماه. خر راكعًا في الأرض، يولول كالنساء: "خرب بيتك يا تعلب. تأتي المصائب للناس فرادى، وتأتيك زرافات".

❖❖❖

يقوم أبي على حراسة حقول الواحة وبساتينها، ويقوم على تنظيف مجاري المياه، ويحسب مواقيت الري للناس. ندور أنا وهو في مواسم الحصاد بحمارنا الأسود؛ نجمع حزم القمح في الصيف، وحزم الأرز في الشتاء. كما يأخذ أبي نصيبه عند جمع البلح والزيتون، نظير عمله ذاك. كما أن له خبرة في أمور الذبح، يساعد الناس في ذبح أضاحيهم، وفي ولائم الأفراح.

العم بركات أول مَن أطلق على والدي: "أبو حزام"؛ لأنه يظل متمنطقًا بحزام عريض - اشتراه من مخلفات الجيش الإنجليزي - فوق جلبابه، يلفه حول خاصرته ما دام خارج

البيت.لا ينزعه إلا إذا دخل حجرته لينام. قالت أمي للنسوة إن الحزام ترك علامة بيضاء حول خاصرته، تفصل ما بين نصفه الأعلى ونصفه الأسفل. يقول أبي: "للحزام فوائد كثيرة؛ فهو يدعم الظهر ويقويه فلا ينحني على مرّ الأيام، كما أثبِّتُ فيه طرف الجلباب وقت العمل، وأعلّق فيه "المَنْجَل"، التي لا غنى لي عنها في تطهير مجاري المياه وقطع الحشائش، إضافة إلى متانة صناعته. سمعتُ أمي ذات مرة تقول إن عبد الحي لم يشتر الحزام، كما يدّعي، بل وجده مصادفة في أحد شوارع القاهرة أيام عمله هناك...

قال لي أبي في ذلك اليوم: طِر إلى البيت يا زوَّام، وأتني بالسكين الكبير.

طرتُ إلى البيت، وعدتُ في خلال دقائق قليلة، أحمل السكين الكبير. السكين ذو نصل طويل لامع، تضربه أشعة الشمس فينعكس بريقه في أحداق المجتمعين. نظر تعلب إلى السكين طويلاً. ثم نظر إلى ثوره الذي يتمدد أمامه، وجالت نظراته الزائغة في عيون الرجال المحمَّلة بالشفقة والمواساة، ثم خطا خطوات متثاقلة وجلس منفرداً. رأسه بين ركبتيه تهتز مع نشيجه المتقطع.

جاء العم "رزق" مسرعًا عندما علم بالأمر، وفى يده الميزان. قام والدي، بمعاونة الرجال بذبح الثور وسلخ جلده وتقطيع لحمه في وقت قصير. وبعد فترة كانت الواحة عن بكرة

أبيها أمام الحظيرة، رجالاً ونساءً. الأطفال الصغار يلعبون حولهم لعبة التاجر والمشترى، والمعلم رزق يضع اللحم في الميزان. يزن ويبيع في خفة ومهارة، كما اعتاد في دكانه الصغير.

جُمع العظم قبل الظهيرة في "مقْطَاف" من الخوص، وأُلقِيَ به بعيدًا. دسّ المعلم رزق في يَد تعلب صُرّة النقود التي دفعها الناس عن طيب خاطر، مقابل لحم ثوره الذي صار اليوم حدثًا يؤرخ به الأطفال ذكرياتهم الصغيرة.

قال له المعلم رزق:

ـ خذ نقودك يا تعلب. أرى أن تشتري بقرة تدر لبنًا.

4

في الظل

الوقت ظهر، والسماء ترسل شظىً من نار فتكوى أقدامنا الحافية. خرجنا من خَنْقة البيوت نسعى إلى ظل شجرة الكافور الضخمة التي تنتصب أمام بيت العمة "فوز". أفرعها ممتدة في الاتجاهات كلها، كأنها تريد أن تحتوي الواحة كلها. تصنع في الظهيرة بقعة واسعة من الظل يلجأ إليها الجميع، الرجال والأولاد، فالبيوت لا تطاق في مثل هذا الوقت من اليوم. في وقت المقيل لا تجد رجلاً في بيته إلا لضرورة. ذباب وحرّ وبكاء أطفال وثرثرة نساء.

قطعنا المسافة الصغيرة بين بيوتنا المتلاصقة والشجرة الكبيرة عَدوًا. لا تكاد أقدامنا تطأ الأرض برمالها الساخنة. صنعنا وسائد من الرمال الباردة تحتها، وتوسدناها. الرجال على مقربة منا يثرثرون بأصوات خفيضة. أحيانًا تعلو قهقهاتهم، بينما ينصتون إلى همس أحدهم في أحايين أخرى.

❖ ❖ ❖

ساعة المقيل هي الوقت الذي ينتظره الرجال بفارغ صبر؛ يفرغون فيها همومهم وتعبهم، ويدخلون أزقة الذكريات حيث نبع الحكايات الذي يفيض أبدًا.

لمحناهُ من بُعد يخب في جلبابه الواسع المتسخ، وابتسامته الواسعة التي نحبه من أجلها ترفرف على محياه. كنا مضطجعين أنا وزوَّام وسليمان، كل منا على وسادته الرملية، نستمتع بالظل الوثير الذي تسربت برودته عبر أجسادنا المتوقدة، ومنحتنا استرخاءً لذيذًا.

في ذلك الوقت من اليوم يمتد الصمت غطاءً كونيًا يلفّ الحقول والبيوت، ويهبط الهدوء بخفته على الشوارع والأزقة المتربة، فلا يُسمع إلا صراخ طفل رضيع، أو قأقأة الدواجن في الحظائر. حتى الكلاب أوت على مقربة منا تحت الشجيرات المتناثرة هنا وهناك تستمتع بساعة المقيل.

جاء حمودة يخبُّ في جلبابه الواسع، وأزاح بسرعة زوَّام من مكانه وسحبه من قدميه، فانحسر جلبابه ليكشف عن سرواله الذي ما أن رأيناه حتى ضحكنا وانقلبنا على ظهورنا، ولوحنا بأقدامنا في الهواء. ما أن ترى حمودة حتى تقفز إلى ذهنك للتو صورة فأر من فئران الصحراء: ساقان رفيعتان، وجه مدبب حاد، عينان صغيرتان وعميقتان، نظرة لامعة ثاقبة وحاجبان كثان. حمودة يشبه والده تمامًا؛ حاضر الذهن كثير المزاح، لديه القدرة على أن يزوغ في ثوان.

في ظهيرة الأمس، كنا هنا تحت الشجرة في انتظار حمودة الذي كان من عادته أن يأتي بعدنا. ربما كان يستشعر أنه فرد مؤثر في المجموعة، وواجب علينا أن ننتظره.

ما أن صنع كلٌّ منا كومة من الرمال الباردة واضطجعنا، حتى وجدنا سيلاً من الماء فوق رؤوسنا. كان اللعين فوق الشجرة في انتظارنا. حدد مكان اضطجاعنا، ثم أخرج شيئه وأشبعنا رذاذًا، وتناثرت القطرات منه على ملابسنا. زعق ساعتها أحدهم من معسكر الرجال وألقى فينا خطبة قصيرة عن أهمية التأدب في وجود من هم أكبر منّا سنًّا.

كان العم بركات مضطجعًا في الجهة المقابلة. وعندما حدث ما حدث من ابنه، لمحناه ينظر إليه نظرة مليئة بالوعيد بعد أن نزل مسرعًا كأنه قرد تربى في الأدغال. لم يتكلم العم بركات أو يعلق. يبدو أنه أجّل معالجة الأمر حتى ينفرد بابنه، ساعتها ينصت الولد إلى أبيه مطأطئ الرأس، ثم ينسى ما قاله والده بعد لحظات. هذا ما اعتدناه منهما، وبالطبع لم نتركه نحن أيضًا، فقد انتظرنا حتى حانت اللحظة وأشبعناه ركلاً.

هدأ زوَّام، ورانت لحظة من الصمت، تناهت إلى أسماعنا بعدها كلمات متناثرة من معسكر الرجال، ويبدو أن الحديث كان ساخنًا:

- انظر. آثار كعبيها مازالت واضحة على مؤخرته.

- ها... ها... ها.

- هل تعتقد أني مثلك أنام إلى جوارها كالخروف؟
- هـوووه... كـذاب!

كنا نصيخ السمع إلى كلامهم الذي يحمل تلميحات جنسية لا تخفي حتى على الأطفال، فما بالك بنا نحن الذين بلغنا مبالغ الرجال، وابتدأت لحانا وشواربنا تلفت النظر، وتدعو إلى استهجان تصرفاتنا التي يعدها الكبار من أفعال الصبا. نعم، نحن نشعر بأنها صارت كذلك، ونخجل منها أمام الناس، لكن أليس من حقنا أن نلهو قليلاً؟

كانت كلمات الرجال بدأت تجذبنا نحوها، فنزحف على الرمال الباردة رويدًا رويدًا نحو مقصدهم، حتى خرجت العمة "فوز" بقُلَّة المياه الباردة التي اعتادت أن تخرجها لهؤلاء المسيطرين على المنطقة الأوفر ظلاً للشجرة الكبيرة، التي تبدو لضخامتها واتساع ظلها كأنها من عهد أبينا آدم. خرجت العمة فوز لتجد الرجال كعادتهم يستلقون هنا وهناك على الرمال الباردة، مثل جذوع أشجار ملقاة كيفما اتفق، فقالت مبتسمة: مالكم مضطجعين هكذا كالخراف؟

انفجر الجميع بالضحك. حتى نحن ضحكنا تواطؤًا معها، لتسقينا من ماء قلتها الباردة.

لسانها زالق، يلسع كالعقرب، لكن قلبها أبيض كاللبن. الله ربنا مع تلك المرأة، يتركها زوجها ويسافر للعمل في العاصمة. يغيب خمس سنوات ويتركها هنا وحيدة مع ابنها في واحتنا التي تعاني شظف العيش، وقلة مياه البئر الآخذة في النضوب. زوجها لا يعود في نهاية العام مثل باقي

الرجال، وحين يعود يقلب وضع البيت بأحواله المتقلبة وصدره الضيق. هؤلاء الرجال يستحقون الحسد. يسافرون إلى مصر "أم الدنيا"، يشاهدون نساءها البيضاوات، ويرتوون من نيلها الذي نسمع عن مياهه الأكثر عذوبة في الدنيا. وفى نهاية المطاف يعودون بوجوه نظيفة، يحضرون معهم ملابس وهدايا مبهرة لأهليهم.

يجتمع أهل الواحة عندما يعود زوج العمة فوز في مدخل داره الواسعة، يتحلقون حوله، يسألونه عن أخبار البلد التي جاء منها. فالبعض زارها، والبعض يحيا على أمل أن يخرج في يوم ما عن نطاق الواحة ليرى بلادًا أخرى لا تحتضنها الرمال، ولا تقف على حدودها الصخور السوداء الجهمة. يمكث أبو حماد في مصر ما يقرب من خمس سنوات متعاقبة، لا يزور فيها الواحة. البعض يقول إنه تزوج من فتاة مصرية بيضاء كالقشدة، لا يتحرك إلا بأمرها، ولا يستطيع زيارة أهله إلا حين تأذن له. وبعضهم الآخر يقول بأنهم رأوه يتأبطها في شوارع مصر المزدحمة بالخلق والسيارات. والنساء يقلن إنه من نوع الرجال الذين لا يميلون كثيرًا إلى حياة البيت، فهو من هؤلاء الذين كلما ابتعدوا عن حياة ذويهم صاروا أكثر حياة!!

لقد اجتاحنا حلم السفر مثل هؤلاء، وحاولنا أن نتخيل شكل البلاد التي يحكون عنها. هؤلاء الرجال يظل الواحد منهم بجلبابه المتسخ وأقدامه الحافية المتشققة مادام في الواحة، وحين يقترب موعد السفر يظل أيامًا مداومًا على

الاستحمام في مَغْطَس العين، تلك العين التي تميل مياهها إلى الحموضة، لكننا نشرب منها ونستخدمها في أغراضنا كافة. ينثال ماؤها صافيًا منبثقًا من فتحة ضيقة في الأرض ليصب في المغطس الذي يستخدمه الرجال في الاستحمام، ونحن أيضًا. قال عم شُعَيب إن تلك العين حفرها الجن بأمر من سيدنا سليمان عليه السلام. وقال أيضًا إن عيون المياه التي تجري في الواحات المجاورة حُفرت بالطريقة ذاتها. لأن سيدنا سليمان كان لابد من أن يشرب كل مطلع شمس من عين مياه جديدة، يحفرها له الجن الذين سخرّهم الله لخدمته.

حين سألتُ "الشيخ منطوق"، عمدة واحتنا، أخبرني بأن تلك العيون حُفرت في عهد الرومان، وما زالت تسيل منذ ذلك الزمان، بعضها طمرته الرمال، وبعضها نضب ماؤه، ولم يبق إلا تلك العين التي نشرب منها، ويُروي منها النخيل والزرع. والحقيقة أنني قلقتُ وجفَّ حلقي حين أيقنت أن تلك العين يمكن أن تنضب يومًا ما، فتصبح واحتنا أثرًا بعد عين، مثل واحات كثيرة طُمرت بعد أن جف ماؤها ويبست أشجار بساتينها، كان القلق يأكلني حيال ذلك فسألته:

- "وماالعمل إذا جفت ماء العين؟".

- لا تقلق يا حسين لقد تقدمنا بطلب إلى "إسماعيل أفندي" رئيس الدواليب(٢) كي يرفع شكوانا إلى الحكومة. لن ننتظر حتى تجفَّ المياه.

---

(٢) الدولاب : آلة تعمل بطريقة يدوية بدائية لحفر الآبار.

- وماذا ستفعل الحكومة؟

- لابد من أنها سترسل لجنة لتقصّي الأمر، ثم تشرع بإرسال دولاب لحفر بئر جديدة، أو تطهير عين رومانية مطمورة. أما والحال تلك، فقد تقلصت مساحة المزروعات حين نقصت المياه برغم أن الضرائب المقررة على المحاصيل كما هي.

- لكن هذا ظلم يا شيخ!!

- كما ترى يا بنيَّ، لا أحد يهتم هنا. لقد جلستُ مع رجال الواحة مرات، لكنهم يقولون إن الطلبات لن تجدي، والحكومة لن تنتبه إلى واحة صغيرة تقبع في عمق الصحراء.

- لكن جابي الضرائب يصل إلى واحتنا. ينزل ضيفًا ثقيلاً، يأكل ويشرب وينام، ثم يأخذ أموالنا ويذهب في حال سبيله.

- إنه مفوَّض من قِبل الحكومة، وواجبنا أن نخدمه.

وتساءلتُ في نفسي: أليس من واجب الحكومة أن تخدمنا أيضًا.

يمتلك الشيخ كتبًا كثيرة، بعضها كتب ضخمة ذات أغلفة سميكة، وأوراق صفراء متآكلة الأطراف. يضع على عينيه، حين يقرأ، نظارة ذات زجاج مستدير شفاف. صعدتُ مع سليمان، مرات عدة، إلى الطابق الثاني فأطلعني على كتب

أبيه التي يضعها في صندوق خشبي مكسو بقماش أزرق ناعم؛ كُتُب فقه، ورحلات، وجغرافيا، وفلك، وتاريخ، وحكايات وسير شعبية.. في زيارتي الأولى قرأتُ عناوين الكتب مرات عدة وتأملت فهارسها وقلبت في صفحات بعضها؛ كلها بلا استثناء طبعات أميرية بمطابع بولاق.

أنا أحب الشيخ منطوق - الذي رغَّبني في القراءة - مثل أبي الذي يسافر كثيرًا من أجل لُقمة العيش... منذ ما يقرب من عام، وأنا أتصفح - كلما سنحت لي الفرصة - بعضًا من كتب الشيخ؛ قرأتُ منها نذرًا يسيرًا، وكلما قرأتُ أكثر كنت أشعر كم أنا وحيد في هذا العالم. إن بابًا كبيرًا من الأسئلة يُفتح على هوة سحيقة في عقلي الأجوف؛ هذا العالم - الذي سيستمر بي أو دوني - من أين بدأ؟ وكيف كان شكله حين وُلد؟ ما الخيط الدقيق الذي يربط بين الإنسان والكائنات والأشياء في هذا الكون، وما الحد الفاصل بينه وبينها؟ هل لهذا الكون حدود؟ ما معنى أن يولد الإنسان ليعيش حياة قصيرة، ثم يطمر وينتهي ذكره ليولد غيره؟

الحياة مليئة بدروب متعرجة تنفتح على جميع الاتجاهات، وما من دليل.. أين الطريق.. وهل ثمة غاية محددة تقودنا الخُطى نحوها، بينما الهوة تتسع على مداخل الدروب؟!

كل ما يدور في خلدي من تساؤلات لا يهم أصدقائي في شيء، لا يهم أهل الواحة الذين يمرون كل صباح في

الشوارع والأزقة، يطأون روث البهائم بأقدامهم الحافية ولا يبالون. يجرّون أبقارهم إلى الحقول، ويسوقون أغنامهم نحو المرعي.. يتابعون، بجهد صادق، أعمالهم الرتيبة ولا يتساءلون إلى أين؟ ولماذا؟

أنا أفعل كل هذا، لكن يوقظني في منتصف الليل صوت عميق يصرخ داخلي قائلاً: "أنت، يا مَن تحيا هنا، هل من أحد يسمعك في هذا الكون الذي لا تستطيع سبر غوره أو معرفة حدوده؟ أنت هنا، كائن صغير، ذرة رمل في صحراء شاسعة، لكنك جزء من هذا العالم الذي تخبرك الكتب عنه.

لا أعرف إلا النذر اليسير عن هذا العالم الذي أوجدني، ثم هَمَّشَنَي ونسيني، وربما نسي مكاني أيضًا. أنا جزء من هذا العالم، كما أن الخنفساء، التي تنقش أثرها على الرمال حين تسير، جزء منه أيضًا، من فورانه وأحداثه التي لا تنتهي.

أهل واحتي لا تحاصرهم الأسئلة، ولا يبالون بشيء.. يذهبون لحقولهم كل يوم.. يمارسون أعمالهم.. ربما تشاجروا لقلة المياه، لكنهم يعودون مع مغيب الشمس إلى بيوتهم، وقد أنهكهم الكد وحر النهار، فينامون كأحجار مُلقاة في فلاة.

قال لي الشيخ ذات يوم، عندما رأي حيرتي: "حاول أن تسمع الصوت النابع من داخلك. اتبعه يا بني ولا تخف، وسوف يقودك حتمًا إلى الطريق".

بحثت كثيرًا، وحاولتُ أن أسمع الصوت الذي قال عنه الشيخ. عبرت المدق الصحراوي الذي يمتد شرق الواحة، ويتلوى كثعبان بين تلال ووهاد.. سرتُ في غبش الفجر كثيرًا، وقبيل المغرب أحيانًا. صعدت أعلى التلال.. بسَطتُ ذراعي، وأغمضت عيني، حاولتُ أن أطير لكن دون جدوى.. ركضت، قفزت، ودرت حول نفسي.. صرخت بأعلى صوتي في الفضاء الواسع، فلم يجبني سوى الصدى.. خلعتُ ملابسي وتمددت عاريًا على البساط الرملي متأملاً السماء وأسراب الطيور التي تمر فوق رأسي، مرات ومرات. استمعت لصوت الرياح وهي تداعب أغصان الأشجار، يصخب حينًا ويشتد، ثم ما يلبث أن يهدأ. جلستُ لأيام أرقب قرص الشمس وهو يرتفع في بطء خلف حافة الهضبة الشرقية، بينما يسيل الضوء البرتقالي على الرمال والتلال والأزقة والأشجار، فيحيل الواحة بكاملها إلى كوكب أراه للمرة الأولى.. تأملت الشمس وهي تنحدر نحو الغرب، ثم تغطس خلف الكثبان الرملية، فتغطس معها أصوات الكائنات ويسيطر الصمت ليحتويني، ساعتئذ، سلام وصفاء غريبان. الخلاء الذي يترامى أمام عيني لا يزاحمه سوى كثافة النخيل التي تمتد في شبه قوس، تداعب نسمات الهواء جريدها فتبث حفيفًا يبعث على الاسترخاء.

❖❖❖

عاد أبو حماد، زوج العمة فوز، من السفر في المرة الأخيرة التي لم يسافر بعدها. وفى اليوم الأول احتد مع

ابنه - الوحيد حينئذ - وضربه على وجهه. وفى اليوم التالي لم يُعثَر للابن على أثر.

ركب الأب في جمع من الرجال بعد أن تجمعوا تلقائيًا في بيت أبي حماد دون أن يدعوهم أحد. الجميع تركوا أعمالهم في الحقول، وعرضوا مساعداتهم على الرجل الذي كان يجلس على مصطبة داره، وعيناه تتفحصان الأرض بصمت.

"ماذا حدث يا أبا حماد؟"، سأل المعلم رزق - صاحب الدكان الوحيد - بعد لحظات ثقيلة من الصمت الذي كان يخيم على المكان، لم يكن يُسمع في خلالها سوى بكاء مكتوم للعمة فوز من الداخل، ومواساة النساء لها.

قال أبو حماد، بصوت خفيض: في الصباح، لم أجد الولد في فراشه.

كان الجميع يعرفون ما حدث في الليلة الماضية حين علا صوت أبي حماد بالشتائم والسباب للولد وأمه. لا يعرف أحد سبب العراك، فلم يكن هناك وقت للاستفسار.

سأله الشيخ منطوق وهو يحك ذقنه: هل سألت أصحابه؟ ربما يعرفون مكانه.

استدار الجميع نحوي بأعين متسائلة، هو أكبر منا سنًا لكنه كان يجلس معنا في أحايين كثيرة.

قلتُ: لقد بحثنا أنا وحمودة في كل مكان، وتفقد عبدون الطاحونة وما حولها من حظائر أيضًا ولم يجده. وذهب

سليمان وزوَّام يبحثان عند الساقية البحرية حيث نجلس في بعض الليالي، لكنه لم يكن هناك.

قال الشيخ منطوق: اسمعوا يا رجال، نطلب مساعدة "عبد الحميد برهوم".

❖ ❖ ❖

كانت الشمس تتوسط السماء حين اخترق الركبُ الحقول، مررنا إلى جانب الساقية البحرية محتمين بأشجار الكافور من أشعة الشمس الحارقة، بينما كان نهيق حميرنا المجتمعة يصنع معزوفة تصمّ الآذان.

كان صبحي يروي أرضه، يدور خلف الثور المعلق بالساقية ويغني "وخالي من العيب يا عين، لكن الأصحاب تعبوني". اندهش حين رأى الجميع على الحمير في هذا الوقت من اليوم. لم يكن يعرف ما حدث؛ فهو في حقله من الليلة الفائتة. أسدل طرف جلبابه المحكم حول خاصرته وزعق عليَّ بكل ما أوتي من قوة: "يا بركات، انتظروني لحظة"، وعندما وصل بحماره تساءل: "في الخير يا جماعة الخير!!"، تساءل. دون أن ينتظر الرد. وكان قد أوقف الثور وقيده أسفل شجرة السنط إلى جوار الساقية. فك حماره، وبقفزة واحدة كان على ظهره.

حين لحق صبحي بنا، كانت الحمير تعدو في مدق رملي مثيرة بقوائمها غبارًا خانقًا. ألقى صبحي السلام، وعلم من خلال أحاديثنا ما حدث. حاول جاهدًا أن يخفف عن أبي

حماد بالحديث محاولاً تهوين الأمر، وأن يتفاءل خيرًا لأن الولد لا يمكن أن يذهب بعيدًا. وجدنا أنفسنا بعد فترة وجيزة وسط كثبان رملية مرتفعة تسف غبارًا في وجوهنا. أبو حماد يتلفت بعينين زائغتين يمينًا ويسارًا كمن يتمنى أن يعثر على بغيته في الطريق. كان يلكز حماره بقسوة ويزفر بين لحظة وأخرى. أمامنا كان الشيخ منطوق بلحيته الشعثاء، يتأمل الرمال الصفراء التي تزحف كل عام ببطء نحو مزارعنا وبيوتنا.

كان الطريق الصحراوي آخذًا في الصعود وسط كثبان رملية عالية. ران الصمت على الركب حتى لم يعد يُسمع سوى لهاث الحمير التي ما تلبث أن تنتزع حوافرها من الرمال الساخنة لتغوص مرة أخرى، بينما يقطر العرق على الجباه، ويسيل لزجًا مشبعًا بالغبار على الأجساد التي تلسعها حرارة الشمس دون رحمة ولا اعتبار لإنسانية المهمة التي نقوم بها. كانت تظهر على يسار الدرب في البعيد جزيرة واسعة من الرمال يبرق أمامها السراب كماء زلال. التفت الجميع بعفوية نحو تلك البقعة وراحت نظراتهم تتأملها بصمت. تتأمل غابات النخل التي طمرتها الرمال ولم يعد يبين إلا أعالي جريدها الجاف.

قال الشيخ متحسرًا: كل ذلك النخل طمرته الرمال.

قلتُ: مثلما طمرت بيوتنا القديمة.

قال عبد الحي: حقًّا يا بركات، إن قسوة الرمال وبأسها يقضيان على أيِّ طموح هنا. أرى الرمال بأم عيني وهي تقترب رويدًا، رويدًا نحو منازلنا ونخلنا (ثم ناظرًا إلى الشيخ منطوق) ألم تلاحظ يا شيخ أن الرمال في كل عام تلتحم أواصرها عن العام الذي يسبقه حتى قاربت التلال الضخمة تلك على الاندماج؟

قال الشيخ: ستصبح جزيرة رملية مهولة، عندها ينهار كل شيء تحت سطوتها.

لم يشارك أبو حماد في حديثنا القصير عن وطننا المطمور تحت الرمال، لكن المرارة ملأت حلقه من جراء الحديث، فتناسى ابنه للحظات، وراحت عيناه تتشربان بقايا الأطلال وهامات النخل التي تظهر منكسرة أعلى الرمال.

وقفنا على مقربة من منازل العرب، وسألنا صبيًّا عن دار عبد الحميد برهوم الذي تعرفه الواحات المجاورة كلها، بخبرته في قص الأثر. إنه يعرف الصحراء شبرًا شبرًا، طرقها مع والده بقوافله التي عبرت درب الأربعين لسنوات طويلة، وعرف أسرارها ومخاطرها. كانت قوافل الحاج برهوم تطرق دروب الصحراء بين واحات مصر الغربية حتى السودان لقد سمع الجميع منه أعاجيب لا تصدق.

أشار إلينا بيده تجاه بيت كبير، وقال: هو ذا.

البيـوت هنـا قليلـة متنـاثـرة. يحتل بيـت عبـد الحـميـد مسـاحة واسـعة وفنـاءً كبيـرًا تشعـر أنهمـا يمتدان إلـى مـا لا نهاية. ومـن سوره الواطئ ظهـرت أعناق الإبل المشـرئبة نحو السمـاء. واجهـة المنـزل مـزينـة بنـوع مـن التـربـة الطفليـة البيضاء. له بـوابة كبيرة مزينة بأطـر معدنيـة، وفى أعلاها ثُبت مقبض دائـري الشكل ينتهي بقطعـة معدنيـة، في أغلب الظن أنها نحاس على شكل رأس غـزالة. في الحقيقة أنا لم أعرف في البدايـة لماذا يسمـونهم العرب! سـألتُ الشيخ، كما تعودت أن أسـأله دائمـا عمـا أجهله. كنت أسـأله عن أشيـاء كثيـرة يطلقهـا النـاس هنـا علـى عـواهنهـا دون أن يكلفوا أنفسهم عنـاء السؤال. لدى الشيخ إجابات عن أسئلة كثيرة، كمـا أنه لا يكف عن التقليب في أوراقه وكتبـه متـى كـان يجلس صافيًا خالي البال.

سـألتُه عن العرب الذين يقطنون في منطقة جبلية منعزلة عن الواحات الأخرى، يمتلكون أعدادًا لا حصر لها من الإبل والأغنام والماعـز. أنا عن نفسي أحسـدهم عليها، وأتمنى أن أمتلك جملاً واحدًا. الشيخ قال إنهم بالفعل قدموا من شبه الجزيرة العربية عندمـا فتح عمرو بن العاص مصر، وتنقَّلوا في مناطق كثيرة بطول مصر وعـرضها، واستقـروا أيضًا في مناطق مختلفة.

نـزل صبحـي من فـوق حمـاره، بقفـزة مـاهـرة. أمسَك بالمقبض المعدني يضـرب به خشب البـاب، طـرقـة، ثم أخرى حتى خرج الرجل بشحمه ولحمه.

دارَ عبد الحميد يومًا كاملاً حول الواحة. اخترق الكثبان العالية التي تحيطها، ومعه الرجال الذين تركوا أعمالهم لليوم الثاني وتفرغوا لما هو أهم.

❖ ❖ ❖

سمعتُ أخي عبدون وحمودة ابن العم بركات، وهما واقفان أمام بيتنا، يقولان إن "حمّادّ" اخترق الكثبان الرملية متجهًا شمالاً حتى تسلمه المدقّ الرئيسي الذي يربط بين واحات كثيرة. لقد رأى الجميع آثار أقدام الولد. قال عبد الحميد إنه كان يحمل شيئًا ثقيلا لأن آثار قدميه غائرة في الرمال بدرجة كبيرة، وأيده الأب في ذلك قائلاً إن الولد أخذ بالفعل بعض ملابسه وأغراضه. مر على هذا الأمر الآن أكثر من عام، وعمتي فوز لا تفتأ تذكر ابنها.

اجتَمَعَت النساء في بيت العمة فوز وحولهن الأطفال، وقامت بعض النسوة بأعمال المنزل. أعددن الطعام ونظفن البيت وملأن الجرار من العين، وهمسن وثرثرن في أمر الابن الضال وفى أمور أخرى كثيرة.

كنتُ أقبض على يد والدتي؛ أقودها في الزقاق- فهي كما تعرفون كفيفة البصر- عندما سمعتُ "منذورة"، زوجة المعلم رزق تقول إن "فوز" تدخل حجرة ابنها بين الحين والآخر، تغمض عينيها وتأخذ نفسًا عميقًا، كأنها تحاول أن تتنفس رائحته، تقلّب في ملابسه القليلة، تأخذ جلبابه، تشمه، تمسح به وجهها، تحتضنه وتبكي. وماذا تستطيع أن تفعل

سوى ذلك. ما أكثر الأيام التي نزلت فيها دموعها ساخنة، وما أندر لحظات الفرح، فأبو حماد ضيق الصدر سريع الغضب.

كان أكثر غضبًا في بداية زواجه، وتذكر العمة فوز أحيانًا للمقربات إليها من النساء حكاية زوجها حين غضب منها وأمرها أن تخرج إلى بيت أبيها بعد شهر واحد من زواجها، لكنها آثرت أن تستكين بلا صوت في أحد أركان المنزل حتى يهدأ غضبه، لكنه استشاط غضبًا لمَّا وجدها مازالت في المنزل. أحضر حماره من الحظيرة وربط يديها في طرف المقود، ثم ركب وجرّها وراءه إلى بيت أبيها. تحكي فوز في أوقات الصفاء لجيرانها تلك المواقف، وتضحك قائلة: ماذا تملك الواحدة منا أن تفعله مع هؤلاء الرجال؟!

الحق معها؛ فزوجها شديد البأس داخل البيت. حين يدخل، يتحول المكان إلى جمرة متقدة. لكن تعال كي تراه فئ أي مكان آخر، مثلاً، في ظل شجرة الكافور التي أمام بيته مباشرة؛ يقول عبدون إن ضحكته العالية لا تفارقه، مزاجه الرائق، حكاياته الطريفة التي يحكيها عن مواقف جابهته في مصر، لكنه في البيت إنسان آخر.

كلما عاد أحدهم من مصر كانت العمة فوز أول مستقبليه. تسأله إذا كان قد رأى ابنها هناك، وحين يجيبها بالنفي تعاتبه بمرارة، لأنه لم يكلف نفسه مشقة السؤال عنه. تظن أن مصر هذه بحجم واحتنا.

استحوذ على أبي حمّاد الهم، بعد هذه الحادثة، وترك أثرًا واضحًا على ملامحه التي تغضَّنت، وعلى جسده الذي أخذ في النحول. اعتزل جلسات الرجال ولازم داره. لا يكلم أحدًا إلا إذا بادره بالكلام. لكن زيارات الناس لم تنقطع عن داره طوال هذه السنة. النساء يترددن على العمة فوز حاملات تحت شيلانهن السوداء ما أكرمهن الله به من خبز وأرز وبصل لمساعدة البيت المنكوب، والرجال في حقل أبي حماد يروون أرضه ويزرعونها. لكنه رأى في نهاية الأمر أن يسلم أمره إلى الله، وينزل إلى حقله الصغير ليزرعه.

اشترى بقرة وجرَّها خلفه، يشدها إلى الأمام، وهي تسحبه إلى الخلف، حتى أجهده الأمر، فالتقط عصا وضربها ضربة شديدة. قفزت البقرة ساحبة إياه فوقع على ظهره: يداه متشبثتان بالحبل، وهي تجره في الأرض المحروثة، فلم يجد بُدًا من إفلاتها، فانطلقت حتى وقفت ساكنة أمام حظيرة صاحبها الذي باعها من لحظات. حاول أبو حماد القيام، لكنه لم يستطع. كان جسده كله يؤلمه. اجتمع الناس على صراخه، حملوه للمنزل وهو ما زال يتحسس ظهره ويصرخ.

أدخله الرجال برفق حجرة نومه، وضعوه على فراش صُنع من بقايا أقمشة وملابس بالية. كان لا يزال متشبثًا بأيديهم عندما انطرح جسده على الفراش. انصرف بعدها الرجال. جلس بعضهم على المصطبة خارج البيت، بينما

ذهب البعض لإحضار "على المجبراتي". قصدوه ليس لإقناعه بالحضور لأنه سيأتي في لمح البصر إذا التقطت أذناه الخبر، لكن الطبيعة هنا جبلت الناس على التعاون عندما تسوء الأمور. سبحان الله، هذا الرجل، الذي لا يستطيع الآن أن يحرك نملة، قد صدمته سيارة مسرعة في مصر وقام بعدها كأن شيئا لم يكن، والآن تهزمه بقرة ضعيفة يستطيع طفل أن يقودها..

❖❖❖

"احتمل يا رجل. لقد صدمتك سيارة في مصر وقمت بعدها كالحصان. حيوان لا عقل له يفعل بك هذا!! يبدو أنك كبرت وشاخت عظامك، لكنها بسيطة، بعون الله"، كانت تلك الهواجس تمر مشوّشة في رأسي، بينما بصري يجول في سقف الحجرة. تفحصتُ السقف جيدًا. أنام في تلك الحجرة كل ليلة. كيف لم ألحظ ذلك!! آه، رأسي يؤلمني، كل هموم الدنيا تتصارع الآن في رأسي، بينما تدق طبول العجز الذي احتواني وقيدني بذُلّ إلى الأرض، يا للرعب الذي أعيشه. ما بال ذلك "العِرْق" الخشبي في منتصف السقف وقد تقوَّس نحو الأرض وظهر فيه شق واسع؟ المصيبة الكبرى هي تلك البقع الحمراء التي خلَّفتها حشرة القارضة، وهي تحفر في العِرْق أنفاقًا وتبني فيه بيوتًا.

هذا العِرق الضخم الذي يحمل السقف كان جذع شجرة سنط كاملة قطعتُها بمساعدة النجار، وحارس الحقول.

يـومهـا مـرّ علينـا بـركـات. وحين عـرف الغـرض من قطع الجـذع، أخبرنـا بأن هـذا الشـهر ليس موعـد قطع السنط؛ فإن لـم يُقطع في عزِ الشتاء البارد سـوف ينـخره السـوس، وإلا فعلينا أن نتركه في الماء أسبوعًا كاملاً، قبل أن يُرفع به السـقف. يومئذ أجاب علاّم بأنه يعرف هـذا الكلام.. لقد نصحني مرارًا، لكنني لم آخذ كلام النجار مأخذ الجد.

"ليتني سـمعتُ كلامكمـا، آه، لمـاذا يتـداعـى الآن، لمـاذا الآن؟!".

❖ ❖ ❖

في حياتنا العـادية، كان لا يحدّثني إلا قليلاً. يخرج كلامه دائمًا على هيئة أوامر غيـر قابلة للنقـاش "أفعلي كذا وكذا. لا تفعلي كـذا. أذهبي. تعـالـي... إلخ"، وعليَّ أن ألـبي. لا جدال. أحيانًـا كان يسب ويشتم أما أنـا فلا أجيب، كـأني صمـاء بكمـاء. إن كل الـرجـال هكذا، وإلا لمـاذا يسمـونهم رجـالاً. دخلتُ الحجـرة بهـدوء. نظـرتُ إليه، أحسَّ بي إلـى جانبه، لكنه كان ينظر في ثبات إلى سقف الحجرة.

"هل أنت بخير؟"، قلتُ في صوت خفيض.

"الحمد للّه"، ردَّ ونظراته عالقة في السقف.

- أصنع لك شايًا؟

- نعم ... لا ... لا أريد.

❖ ❖ ❖

استدارت زوجتي خارجة بينما راحت الأفكار تتلاطم في رأسي. لقد تزوجتُ هنا، على الفراش ذاته الذي أرقد عليه الآن عاجزًا. في الحجرة ذاتها رزقني الله بحماد الذي لا أعرف في أي البلاد هو الآن. يا للّه، كيف يكون المكان نفسه سبب سعادة صاحبه لحظة، وسبب شقائه في لحظات أخرى!!

❖ ❖ ❖

فحصه "على المجبَّراتي"، وانا واقفة. مرَّت يداه ببطء على ظهره. توقفَت عند بعض المواضع، وضغطت أصابعه في أماكن أخرى، ثم قال:

- كدمة بسيطة، لا توجد كسور.

قلتُ: هل معنى ذلك أنه سيقف على قدميه ويتحرك مثل الناس؟

نظر إليَّ نظرة استنكار، واعتبر أن سؤالي يشكك في قدراته، وتطوع أحدهم بالرد:

- بالطبع، سوف يجري مثل الحصان.

قال آخر: إن شاء الله ستصبح أحسن مما كنت.

قال المجبراتي: ليس لدينا وقت لهذا الكلام، أحضروا لي قطعة من البلاستيك.

تسابق رجلان نحو الخارج لإحضار المطلوب، وجاء كل منهما بقطعة كبيرة من البلاستيك السميك كانت في الأساس أكياسًا تحوي أسمدة كيماوية.

قال المجبراتي: ساعدوني حتى نُجلسه.

وضع الرجال أيديهم أسفَل ظهر الرجل برفق حتى أجلسوه وهو يصرخ. ظل المجبراتي يغمس فصوص الفول الجاف في الصمغ ويلصقها على ظهره حتى تحول إلى ما يشبه السلحفاة، ثم لفّه بالبلاستيك. وضَع قطعة على ظهره وأخرى على بطنه، ثم ربطهما حول جسده ببعض الأربطة، وأمرهم أن يتركوه هكذا لمدة يومين حتى يعود لزيارته. وجاء فعلاً بعد انقضاء يومين كاملين. فك عنه الأربطة وأمر بماء ساخن. بلل قطعة من القماش ثم عصرها جيدًا، ومرَّرها على جسده. فعل ذلك عدة مرات، ثم قال: مدّدوه على الفراش. طرحه الرجال على ظهره برفق، وصراخه يشتد في كل يوم عن سابقه.

زعق المجبراتي: أنا قلت اطرحوه على بطنه.

نفذ الحُضور الأمر. كانت أوامره لا تنفد أبدًا. أحضروا له ما طلبه: زيت زيتون، صمغًا عربيًا، حبَّات من الفول الجاف وبعض الأربطة، بينما أسرعت أنا لإحضار الماء الدافئ. غطَّس المجبراتي قدمه اليمنى في الماء، وأخذ يضغط بحركة خفيفة ذهابًا وإيابًا على ظهر زوجي المسكين الذي ألجمه الألم، فأخذ يعضّ الوسادة، ويتلوى مثل سمكة في ماء.

"تحمَّل يا رجل"، قال المجبراتي، ثم دلكه بزيت الزيتون، وجاء بفصوص الفول الجاف يغطسها في الصمغ، ويضعها على ظهره حتى أصبح ظهره كظهر سلحفاة.

انتظر قليلاً حتى جفَّ الصمغ. لفه بالأربطة، وقال: هكذا يُترك لمدة أسبوع، والله هو الشافي. وقبل أن يخرج كانت بطة كبيرة مذبوحة وجاهزة للطبخ قد سبقته إلى داره.

لم يتعافَ أبو حماد، بل ظللنا نسنده حتى يقضي حاجته ثم يعود، أو يأتي بعض الشباب ليحملونه كي يجلس على المصطبة خارج البيت مستندًا إلى وسائد عدة.

❖❖❖

قال لي حسين، وهو يحاول تفسير بعض الأمور كعادته: "تعرف يا حمودة، الغريب في الأمر أن زوج العمة "فوز" ظل عاجزًا هكذا، وبرغم عجزه فقد أنجب من "فوز" ابنًا آخر". حسين معه حق، لكن الرجل لم يعش طويلاً بعدها ليعتني بصغيرِه. حاول معه على المجبراتي، ووصف له لبن الإبل، فذهب بعض الرجال إلى منازل العرب، وأحضروا له اللبن، لكن شيئًا لم يحدث.

في المدينة التي تبعد عن واحتنا ما يزيد على خمسة عشر كيلومترًا، تقطعها الدواب في ساعة أو يزيد، بين كثبان رملية وصخور، يوجد مستشفى حكومي يعالج المرضى. لم يذهب إليه أحد من أبناء الواحة من قبل، يقولون إن فيه طبيبًا من مصر، عنده دواء لكل داء. لكن، كيف يصل إلى هناك إنسان حُطمت عظامه، على حمار يتهادى به في مدق رملي!!

روت العمة فوز لجاراتها أنها كانت في فراشها ذات ليلة، قبل أن يُؤذّن لصلاة الفجر، وقد رأت في منامها العم شعيب على حائط المسجد يستعد للأذان، لكنها سمعته ينوح، واستيقظت من نومها فزعة على صوت نعيق البوم. "إن نعيق البوم فوق الشجرة الكبيرة ليس بفأل خير"، قالت في سرها، وخرجت في الحال بسعفة جافّة وأشعلت النار فيها، بينما خرجت بعض جاراتها- عند سماعهن صوت البومة — بمشاعل من سعف النخيل الجاف أيضًا. وانعكس اللهب المشتعل على أغصان الشجرة، فجَزَع الطائر ولاذ بالفرار. التقت نظراتهن القلقة، بعد أن انعكست على أحداقهن مشاعل السعف، ثم دخلن بيوتهن منكسات الرؤوس يُفكرن فيمن سيموت الليلة من أهل الواحة.. بعد صلاة الفجر كان أبو حماد قد مات.

قالت العمة فوز، فيما بعد، إن منذورة، زوجة المعلم رزق، كانت أول الحاضرين بعد أن سمعت النواح. جاءت تهرول، متشحة بالأسود، وهي تضرب بباطن يدها اليمنى على صدرها بينما يدها اليسرى تضرب قمة رأسها وتولول.

إنها أشهر مُعَدّدة في المآتم، سواء في تلك الواحة الصغيرة أو ما جاورها من واحات. يتم استدعاؤها بالاسم، عندما يطرق طائر الموت الأبواب، فتلبي مسرعة؛ تركب حمارها وتنطلق.. قبل أن تصل إلى بيت المُتَوفَّى تبدأ في "العديد" (لقد حفظته شعرًا عن والدتها، منذ أن كانت

طفلة)، تعدد مناقب الميت ومحاسنه، حتى دون أن تعرف اسمه!!، والمعددات يرددن خلفها ما تقول.

❖ ❖ ❖

ترسل شمس الظهيرة أسياخًا من الحديد "المُحمَّى" إلى الأرض، تُكوى بها الوجوه والأجساد التي لم تُسعفها الظلال الوفيرة للشجرة العملاقة.. كنت أنا وحمودة وسليمان وزوَّام لا نفعل شيئًا، سوى أن أجسادنا كلها تحولت إلى آذان ضخمة تسمع وتتخيل المشهد. راح كل منا في عالمه الخاص يتخيل فاكهة تحته، يفعل بها ما يشاء.

كانت العمة فوز قد انسحبت إلى الداخل بعد أن أعطت الرجال الحصة اليومية من السخرية اللاذعة التي يحبونها، فإذا تجاهلتهم يومًا شاكسوها حتى تُفرغ ما في جوفها من شتائم في وجوههم. لقد تغيرت شخصيتها تمامًا وحفرت صروف الزمن مسارات أخرى في داخلها، أصبحت امرأة قوية تضاهي الرجال. هي التي طالما استكانت وخضعت وتحملت زوجها لسنوات طويلة، ثم حملت حزنًا كالجبال لغياب ابنها الذي لم يعد، ووفاة زوجها. ابنها الذي لا يعرف مكانه أحد، رغم تناثر الكلام هنا وهناك. روت إحداهن أن القمر، ليلة خروجه، كان بدرًا في وسط السماء، وقالت إن "الولد" دخل زقاق "العُرس" الضيق الذي تتشابك أغصان أشجاره على الجانبين، صانعة سقفًا محكمًا من ورق الشجر. هذا الزقاق - بحسب الحكايات التي سمعناها -

قد احترقت فيه فتاة ليلة عُرسها. كان ذلك منذ سنوات طويلة حينما زُفَّت إلى شاب أرغمها أبوها على الزواج به، على أساس أن رأي البنت لا يهم في مثل تلك الأمور!! المهم أن يكون المتقدم للزواج رجلاً تستظل به. حاولت الفتاة إقناع والدتها كي تثني عزم أبيها عن ذلك، لكن من أين لأمها أن تناقش هذا الأمر ما دام القرار قد صدر!. وما أن زينوها وجهزوها حتى نفذت ما يعتمل في داخلها، سكبت الجاز على ملابسها وخرجت متسللة إلى الزقاق ثم أشعلت النار في ملابسها، وعندما علا صراخها وحدَّد الناس مصدره، كانت شبه متفحمة.. منذ ذلك اليوم وعفريتتها تظهر في الزقاق عندما يكتمل القمر. يسمع الناس صوت رنين خلاخيلها وحُليها. قالوا إنها لا تظهر إلا لمن يسير وحده في الزقاق ليلاً، وردَّدوا أن حمَّادًا سار في الزقاق مهمومًا في تلك الليلة المُقمرة، فأشفقت عليه وأخذته معها تحت الأرض، فهو يعيش الآن زوجًا سعيدًا!!

كانت أمي تقول لي: "ألا تعرف يا حسين أن ثمة أناسًا تحت الأرض مثلنا تمامًا. لكل منا واحد يشبهه في شكله وتصرفاته، يأكلون ويشربون ويتزاوجون".. كنت أراها دائمًا تسمي باسم الله قبل أن تسكب المياه الساخنة خوفًا من أن يتأذى أحد من إخواننا التحتيين.

تابع الرجال العمة فوز بنظرات مشفقة حتى اختفت داخل الدار.

"تعرف أن فوز أصابها خللٌ في عقلها بعد هروب ابنها؟"، قال أحدهم.

- نعم، وازداد الأمر سوءًا بعد وفاة زوجها.
- الدنيا كلها مشاكل.
- بمناسبة المشاكل، عرفتم ما حدث ليلة أمس؟
- نعم، كل الواحة تعرف.

كنا نمد آذاننا ونسترق السمع، فقد كنا على مقربة من معسكر الرجال. بالطبع، كلنا سمعنا، فقد مزق الصراخ والسباب خيمة الليل، انتشرت بعدها الهمهمات في المنازل... وبعد كل لحظة تزداد التفاصيل. وما أن أصبح الصباح حتى كانت كل صغيرة وكبيرة، تسري مع الرياح وتحط على أسطح المنازل، في الأزقة وعلى أغصان الأشجار. الليل ستار، لكن حين يجثم الهدوء بثقله على الواحة، وتزحف كتل الظلام في الأزقة والشوارع يمكن أن تسمع صوت دبيب النمل على الحوائط، خاصة أن بيوتنا كتلة واحدة متلاصقة تفصل بينها حوائط، غالبًا ما تكون مشتركة بين أكثر من بيت. أما الأسطح، فهي عبارة عن سطح واحد ممتد. لا يتميز سطح عن سطح آخر إلا بحائط منخفض لا يتجاوز ارتفاعه المتر.

خرجتُ ليلة أمس، مثل الجميع، على مصدر الجلبة أتخبَّط على غير هدى، حتى توقفَت قدماي عند بيت تعلب.

للأسف، وصلت متأخرًا، فقد كان الشيخ منطوق يقف في وسط جمع من الناس يحاول تفريقهم، وقد ذهب كلٌّ في طريق، لكني عرفتُ بعدها بلحظات كل ما حدث.

في فترة القيلولة تلك، ينبطح الرجال على الرمال الباردة ويحلو الكلام:

- تخيل يا أخي، لقد أخرجوا صبحي من بيت تعلب!!

- نعم، أنا كنت أول الحاضرين، رأيته بالسروال فقط.

- اتق الله يا رجل، ولا تقل هذا الكلام. هل رأيته بالسروال فقط؟

- ...

- كل هذا وتعلب لا يعلم!!

- لا يوجد دخان بدون نار.

- كيف لم أسمع بهذا الأمر من قبل؟

- يا رجل، دعونا من هذا الأمر. لكن، مَن يا ترى أول من عرف بالحادثة؟

- تعلب نفسه؟

- وكيف ذلك؟

- كان في الغيط يروي الأرض، وعاد في ساعة متأخرة يتحسس طريقه في الظلمة. ترك الفانوس في الغيط. جاء يقوده شيء في رأسه، والله أعلم برؤوس العباد. وجد صبحي يواقع زوجته.

- هـذا يعنـي أن مـا سمعتُه من قبل صـحيح. كنت أعتقد أنها ثرثرة نسـاء يغرن من فاكهة زوجة تعلب ويحسدنها على جمالها.

- قد يكون هذا الكلام افتراء لا أكثر.

- ما تخبئه الصدور تكشفه الأيام.

"هل هـذا معقـول!!"، قلت بصـوت خفيض. لا بـد من أن صدور أولئك الـرجال تتحـرك فيها أشيـاء أخرى. إن فـاكهة امـرأة جـميلـة. وجههـا صبـوح دائمًا، وعينـاهـا الـواسعتـان تسبـحان في بحـر من الكُحل، تهتم بـزينتها وملابسهـا على الدوام.

أما النسـاء اللـواتي يكـرهنها، ومـنذورة أولهن، علـى طول الخط فقد تبـادلـن تعليقـات مسـموعـة كلمـا اجتـمعن؛ فهي "غـازيَّـة" مـن الغـوازي اللـواتي يَـدُرن في الـواحـات لإحيـاء الأفـراح. رآهـا تعلـب فجُن بهـا وهـام علـى وجهه أيـامًا حين شـاهدهـا تـرقص في أحد الأفـراح. يقولـون إنها رقصت كما لم ترقص أنثى من قبـل، وأنها شاغلته بنظراتها وابتسامتها الساحرة. دار في الواحة كلامٌ آخـر يقول إن الزوجة سحـرت له عنـد مـأذون واحـة "عنجـريش" والـذي يعـرف في أعمـال السحـر وتحضـير الجان، لأنها لم تكن بكرًا... يقال أيضًا إن المـأذون ربطه بـسحـر أسـود لا يستطيع أحد أن يفكه، فقد ربطه علـى نجـم في السمـاء يجعله يحبهـا، يـهيم بهـا عشـقًا لكن لا يستطيع مجامعتها.

كان تعلب في بعض الأوقات يفضي للمقربين إليه بأنه يموت شوقًا إليها في كل يوم ما دامت هي بعيدة عنه. فإذا كان في الحقل تذكر جسدها فانتصب شيؤه كالوتد، فما أن يصل إلى المنزل، محاولاً مجامعتها حتى يصبح باردًا لا يشعر به إلا منكمشًا متضائلاً. والمقربون إلى تعلب نفوا هذا الكلام تمامًا، مرددين الحكمة التي تقول "إن صدور الناس مليئة بالأسرار، وإن الله حليم ستَّار".

تناثر كلام كثير في مجالس الناس، حول هذا الموضوع؛ فقد رُوِيَ أن أهل الزوجة لم يباركوا هذا الزواج منذ البداية. قالوا: "لا نزوج ابنتنا لفلاح". لكنها تزوجته رغمًا عنهم، فكادوا لها وله، حتى تحولت حياتهما إلى قيظ صحراوي بلا شجرة واحدة.

قالوا أيضًا: إن تعلب، في تلك الليلة، أحس بشيء ما يفور داخله، وانبثقت في رأسه فكرة أن يترك الفانوس مضاءً على رأس الحقل ويترك للمياه الحرية في أن تروى ما تشاء من أرضه التي شقَّقها العطش، ثم يسرع إلى زوجته؛ فربما استطاع أن يروي شقوقها الظمأى. تردد قليلاً، ثم صمم أن يذهب للبيت، وبعد أن وضع الفانوس على رأس الحقل خشي أن يترك المياه فيلومه أهل الواحة إذا ما تفلَّتت الجسور وضاع الماء، والذي يحاول أهل الواحة جاهدين الحفاظ على كل نقطة منه، هباء، تناول الفانوس مرة أخرى ليتابع المياه وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى...

الذين أصرّوا أن يُثبتوا عُهر "فاكهة" حكوا أن تعلب ذهب بالفعل إلى البيت. كان باب البيت مفتوحًا لدرجة تسمح بعبور شخصٌ بالكاد، وكان الفانوس القديم يرسل ضوءًا شحيحًا في حجرة نومه. تنفس بارتياح ورفع وجهه إلى السماء، آملاً أن يستطيع إتمام مهمته التي تعثر فيها منذ أن تزوج. خطا في عمق البيت. وعند باب الحجرة وقف فاغرًا فمه، يحدق في ذلك الدخيل كتمثال.

روت فاكهة للمقربين إليها أن تعلب عاد من الحقل فجأة، وفي يده فأسٌ يحاول أن يشج رأسها به، لولا أن تفادته وانطلقت هاربة. وقالت إنه يأتي بحركات غريبة هذه الأيام، فهو يشير بيديه هنا وهناك. أحيانًا يبتسم، أو يوجه كلامه لأشخاص غير موجودين. كأن هناك من يسكن معهما في المنزل. بالغت في الكذب، وأقنعت الكثيرين بأنه يخرج أحيانًا في الليل؛ يقوم من فراشه مُتسحبًا ثم يعود بعد لحظات – تطول أو تقصر – وجسده النحيل يتفصَّد عرقًا. أخذت فاكهة تحكي وتحكي، حتى أيقن الجميع أن زوجها به مَسّ، وله "تبيعة" من تحت الأرض يعاشرها.

كان تعلب في قمة غضبه. حكي للذين يؤازرونه ما رآه من زوجته: خيانتها له، فرار صبحي من أمامه مثل فأر جبان؛ صبحي ذاك القوي الذي يدير الساقية بقوة ذراعيه يوم أن يمرض ثوره، لم يصمد أمامه... عينا تعلب زائغتان ممتلئتان ببريق غريب. يتحدث بسرعة. يشير بيده هنا وهناك. يهتز

جسده كله بينما يتحدث، ويسيل اللعاب من جانب فمه حين يغضب. أخذ تعلب يحكي ويحكي حتى أيقن الجميع أن فاكهة خائنة وتستحق الموت. يمشي تعلب في شوارع الواحة، يسبُّ جميع النساء. شتائمه تمزق ستر الليل، وتحيل الجو جحيمًا. الصبي الذي كان يبيت مع فاكهة أحيانًا حين يقضي زوجها ليلته في الحقل، قال إنها امرأة طيبة... وجميلة!!

بعد أيام عدة، اختفت فاكهة!! كأنها قطعة ملح وذابت. لم يُعثر لها على أثر. قالت النساء إنها حنّت إلى الرقص وهزّ الجسد أمام الرجال، فآثرت الرحيل واللحاق بأهلها، وقال صبيان الواحة إن تعلب قتلها ودفنها أسفل النخلة العالية في فناء منزله، بينما قال آخرون إن تعلب لا يستطيع قتل بعوضة.

قال زوَّام، وهو ما زال على قعدته، ضامًا ساقيه خشية أن يرى أحد الأشقياء سرواله مرة أخرى، فيجعلوه أضحوكة الجلسة: لقد سمعتُ أن تعلب "مخاوي".

نظر إلى أصدقائه، وحمد الله أنهم قد انشغلوا عن سرواله الموشَّى بالألوان الزاهية بحكاية صبحي وفاكهة.

قال حمودة: ماذا تعني يا ابن أبيك؟

قال زوَّام: يقولون إن تعلب "مُصاهر" من الناس الذين (بسم الله) تحت الأرض، وإن زوجته التحتية هددته بأنها ستقتله إذا نام مع امرأته.

قال سليمان: لقد رأيت تعلب بعينيّ هاتين وهو يضرب امرأته ويشتمها، وهي تقابله الضرب بالضرب والشتم بالشتم.

قلتُ: تصورا، لقد سمعتها ذات يوم تصرخ في وجهه قائلة: اذهب من أمامي يا حثالة الرجال. المهم أنه لم يردّ عليها، واستدار صاعدًا السلم لينام في الرواق وحده.

لقد تزوج في هذا الرواق. ساعده أهل الواحة في بنائه، ودخل بعروسه فيه، ولم يسلم ليلتها من تلصّص الأعين التي تسلقت نخلة عالية في فناء الدار المجاور.

بدأ الحديث بين الرجال ينقطع رويدًا رويدًا وتخبو ناره المشتعلة، حتى أن معظمهم قد استدرجته برودة الرمال في تلك الظهيرة القائظة فاستسلم للنوم.

أما نحن فقد اشتعل الحديث بيننا وكثرت الممازحات. وكلما ازداد معسكر الرجال هدوءًا ازداد صوتنا خفوتًا. كنا نتحدث همسًا حتى لا يمسنا لوم أو استهجان. كان حمودة بن بركات لا يكف عن الثرثرة، ويلقي بالنكات البذيئة أحيانًا، ويؤكد أن جسد فاكهة أبيض مثل اللبن، وعندما نسأله: كيف عرفت يقول إن لي مصادري التي تخصني وحدي!. يمد زوَّام جسرًا من التواصل الصامت.. لا يُعلِّق، يومئ برأسه موافقًا، يبتسم ابتسامة واسعة تُظهر ذلك الفراغ الأسود مكان ضرسه التالف، أو يضحك بصوت خفيض، ويبعثر نظراته الزائغة بين هذا وذاك... كنت

أجلس مربعًا قدمي وفي يدي عصا صغيرة أخطُّ بها خطوطًا لا معنى لها على الرمال الصفراء المنبسطة أمامي. سألتُ، دون أن أرفع ناظري عن الخطوط المتداخلة التي أزين بها البساط الرملي أمامي:

"ماذا كانت تفعل فاكهة في بيتكم منذ يومين يا سليمان؟"

قال سليمان: كانت تريد أبي في موضوع، قال ذلك ولما انتظرتُ التفاصيل تابع:

موضوع لا أدري ما هو، لم أكن موجودًا في الدار، لكن أختي مليحة أخبرتني أنها جاءت في أحد الإصباحات تسأل عن الشيخ، لأنها تريد رأيه في موضوع مهم.

سأل حمودة بمكر: لماذا لم تسأل أختك مليحة؟ فهي لا يخفى عليها شيء من أمور النساء؟

أجاب سليمان: سألتُها، وقالت إنها لا تعرف.

علمتُ من مليحة، بعد ذلك، إن فاكهة قد جاءت تسأل عن أبيها. كانت، حينئذ، تكنس أمام الدار، عندما لمحتها تقترب في خطوات بطيئة:

- صباح الخير يا مليحة.

- "خيرك صباحين"، تفضلي.

- الشيخ موجود؟

- نعم، في المجلس فوق.

وأشارت بيدها نحو الدور الثاني في المنزل.

سارت الفتاة أمامها وصعدت بها إلى الشيخ. كان جالسًا على فراء من الصوف، متكئًا بظهره على حشية سمكية، أمامه كوب من الشاي، ومروحة من خوص النخيل في يده اليسرى يستجدي بها نسيم الصيف، ويهشّ بها الذباب بدون جدوى. الذباب هنا مثل صخور الصحراء بكثرته، اعتاد على الآدميين فأصبح لا يكترث. يشاركهم عنوة في طعامهم وشرابهم.

على بُعد خطوتين من الشيخ، كانت قُلّة المياه الباردة منتصبة بخيلاء، كان جسدها المندَّي بقطرات الماء يغري كل ظامئ. إلى جانبها كان طبق واسع من الخوص، مطرزا بخيوط حمراء وخضراء متداخلة في أشكال هندسية مختلفة، ومغطى بشاش أبيض رقيق يظهر بعض الرطب الطازج أسفله.

قالت مليحة، وهي تشير إلى المرأة التي وقفت مترددة على آخر درجات السلّم،: أبي، فاكهة تريدك في أمر ما.

قال الشيخ: تعالي يا ابنتي.

قالت: صباح الخير يا سيدنا الشيخ.

قال الشيخ: أسعد الله صباحك، تفضلي هنا.

جلست زوجة تعلب على طرف السجادة، واضعة طرف شالها الحريري الأسود على فمها، بينما جاست عيناها خلال المكان، نظرات سريعة ومتفحصة.

لم يخف على الشيخ ما جاءت من أجله؛ فقد كان صوتها المرتفع وسباب زوجها يهزَّان البيوت النائمة كل ليلة.

تركت فاكهة، منذ أن تزوجت بتعلب الرقص والأفراح تمامًا، وقاطعها أهلها، فلم يزرها أحد منهم أبدًا. وفى صباح اليوم الذي قررا الزواج فيه سألها تعلب:

– أريد أن أرسل إلى أهلك كمية من القمح والأرز وزيت الزيتون.

– لا تشغل بالك. لن يقبلوا منك شيئًا.

– ولكنه العُرف السائد هنا!!

"ليست لهم علاقة بأعرافكم"، وأشاحت بيدها.

ويوم عقد المأذون عليهما أعطاها تعلب مهرها في يدها: أربعين قرش صاغ.

"خير إن شاء الله"، قال الشيخ مستحثًا إياها على الحديث، ثم التفت إلى ابنته التي تسمرت مكانها وأرهفت السمع:

"خذي يا مليحة"، وناولها الطبق وأمرها أن تحضر رُطبًا وشايًا للضيفة. قفزت مليحة هابطة درجات السلم، وقررت أن تعود بسرعة لتعرف ما الخبر.

هي تعرف هذه الزيارات، وتستعد لها. في جعبتها الكثير من الأسرار، والله وحده يعلم إذا كانت باحت بها لأحد، أم لا.

حين عادت بالشاي والرطب، صعدت بهدوء وخفة قطة تتحفز لتتصيد فارًا، وتناهي إلى أذنيها صوت فاكهة المتهدج:

– أقصد، منذ البداية لم... بصراحة، من حقي، أم... لم أعد أقدر. أنا...

استخلص الشيخ ما أرادت أن تقول، واستغلق الأمر على الفتاة التي تقف الآن على آخر الدرج ملصقة أذنيها بالفراغ.

سألها الشيخ بينما كانت عيناه تتأمل ألوان السجادة ونقوشها: ألم يحدث الأمر مطلقًا؟

أجابت: حدث، لكن دقيقة واحدة، ثم وجدته قطعة ميتة. لم أعد أستطيع يا سيدنا. أليس من حقي أن.. ثم صمتت.

انفتح المشهد ببطء أمام الفتاة التي ضحكت بصوت خفيض، ثم دبت بقدميها على الدرج معلنة أنها في الطريق.

– لكن، ألم يشعر باستيائك من الأمر؟ أقصد..

حاول الشيخ أن يستوضح أكثر، لكن منعه الحياء ووصول ابنته. انحنت مليحة لتضع ما في يدها، وحانت منها التفاتة سريعة إلى وجه المرأة، فوجدت الدموع تسحُّ من عينيها. سأل الشيخ ابنته التي لا تريد أن تتزحزح: هل جاءت أمك من العين؟

مليحة: لا بد من أنها فى الطريق.

قال الشيخ: اذهبي والتمسيها الآن.

امتثلت واستدارت هابطة. فما أرادت أن تعرفه قد استنتجته الآن. قال الشيخ: اسمعي يا ابنتي، هذه الأمور لا تحتمل التردُّد.

صمت لحظة قصيرة، ارتشف فيها رشفة طويلة من كوب الشاي الذي أمامه، ارتشفها بصوت مسموع، ثم تابع كلامه: الآن أمامك طريقان: إما أن يكون قد خلقه الله هكذا، وإما أن سحرًا قد أصابه، وفى كلتا الحالتين، أحضري لي أي قطعة من ملابسه وعودي بعد يومين. سأعطيك شيئًا ربما يُحدث أثرًا طيبًا. وتذكري دائمًا أن الله عليم بأحوال العباد ومفرج الهموم. لا تدعي الشيطان يوسوس لك.

قالت: ربنا يبارك فيك يا سيدنا.

عدّلت من وضع شالها فوق رأسها، ثم هبطت درجات السلم الطيني بهدوء. كانت مليحة عند مدخل الدار تنتظر أمها. ألقت عليها فاكهة السلام. حدجتها الفتاة بنظرة مركّزة، وتابعتها في الزقاق، حتى انعطفت يسارًا، واختفت عن ناظريها، لكن رأسها الصغير ظل منشغلاً بها:

فاكهة هذه عندما تسير في شوارع الواحة وأزقتها، تلفت نظر الجميع بجمالها واهتمامها بزينتها. لا تخرج إلا والكحل في عينيها الواسعتين. كما أن شيلانها الحريرية لامعة ومزدانة أطرافها بخَرَز أزرق يتدلَّى على ردفيها الممتلئتين، فيزيدها جمالاً.

حين عادت السيدة " كاملة" من العين، قابلتها ابنتها على باب الدار. أخذت منها إحدى الجرار، ووضعتها على المحمل الخشبيّ الخاص بمواعين الماء. وبلا مقدمات قالت:

- أمي. فاكهة كانت هنا منذ قليل.

نظرت إليها الأم بصمت. وقفت جامدة برهة، ثم قالت في نفسها، إن "منطوق" رجل يعرف ربنا حق المعرفة، يحفظ كثيرًا من كلام اللّه، ويحل مشاكل الخلق.

هكذا طمأنت الأم نفسها ثم أمرت ابنتها:

- اصعدي الآن. ضعي حَبًّا وماءً للحَمَام.

بُرج الحمام في الدور الثاني إلى جوار المجلس من الناحية الجنوبية. السيدة كاملة بارعة حقًّا في تربيته. حمام الناس يموت وحمامها ما شاء اللّه يتكاثر. تعلمت البنت من أمها كيف تهتم بتنظيف المكان وتغيير ماء الشرب ووضع الحبوب في أوقات منتظمة. فالحمام يحب النظافة. هكذا تقول دائمًا لابنتها التي تقضي أوقاتًا مسلية في مراقبته، حتى تعودت عليه وخبرت حياته، ولاحظت أن الحمام يغازل أنثاه طويلاً ويتودد إليها قبل أن يعتليها. لكن يحدث أحيانًا أن يغازل الأنثى ذكرًا آخر فتدمي جسده بمنقارها. إن أنثى الحمام لا تخون أبدًا. كانت مليحة تراقب الحمام طويلاً. تجلس على مسافة تسمح لها برؤيته، فالحمام يخجل أن يعاشر أنثاه أمام أعين البشر.

❖❖❖

وصلتُ إلى بيت زوجي الذي لم اشعر يوما أنه سيصير بيتي. في الحقيقة، دخلتُ متأففة حانقة. ظلت عيناي تجوبان البيت الذي لم أر فيه يومًا واحدًا جميلاً. خلعتُ جلباب الخروج وظللتُ في جلباب البيت الخفيف. تأملتُ جسدي قليلا لأتأكد من كلامهن؛ ليس لدي ما يزيد عنهن. ليس لدي الآن أية رغبة في إعداد الطعام لتعلب، الذي سيعود حتمًا إلى البيت قبيل الظهيرة مستعجلاً الطعام. "لا يفلح إلا في الأكل". جلستُ على السجاد اليدوي المهترئ في صالة البيت، واسترجعتُ ما دار بيني وبين الشيخ من حديث، وترددت في رأسي عبارته الأخيرة "لا تدعي الشيطان يوسوس لك". جلستُ ممدة قدميّ، وأسندتُ رأسي إلى الحائط: ماذا أفعل. لم أعد أحتمل. ثم، لماذا يطاردني صبحي؟ في كل مكان أجده أمامي. . هذا الرجل لا يتكلم، لكن نظراته المتوسلة. آه استغفر اللّه العظيم. ليت الشيطان يوسوس فقط. إنه لا يسير إلا في أثر خطواتي. لا أدري مَن منا المظلوم يا تعلب.

❖ ❖ ❖

لم يعتد أي منا أن يغير مكانه في ظل شجرة الكافور الضخمة. حتى الرجال في الجهة المقابلة، كلٌّ يعرف مكانه فيأوي إليه تاركًا الظل يتسرب بين مسامات جلده ليرى كل شيء صافيًا وجميلاً، حتى لتستطيع أن تنصت إلى الأشجار وتحس بالجبال التي تحوم حول الحقول. لا تشعر

أبدًا بالتعالي على الأشياء، بل تمتزج بها في سلسلة واحدة لا تنقطع. الرجال، الذين هدهم التعب ولفحت وجوههم الشمس، قانعون بنعيم الحياة هنا. تلك السويعات التي يقضونها في ظل تلك الشجرة الرؤوم.

سأل حمودة: أتتذكرون بستان الفاكهة الذي يمتلكه عم شعيب؟

قال سليمان: نعم لقد سطونا على شجرة مانجو كاملة - كما ادعى صاحب البستان - العام الماضي، منك لله يا حمودة أنت من أغوانا.

قال زوَّام: بالأمس تذوقتُ واحدة وجدتُها في الزقاق المجاور للبستان، وما زال طعمها الساحر في فمي إلى الآن.

سأل حمودة: وماذا كنت تفعل أنت وأبوك في تلك الناحية. انطق؟

قال حمودة: كنا نحرس البساتين وأنت نائم في بيتكم تملأ الجو ضراطًا يا ابن أبيك.

انخرطنا في ضحك طويل، واشتعل الجو بين زوَّام وحمودة، وتلقينا كلمات لاذعة من الجهة المقابلة، فلم يعد أحد يسمع لنا صوتًا.

دار الصمت لحظة ثم قال زوَّام:

- تصوروا يا شباب: هي ليست كبقية الثمار. نصفها أحمر والآخر أصفر، وطعمها لا أستطيع وصفه.

قلنا بأصوات متفرقة: نعرف، نعم، حقًا.

وابتدأ لعابنا يسيل، ونحن نتخيل الثمار الضخمة بين أسناننا.

قلتُ: أظن أننا كبرنا على ذلك يا حمودة.

قال سليمان: ثم إنه لا يخلو بيت من بيوتنا من أكوام الثمار.

قال حمودة: لا توجد شجرة أخرى في الواحة لها مذاق ثمارها.. ما رأيكم؟

قلتُ: بالأمس قابلني العم شعيب في زقاق الطاحونة، فبادرته بالسؤال: ما أخبار المانجو يا عم شعيب؟ فأجابني بلا مبالاة: لم تنضج بعد.

قال حمودة: لم يصدقك القول يا حسين، لا تخافوا فلن نجد، في مثل هذا الوقت من الظهيرة، حتى نملة تمشي هناك.

قال زوَّام: لابد أن أبي يدور في المنطقة.

قال حمودة: لا يوجد إنسان يستطيع السير في مثل هذا الجو، إلا إذا كان أبوك كائنًا من جنس آخر.

قال زوَّام: نعم، ثمة عفريت يظهر في مثل هذا الوقت يتسلق النخيل، وفي يده بلطة يقلّم بها الجريد.

قلتُ: كلام فارغ. أنت تحاول التملص، كما أن العفريت لا يظهر إلا إذا كان الإنسان منا وحده.

قال حمودة: نحن أربعة، وقد دخلنا بالفعل العام الماضي. هل تريدون أن أرفع صوتي بالحديث فتكون حكايتنا على أطراف الألسن بعد دقيقة واحدة؟

انطلقنا في الحال ملتصقين بالحوائط والأسيجة هروبًا من القيظ. وفى الطريق وزعنا الأدوار: يدخل حمودة وسليمان البستان من فتحة ضيقة في السياج؛ يقف زوَّام على رأس الطريق الذي يتوسط البساتين يراقب الذاهب والآتي، أتمشي أنا في الزقاق الذي يطل عليه البستان أتنصَّت على أية حركة.

مرّ الأمر بسلام في المرة السابقة. تسلق حمودة الشجرة العالية بخفة قرد. وقف بقدميه المعروقتين على غصن ملئ بالثمار، وهزه هزًّا عنيفًا، فتساقطت الثمرات على الأوراق الجافة محدثة ضجيجًا زاد من حدته هدوء الظهيرة القاتل. سليمان في الأسفل يلتقط الثمار بسرعة، ويضعها فى جلبابه الواسع حتى امتلأ وثقل عليه. كان يمشي مباعدًا ما بين ساقيه القويتين. يدب في الأرض حافيًا، قابضًا بيديه على أطراف جلبابه. وحمودة الذي نزل في غمضة عين يمشي خلفه، يضربه على كتفه، مستحثًّا إياه على الإسراع.

وصلا إلى فتحة الخروج. خرج حمودة أولاً متنهدًا بارتياح، على الأقل لقد نجا بجلده. وسليمان بالداخل ما زال قلبه ينبض اضطرابًا وعيناه زائغتان. وقف أمام الفتحة

الضيقة في سياج البستان وحمودة يمد يديه إلى الداخل، يكبش الثمار ويلقي بها إلى الخارج. حين انتهى كانت كومة من الثمار حمراء وصفراء، لها رائحة نفاذة تنتظر الأفواه المتشوقة.

في مساء ذلك اليوم كان العم شعيب حزينًا غاضبًا، يشكو للشيخ منطوق أمام جمع من الناس أن شجرة كاملة قد سُرقت من بستانه، ولم تعد فيها ثمرة واحدة توحّد ربها. وألقى باللوم على عبد الحي حارس الحقول، فهو يأخذ حصته من الناس عند جمع المحصول نظير حراسة حقولهم.

ضبطنا عبد الحي بعد حادثة سرقة البستان بيومين فقط. كنا نجمع التمر المتساقط في الزقاق. ذلك التمر الذي أسقطته الرياح من النخيل لا يهتم به أحد. قلنا نجمعه ونبيعه لعم رزق الذي يشتري كل شيء. لكن أبا زوَّام فاجأنا بدون أن نشعر، وألهب ظهورنا بغصن زيتون غض كان في يده. ألقينا ما في جعبتنا من التمر، وتركنا سيقاننا للريح. عرفنا بعد ذلك أن زوَّام أخبره بأننا ذهبنا لنأكل مانجة من عند العم شعيب، ولم نكن نقصد السرقة، وهذا ما حدث بالفعل. لم يكن أحدنا ينوي شرًا، إلا أن شكل الثمار ورائحتها يغريان الجن الأزرق بالدخول.

كنا قد وصلنا إلى العبَّارة التي تمرّ من تحتها مياه العين. أربعة من جذوع النخل الضخمة ممدة بالعرض فوق مجرى

المياه قُرب النبع، تعلوها بعض الأحجار مرصوصة بانتظام. يمر عليها الرائح والغادي. أمام العَبَّارة تمامًا، رُصَّت بعض الأحجار على حواف المجرى، نمت عليها بعض الطحالب الخضراء، عُمق المجرى لا يزيد على نصف المتر، تستخدمه النسوة في ملء الجرار.

أحب أن أمشي هنا وحدي، أراقب اهتزازات أفرع الأشجار وتشكيلات الظلال أسفلها. أختار مكانًا هادئًا ظليلاً. أجلس ممددًا قدمي، ومستندًا إلى أية شجرة، ثم أغمض عيني. أتنفس بعمق محاولاً اختزان كل هواء الحقول المعطّر برائحة الأزهار. ذات مرة، كنت أمر من هنا كعادتي. في ذلك الوقت من الظهيرة، كانت مليحة تجلس على طرف العبّارة وقد لمت أطراف جلبابها بين فخذيها بينما تدلت قدماها في الماء.. تمسك شقفة من الفخار في يدها وتدعك كعبيها في بطء شديد. تباطأت خطواتي دون أن أشعر. كانت قدماي تعرفان الطريق بينما عيناي مثبتتين على هذا الحلم المتجسد أمامي. لم يكن بيني وبينها سوى بضع خطوات حين أن شعَرَت بمروري، حرَّرَت ثوبها فانساب إلى الماء مغطيًا قدميها. نظرتُ في عينيها ولم أنبس بكلمة واحدة، بل تابعت طريقي بصمت. كان وجهها حياديًا تمامًا، كأنه وجه تمثال. بعدما يقرب من عشرين خطوة التفتُّ ورائي. لم تكن هناك. كأنها قطعة سكر وذابت. إيه يا مليحة، مُحاصر أنا بعشقي وخوفي!

قال حمودة، مشيرًا بيده إلى فتحة في سياج البستان: سندخل من هنا.

اقترب من السياج. انحنى وأدخل رأسه ببطء، ثم تراجع بخفة، وقفل راجعًا بسرعة وصمت ونحن خلفه... بعد أن ابتعدنا بمسافة كافية عن البستان، سألته ماذا دهاك يا حمودة؟

قال بغيظ: العم شعيب بالداخل.

سرنا قاصدين شجرة الكافور الضخمة أمام بيت العمة فوز. وفور وصولنا تكومنا بصمت، والتقطت آذاننا صوت العم شعيب وسط الرجال.

سأل زوَّام: هل رأيت العم شعيب بالداخل يا حمودة؟

حمودة: نعم، أنا متأكد.

زوَّام: وأنا متأكد من أنه يعلق جلبابه في عصا، إلى جوار تلك الشجرة تحديدًا، حتى يظن الأغبياء مثلك أنه في الداخل. أعرف، لقد أعماك الخوف عن رؤية الحقيقة، يا جبان.

قال زوَّام ذلك واستعد للجري. وما إن انتهى حتى طار حمودة في أثره... تركناهما لحالهما، واستسلمت أعيننا للنعاس.

5

هذا هو الملك

هـذا الخلاء الـواسع الـذي لا يُحـد، هل يـدري بنـا فيه أحـد؟ مـا الـذي أسـتطيع أن أحققه مـن الأحلام في تلك الواحة الصغيـرة، التي لا يعلم أحد بـوجودهـا إلا اللّه؟ وما الهدف مـن هذا العمل الممل الرتيب الذي يُتَعهد به إليَّ كل يوم؟ رعي الأغنام، مسـاعدة أبي في الحقل، الجلوس في ظل شجرة الكافور الضخمة إلى جوار بيت العمـة فوز، إرهاف السمع إلى أحاديث الرجال حول الحقل، وقِلة المياه، وزحف الكثبان الـرملية التـي تهدد الـزراعات، والجَولات الصغيرة التي نقوم بها بين بساتين الفاكهة.

أعلم بأن الدنيا واسعة وتضج بالحياة من حولي. يُذهلني امتداد هذا الأفق واتساعه اللانهائي. لابد من أن ثمة بلاداً كثيرة، لم يرهـا آباؤنا، ولن يروهـا. أتمنى أن أرى جزءاً منها. تـأخـذني قدمـاي مـرات عـدة عبـر السـهـول الصحـراويـة الواسعة حول بيوت الواحة. أمشي بالساعات. أتجول خلال الكثبان الرملية الصفراء التي تمتد أمـامي إلى مـا لا نهاية

لعلّي أعثر على ما لم أره من قبل. لكني أعود كل مرة كاسف البال.

سهرنا ليالي نأنس بصوت الراديو الوحيد الذي يمتلكه الشيخ منطوق. هذا الصندوق الناطق قطعة من الخيال. منذ أن استمعتُ إلى هذا الشيء وأنا مأخوذ اللب، مبهور الأنفاس. جسدي هنا وأحلامي في مناطق أخرى كثيرة مما يطلقون عليه في الراديو "العالم". هذا العالم الذي لم أر أية بقعة فيه، مليء بالأحداث والبشر والبحار التي لا حدود لها. أتمنى أن أرى بحرًا؛ أن ألمس ماءً غير ماء العين التي نشرب منها، ونروي بها الحقول. هذا الصندوق العجيب اشتراه عمدة واحتنا عندما سافر إلى مصر منذ عام. وعندما رأيته وسمعتُ الأحداث التي يبثها، تمنيت أن أمتلك واحدًا مثله. ومن يومها - حقيقة - أخذت أتردد على سليمان، نجلس أمام منزل عائلته على المصطبة الواسعة ونستمع إلى الراديو الذي عرفت منه أخبارًا ما كنت أعرفها طوال حياتي، مادمتُ هنا مُحاصَرًا بالرمال والصحراء.

عرفتُ أن المعاهدة التي أبرمتها مصر مع انجلترا منذ عامين، كانت تقضي باستقلال مصر عنها وخروج القوات الإنجليزية من مصر. كما عرفت أنه قد تم نقل القواعد العسكرية الإنجليزية من مناطق متفرقة في البلاد، إلى منطقة قناة السويس. وبرغم عدم معرفتي التامة بكلمة قواعد تلك، التي سمعتها في الراديو، إلا أنني خمنت أن المقصود بها أماكن تجمع عسكر الإنجليز.

المذيع، في الراديو، يقول إن العالم قد انقسم إلى كتلتين شرقية وغربية منذ عامين، وإن ثمة دلائل تشير إلى قيام حرب عالمية ثانية في أية لحظة. الناس هنا لا تدري لماذا جاء الإنجليز من بلادهم، ولماذا تعجبهم مصر، وما فائدة قيام الحروب من الأساس! نعرف حقًّا أن مصر مترعة بالخير، لكنه من حق أهلها. الذين سافروا إلى مصر من أهل واحتي يقولون إن الخير وفير، وهناك لا أحد ينام بلا طعام، لكن ذلك لا يعطي مبررًا لبلد أن يحتل بلدًا آخر.

لم أتلق من التعليم إلا النزر اليسير في كُتَّاب المسجد، على يد العم شعيب. أعرف القراءة، لكني لم أكن أعرف أين أجد ما يُقرأ، وماذا أقرأ إن وجدته، حتى عرفتُ الطريق إلى بيت الشيخ منطوق والذي يمتلك بعض الكتب القديمة التي أصفرَّ ورقها وتآكلت أطرافه. قلَّبتُ في بعضها حين كنا نختلس لحظات يكون الشيخ فيها خارج المنزل، وما أقلّها. ساعتها أطلب من سليمان أن يدعني أقرأ بعض ما جاء فيها. لقد أخذتني تلك الكتب برائحة أوراقها القديمة المحببة وكلامها الغامض الساحر.

ما لفت نظري أن في بعضها شذرات عن واحتنا. فقد قرأت سطورًا من مخطوط "المقريزي" وكان سليمان، الذي تركني ونزل لإحضار بعض التمر ينهب السلم صاعدًا.

"ما الذي جرى لك يا حسين، مالك مأخوذا هكذا؟"، قال مستغربًا وحين لاحظ أنني لازلت منكفئًا على الأوراق ولم أجبه، هزّني من كتفي مكررًا السؤال فانتبهت قائلاً: لا شيء.

لكن واحتنا تلك كانت تحتوي على الخير الوفير. أين ذهبت كل أشجار النخل، وتلك والعيون التي كانت تحيل الأرض أنهارًا!!

التفتُّ إلى سليمان. وجدته يقف مثبتًا نظراته على الورق الذي بين يدي فقلت له: اسمع لتعرف كم عدد النخيل التي كانت هنا في ذلك الزمن الغابر، وقرأت: "وعدد ما لديهم من النخيل اليوم مائتا ألف وثلاثة عشر ألفًا وتسعمائة وثلاث وخمسون نخلة، عليها من الخراج كل سنة مئة ألف وثمانية وستون ألفًا وأربعمائة وثمانية وثمانون قرشًا".

- أرأيت يا سليمان؟

- نعم عدد لا يصدق من النخيل. ترى أين ذهبت كل تلك النخيل؟ لكن، ما الذي تريد أن تصل إليه من تلك الكتب المتهالكة؟

- أتمنى أن أعثر هنا على تاريخنا الذي لا نعرف عنه شيئًا. إن لكل مكان تاريخه. ماذا تعرف عن الواحة يا سليمان؟ ماذا أعرف أنا؟

- ولماذا نعرف؟ إن الواحة هي الواحة، على امتداد العصور. أليس كذلك؟

- لا، تقول تلك الأوراق إن الواحة الداخلة كانت سلة الخير والغلال لمصر وكان فيها المحكمة الشرعية لجنوب مصر، كله في يوم من الأيام.

"ها أنت قد قلت، في يوم من الأيام. إن لكل يوم ظروفه يا صاحبي"، قال سليمان ذلك، وهو يكاد يغرز حبة التمر في عيني مباشرة:

- خُذ، كُل تمرًا، ودعك من الأوراق.

- حسنًا... الآن فقط.

الشيخ منطوق رجل كث اللحية، متوسط الطول، عيناه ضيقتان، وقد صبغ الشيب فوديه. يقول سليمان: إن له صورة مع عُمَد الواحات ومشايخها، يتوسطهم ملك مصر.

سألت سليمان: هل رأيت أنت تلك الصورة؟

قال: نعم، انتظر سأريها لك.

تحرك في اتجاه الرواق. غاب لحظة ثم جاء، وفي يده صورة لأشخاص عدة، كان من بينهم الشيخ. في الوسط تمامًا يجلس شخص على مقعد كبير مزين الحواف - بينما هم وقوف - في يده عصا. يرتدي ملابس بيضاء أنيقة. يتمنطق بحزام أسود عريض، وينتعل حذاءً أسود، ذو وجه عريض وشارب مشذب بعناية.

قال سليمان مشيرًا إلى الشخص الذي يتوسط الصورة: هذا هو الملك.

قلت: نعم، يجب أن يكون هو. لكن، هل يدري هذا الملك أنه يحكم مثل تلك البقاع النائية التي نعيش فيها؟ هل يعرف موقعها فى بلاده؟

أجاب سليمان: لا أدري.

قلتُ: كان والدك يتنقل، بمحض الصدفة، بين إذاعات الراديو، فالتقطت آذاننا حديثًا عبر إذاعة ما، كان المتحدث يصف ملك مصر الذي يفضل أن يقدم إليه الحَمَام معصورًا بعد طهوه، حتى لا تضطرب معدة جلالته!!

قال سليمان: عصير حمام!! هل تقصد ذلك؟

قلتُ: نعم، بالإضافة إلى أنه لا يستطيع أن يحل مشكلة أو يتخذ قرارًا، إلا بعد أن يلعب القمار مع المقربين إليه، ويفوز في كل مرة بالطبع. هذا ما قالته الإذاعة. لكننا هنا في آخر الدنيا لا نستطيع أن نحكم: هل تخبرنا تلك الإذاعات بوقائع صادقة أم تتجنّى على الملك، وتريد أن تشوه صورته أمام شعبه؟

لكثرة ما جذبتني حكايات عبد الحميد برهوم عن سفره خلال درب الأربعين. كان الشيخ منطوق يومها قد دعا عبد الحميد برهوم لتناول الطعام بعد أن انتهت رحلة البحث عن حماد ابن العمة فوز. مررتُ يومها بسليمان أستحثه على الخروج، فقد حان وقت المقيل تحت الشجرة. إلا أنه أخبرني عن الضيف الذي كان قد انتهى من تناول الطعام، وجلس يسامر الشيخ ويحكي. دعاني سليمان إلى الصعود. قاعة المجلس في الطابق الثاني، حجرة واسعة لها نوافذ من الجهات الأربعة، في أرضيتها سجاد يدوي كبير، وفراء أسود من الصوف ووسائد عدة. كان عبد الحميد يحكي أنه قطع مع والده ذلك الدرب في أربعين يومًا حتى وصلا إلى

السودان. اتضح لي أن قافلة عبد الحميد تلك لم تكن إلا جزءًا صغيرًا من قوافل عدة تجتمع من مديريات أسيوط وسوهاج وجرجا لتصل إلى خمسين ألف جمل يحملونها جميعها بالبضائع والمؤن والماء، وتجتمع جميعها في واحة الفرافرة لتقطع درب طرفاوي إلى واحة الشب على حدود مصر والسودان، ثم إلى واحة سليمة في الأراضي السودانية حتى مدينة الفاشر بمديرية دارفور في السودان، حيث تُنصب هناك سوق عظيمة لتبادل البضائع بين الشمال والجنوب. والحقيقة أن تلك الرحلات لم يعد لها وجود الآن، لكن عبد الحميد كان يخرج مع والده في بعض تلك الرحلات التي تحرص على تتبع الدرب، متفادية الرمال المتحركة والكثبان، لكن أحيانًا تضل القوافل طريقها وقت هبوب العواصف الترابية.

قال عبد الحميد: هبت ذات ليلة عاصفة هوجاء، واسودَّت السماء. لم نعد نرى النجوم التي نهتدي بها، وحادت بعض الجمال عن الدرب. سرنا نتتبَّع أثرها لبعض الوقت، لأننا على يقين بأن الجمال التي اعتادت الطريق لا يمكن أن تضلّ. سرنا لساعات حتى قارب الفجر أن ينبلج وظهر النور، فإذا أمامنا واحة خصيبة لم نرها من قبل، فيها من النخيل أعداد لا تحصى، وتحتها تساقطت أكوام عالية من البلح، ما يدل على أنها لم تطرقها قدم منذ سنوات. والصدق يقال، إنه قد هالنا كمُّ البلح المتساقط،

وعندما اقتربنا وجدنا على صفحة الرمال آثار أقدام تشبه أقدام البشر، إلا أن طول أثر القدم على الرمال يصل إلى نصف متر، فابتعدنا. أرحنا القافلة حتى بزغت الشمس، وفى الصباح لم يكن ثمة أثر للواحة. تجولنا في المكان، لكن بدون جدوى.. حكي لي أبي وأنا صغير عن واحة تسمى "زرزورة"، تُثمر فيها الأشجار صيفًا وشتاءً ولا يعرف أحد كيف تُروى. قال إن تلك الواحة لا يهتدي إليها إلا التائهون في مجاهل الصحراء، حيث تُطوى لهم الأرض، فتدنو الواحة منهم!

عبد الحميد حكَّاء بارع. يتمثل الموقفَ أمامه. يقوم ويقعد بينما يحكي، ويضع قدمه على السجاد ليرينا أثر قدم المخلوق العملاق في الواحة المفقودة. يحكي أشياء كثيرة. شعرت كأنه يضيف كثيرًا من الزيادات إلى حكاياته ليجذب انتباهنا. يومها قال إنه على طول امتداد الدرب توجد واحات كثيرة النخل وفيرة الماء. لكن لا أثر لعمرانٍ فيها ولا بشر، وفيها من التمر الجيد ما يتساقط تحتَ النخيل لأعوام، لا تمتد إليه يد بشر.

برغم شعوري بأن ضيف الشيخ منطوق يضخم الأمور، إلا أنني أحببت حكاياته، وودت لو يمكث معنا لأيام.

حينما كان عم بركات يشرّف الجلسة الليلية بحضوره أمام بيت الشيخ، فإنه ما أن يلقي السلام على الجمع ويجلس، حتى يتنحنح ثم يشير إلى الصندوق الذي يتوسط المتحلقين:

- نريد أن نسمع شيئًا مبهجًا، تمثيلية أو أغنية.

يقول الشيخ: دعنا نسمع أخبار الدنيا يا بركات.

ويرُد بركات: ما لنا والأخبار. إننا نعيش هنا في واحتنا، وسنموت فيها بدون أن يتغير شيء.

يبدو أن العم بركات لديه كل الحق. ما الذي يأخذه الناس هنا من أخبار الاحتلال أو الاستقلال أو غيره من الأحداث التي تقع هناك في مصر. يضيف موضحًا رأيه:

"هل رأيتم جنديًا واحدًا من العسكر الذين أتوا من تلك البلد التي يسمونها "....". ويبدو أنه لم يتذكر الاسم، ثم تدارك الموقف قائلاً:

- أقصد بلاد الإنجليز.

- وهل يجب أن ترى أحدهم كي تصدق؟

في صباح يوم الجمعة، كنتُ في طريقي إلى بيت سليمان. هذا اليوم من الأسبوع له مذاق خاص، فيه يأتي العم "فاضل" الحلاَّق من الواحة الشرقية، يربط حماره إلى جوار سياج بستان المعلم رزق، يستظل بشجرة الكافور؛ يجلس ليحلق رؤوس الكبار والصغار، ويقص علينا حكاياته المكررة التي لا يمل منها. أرض الزقاق طرية تحت قدميَّ الحافيتين. ملأتُ عيني من آثار المياه التي سكبتها الزوجات الليلة الفائتة.رحتى الزوجة التي لم ينم معها زوجها ليلة الجمعة تستيقظ مبكرًا لتسكب أمام بيتها دلوًا مليئًا بالمياه،

حتى لا تكون عرضة لشماتة جاراتها. المتزوجون يطلقون على ليلة الجمعة "الليلة المبروكة". وقد تناهى إلى سمعي ذات يوم قولهم إن أسقف البيوت لا يمكن أن تقع ليلة الجمعة، لأن أرجل النساء ترفعها!! قلة أدب!! لكني أتمنى أن يكرمني اللّه وأقلّ أدبي مثل هؤلاء.

في منتصف الزقاق كان كلب عائلة "صبحي" يطارد قطة سوداء بنشاط ملحوظ، ما أن رآني حتى هش بذيله والتصق ببوابة الدار...

كان الشيخ منطوق قد عاد لتوه من الأراضي المقدسة بعد أن أدى فريضة الحج، فأضحى بيته في ذلك الصباح قبلة أهل الواحة يفدون إليه، يهنئونه على عودته سالمًا غانمًا. كانت واجهة الدار قد ضُربت قبل أن يأتي بجير أبيض يبعث الصفاء في النفس. جاء العم شعيب بطمي نحاسي ناعم –لم يبذل جهدًا في العثور عليه، فهو موجود بكثرة في صحارينا الواسعة –وقَطَع جريدة نخل خضراء، دقّ طرفها بتمهل حتى أصبح ليّنًا طيّعًا. وضع الطمي في إناء من الفخار وسكب عليه الماء، قليلاً... قليلاً، وأخذ يقلّبه حتى استحال إلى سائل لزج. صعد على سلم خشبي، وأنا صعدت وراءه، بينما ناولني سليمان الإناء فرفعته عاليًا بين يدي، والعم شعيب يغمس عصاه في الإناء ويكتب على واجهة البيت: "حج قبر النبيّ المختار وزاره الحاج منطوق سليمان منطوق في عام ١٣٥٩ هجري"، ثم عُلقت رايات

بيضاء - كانت الخالة "فرحانة" قد خاطتها - أعلى واجهة المنزل.

يوم عاد الشيخ، لم تكن امرأة في منزلها، ولا رجل في حقله. خرجت الواحة عن بكرة أبيها للترحيب به. النساء في الفناء الواسع ترص الطعام على مواقد طينية. العمة "وجيدة" أم عبدون - التي كُفَّ بصرها في واقعة غريبة - تغني بصوت مليء بالشجن والنساء يرددن خلفها:

"يا رايحين للنبي خدوني معاكم

نفسي أزور النبي وأحيا في حماكم

قُبّتك يا نبي مين اللي بناها

دا بناها موسى، وعيسى قباها

قبتك يا نبي علوّ النخل فوق

دا بناها موسى من الحر والشوق

كان الرجال يتبادلون الحديث مع الشيخ في المندرة، وأنا طرقت الباب المفتوح على مصراعيه، ولما لم يسمعني أحد دخلت. في الداخل جلبة وصراخ أطفال وغناء نسوة. فتيات يرحن ويجئن. لمحتني مليحة فهرولت نحوي مبتسمة.

مثل زهرة برية متفتحة، شلال متدفق من أشعة الشمس الدافئة في شتاء صحراوي لا يرحم. كانت تتحرك بخفة فراشة ربيعية زاهية الألوان، بينما بدايات ريح عاصفة تصرصر بين ضلوعي. امتدت يدي لمصافحتها:

قلتُ مُرحّبا: أهلا يا مليحة. أين سليمان؟

أجابت: ذهب ليتفقد الحيوانات في الحظيرة، وسيعود في الحال.

قلتُ: حسنًا، سأنتظره في الداخل.

تأملتُ وجهها المبتسم. أوداجها متوردة باستمرار. منحها الله عينين جميلتين، وأهدابًا طويلة كأهداب أبيها، وشفتين مكتنزتين حمراوين بلون الدم. كأن عينيها طريق طويل لا ينتهي، لذيذ ومشوق لا يملّه أحد. اقتلعت قدميها من أمامي، وفي عينيها خليط من الحياء والحيرة والنشوة. لم أنتبه إلى ما تنصبه القلوب من فخاخ لتصيد المشاعر. انتبهتُ الآن حين دخلت مليحة ببراد كبير من الشاي، وخلفها دخلت سبيل بصينية كبيرة عليها عدد لا يحصى من الأكواب. حين همَّت الفتاتان بالخروج قال العم بركات:

"صُبّي الشاي يا مليحة".

وامتثلت الفتاة.

❖❖❖

أمرتُ الفتاة بأن تصب الشاي فأطاعت. كانت منحنية في مواجهتي. تأملت الاحمرار البادي على وجهها وضحكت في نفسي. تناولتُ الكوب وارتشفتُ رشفة طويلة بصوت مسموع، ثم توجهت للشيخ بالحديث، بينما الفتاة ما زالت منهمكة في صب الشاي:

- هل تعلم يا حاج منطوق حلاوة طعم الشاي هكذا؟

- لماذا يا ذوّاقة زمانك؟

- لأن مليحة لابد قد وضعت إصبعها الجميلة في الشاي فاستحال عسلاً.

قلتُ ذلك ثم انتابتني لوثة من ضحك متواصل أضحكت الجميع. ومليحة لم تكمل صب الشاي وفرت هاربة، فأكملتُ أنا ما بدأتْه.

❖ ❖ ❖

في ذلك اليوم، انتبهت إلى قلبي الذي يقود خطاي نحو بيت الشيخ في أوقات كثيرة. قلت في نفسي: أنا أحب هذا البيت، أحب الشيخ، وأحب أخي سليمان، ومليحة، ثم اضطرب قلبي حتى كدت أبكي.

وقفتُ أمام بوابة الدار. قبضت على المقبض المعدني أدقه وأنادي:

"يا سليمان"، فجاء الصوت رائقًا من الداخل:

"من؟".

انتفض قلبي طربًا لسماع صوتها، ثم فُتح الباب وبزغت شمس الضحى في أكمل زينة:

"هل سليمان هنا؟"، سألتُها بصوت خفيض مضطرب.

- لقد جرّ البهائم إلى الحقل منذ الصباح.

- أين الشيخ إذن؟

- كان هنا منذ لحظات مع العم بركات. لقد سارا في اتجاه الكثبان الرملية.

- هل لي بشربة ماء؟

أومأت بابتسامة عذبة ودخلت. أنا ما زلت مكاني، أرمقها من الخلف وهي تسير. عادت وكوب الماء في يدها:

- تفضل.

- إن هذا الماء أعذب ما شربت في حياتي.

- إنه الماء ذاته الذي يشرب منه جميع الناس.

- لا أدري يا مليحة، لكني أحب كل شيء في هذا البيت.

طأطأت رأسها خجلاً، بينما اتخذتُ بجرأة لم أعتد عليها خطوة إلى الداخل. حين رفعت رأسها، رأيتُ في عينيها نظرة لم أعتدها. أستقبل عينيها الواسعتين بنظرة واضحة الرهافة. لم تنكسر نظرتها القمراء - التي أتوسم فيها الحب - أمام نظراتي. كانت نظراتها تروح وتجئ ما بين عينيّ والفضاء الواسع أمام الدار. نظرة تفيض بدفء أحسست به يسري في أوصالي. شعرتُ بأنني أطير في اللا مكان. أعلو عن الأرض رويدًا رويدًا وكأنني في حلم. أدهشتني ابتسامتها وملأت قلبي بهجة، أردتُ أن أقول شيئًا لكنني أمسكت عن الكلام في اللحظة التي انتظرت هي فيها أن أنطق. كانت تعبيرات وجهها المترقب مرور أي كلمة على

جسر ارتباكي مثل طلل لنهر في صحراء هجرته المياه منذ ملايين السنين.

- لماذا تنظر إليَّ هكذا؟، سألَت بصوت خافت.

- أتمنى أن أتزوجك يا مليحة، قلت متلعثمًا ودقات قلبي ترن في أذني، ثم رددتها مرات.

لم تجبني لكن ابتسامتها العذبة قالت: نعم، نعم. لم تقلها لكنني أحسست بها، سيطرت رائحتها عليَّ وشعشعت في أنفي.. كانت قريبة إلى حد ما من رائحة المولود في الأيام الأولى من ولادته.

❖❖❖

مياه العين آخذة في النضوب. تشح في كل عام قدرًا عما قبله من أعوام، وتقل معها المحاصيل، وتكثر مع قلة المياه مشاكل الناس. وهل ينسى أحد ما فعلته مع تعلب في حقول الأرز؟ كان ضوء الفجر قد تبدَّي في الأفق. نهرت زوجتي زهرة كي تتعجل في تجهيز "قادس" الطعام حيث إن ورائي تلالاً من الأعمال في الحقل. لم تكن الشمس قد خرجت من مكمنها بعد. وصلتُ إلى أطراف الحقل فلمحتُ شخصًا يعبث بالمياه عند رأس الحقل، ترجّلتُ عن حماري، ربطته بهدوء بينما عيناي لا تحيدان عن الرجل الواقف هناك عند مفكات الأرز[٣]. وقبل أن أصل إليه صرخت:

(٣) مقياس من خشب مُحَزّز إلى أجزاء متساوية، كل حَزّ قيراط من المياه، يوضع المقياس في مجرى الماء، لتوزيع المياه بالتساوي على الحقول، ولا يكون ذلك إلا عند زراعة الأرز، حيث تستهلك كمية كبيرة من الماء.

– من هناك؟

– أنا.. أنا تعلب.

– ماذا تصنع عندك في مثل هذا الوقت؟ انطق؟

– أنا؟ لا شيء.. كنت.. أ.. أ.. فقط ألاحظ مقياس المياه.

لم يقل تعلب الحقيقة؛ أنا رأيته وهو يدوس بقدمه على مفك المياه من ناحية أرضه.

تقدمتُ في غضب أخوّض في المياه التي غمرت مشاتل الأرز، فحملت قدماي وساقاي ما استطاعتا من طين الأرض، شعرتُ بقوة في قدميّ تضاهي قوة ذلك الحيوان الخرافيّ الضخم الذي كانت الجدات تحكي لنا عنه في الصغر. كنت كلما نزعتُ قدمًا غاصت الأخرى محدثة ضجيجًا وناثرة على جلبابي المهترئ بقعًا من المياه العكرة المختلطة بالطين. عندما وصلتُ إلى تعلب كانت فورة الغضب قد وصلت ذروتها. قبضتُ على خناقه، ولكمته في وجهه، ثم طرحته في مجرى المياه، وأقسمتُ له أنني سوف أدفنه هنا إن عاد إلى مثلها. قام تعلب حاملاً طين المجرى على جسده، وتوعَّد بأنه سوف يشكوني إلى الشيخ، وسيأخذ حقه إن عاجلاً أم آجلاً، مؤكدًا أنه قد صبر على أفعالي بما فيه الكفاية. أما أنا فقد هززتُ رأسي استهزاء، تجاهلته تمامًا وانكببتُ أصلح مقياس المياه.

6

البائع الجوّال

عندما انطلق صوته للمرة الأولى، في هذا الصباح، ترك الأطفال، الذين يلعبون أسفل شجرة الدوم، ألعابهم ومشوا خلفه مهللين لمرآه. يقلدون صوته، يرددون نداءه وهو يلتفت بين الحين والآخر ليمنحهم ابتسامته. لم تخرج النساء فور وصوله للشراء أو الفُرجة، إنما فتحْن أبواب البيوت قليلاً، وتأكدن أنه "لمعي"، بشحمه ولحمه ثم انصرفن إلى أعمالهن في الداخل. يعرفن أنه سيُنهي جولته في الأزقة والحواري، ليعلن عن وصوله ثم يحط رحاله في ظل الشجرة الكبيرة أمام بيت العم "بكير"؛ تلك البقعة التي لم تر الشمس منذ أن خُلقت هذه الشجرة. الخالة " فرحانة" زوجة العم بكير تمتلك خبرة كبيرة في فرز الأقمشة، ومعرفة الجيد منها والرديء، وتستطيع أن تقدر أثمانها أيضًا، كما أن الأقمشة المُبَاعة ستؤول إليها؛ لتخيطها أثوابا وسراويل للجميع.

كانت الشمس قد برحت الجبل الشرقي (حافة الهضبة)، وارتفعت بمقدار رُمْح في صفحة السماء الصافية، لتضرب

بحار الرمال الشاسعة بأشعتها، فتمتد الظلال الباردة أسفل شجيرات الدوم والأثل والسنط المتناثرة في تلك الأنحاء.

تدور حافة الهضبة في شكل قوس، يحيط بالواحة الصغيرة من الجهتين الشرقية والشمالية ويعطي لناسها الانطباع بأن نهاية العالم تكمن خلف تلك الحدود.

ارتفع صوت البائع الجوَّال، سابحًا في الفضاء ومخترقًا نوافذ البيوت وطاغيًا على أصوات الطيور والحيوانات التي أرهفت السمع محاولة تذكر صاحب ذلك الصوت الذي غاب عن الواحة لما يقرب من نصف العام. ارتفع صوته بالنداء على بضائعه من الأقمشة والملابس. العم " لَمعِي" رجُل سمين بشكل لافت، عيناه غائرتان في وسط وجهه المليء المستدير؛ وجهه أبيض مشرّب بحُمرة، وشاربه الكث يقف شامخا فوق شفته.

يأتي البائع على فترات متباعدة. يظل غائبًا عن واحتنا حتى يتيقن أنه سيجد من يشتري بضاعته التي ينادي عليها بصوته العذب، المناقض لحجمه: "معنا حرير هندي، معنا قماش "كَستّور"، معنا قماش "بَفْتَة" أكثر بياضًا من اللبن، معنا قماش "دَمُّور"، إيشاربات "شِيفُون"، معنا أقمشة "زين" للبنات". يظل يُعدد أنواع أقمشته المختلفة، يُحصي مزاياها من نعومة أو بياض أو متانة ويتغنى بذلك غناءً عذبًا.

يمشي خلف حماره النحيف في حواري الواحة وأزقتها، وكلما وصل الحمار إلى سقيفة ظليلة، تصبح خطواته أكثر كسلاً من كسله المعتاد. يقطر العرق في مناطق متفرقة من وجه البائع رغم اعتدال الجو في ذلك الوقت من النهار. يرفع ذراعه اليمنى ويمسح وجهه بكُم جلبابه، ثم يواصل المشي وهو ينادي على بضاعته.

يعبث العم لمعي في جيب جلبابه "السيَّالة"، ليُخرِج كيس التبغ "المَضْغَة"، يضع بعضه في فيه، ثم يقضم قضمة صغيرة من ملح "العَطرون" الأبيض بمقدمة أسنانه؛ ليعالج به مرارة التبغ. يتركه في فمه لدقائق وهو يلوكه في بطء، كي يمتص مرارته اللاذعة التي تضرب في يافوخه مباشرة ثم يبصقه على رمال الشارع، صانعًا بقعة بنية اللون، تتشربها الرمال رويدًا رويدًا.

جال الحمار جولته، التي ينفذها آليًا منذ سنوات طويلة في أنحاء الواحة، والبائع الجوَّال يتبعه، فقط يتبعه، كأن الحمار هو الذي يقوده وليس هو مَن يقود الحمار. طالما كنت أحسد العم لمعي الذي يزور أماكن عديدة لم أرها، يعرض فيها بضاعته ويتعامل مع أناس كثيرين.

لم يغير البائع طريقته التي اعتادها في النداء على بضاعته منذ سنوات طويلة. لم يغير طريقته المتمهلة في المشي، غير أنها أصبحت أكثر تمهّلاً بفعل الكِبَر. كل شيء فيه كما هو: عمامته البيضاء الناصعة، جلبابه الصعيدي ذو

الأكمام الواسعة وحماره الأسود الذي كان قويًا فيما مضى وصار الآن عجوزًا مثله؛ يمشي بالكاد وهو يتبعه في صبر وطول بال حتى يحط رحاله أسفل شجرة بكير زوج الخالة فرحانة الخيَّاطة. لم أرها غاضبة أو حزينة في يوم من الأيام. الأطفال جميعهم يحبونها ويلتفون حولها كما كنا نفعل ذات يوم ونحن في مثل عمرهم؛ نلتف حول "مَجْمَرة" النار، في قاعة بيتها شتاءً، لتقص علينا من حكايتها التي لا تنتهي. هي امرأة قصيرة نحيفة الجسم، عظام خديها البارزة قليلا تشعرك أنها تبتسم على الدوام. زوجها يثرثر في غيابها قائلاً: إنها "خميرة عكننة" ولا تكف عن الشكوى". لكن والدتي أكَّدت: "بكير يخشاها؛ فهي ذات شخصية قوية، حضورها طاغ وروحها حلوة".

في إحدى ساعات المقيل، سمعتُ الشيخ منطوق، عُمدة واحتنا، يقول: "إن روح الإنسان هي جوهر صفاته وملامحه"، ولما استفسر الجلوس قال: "إن جوهر الإنسان هو روحه التي يمكن أن تنعكس صورتها على جسده، فتُظهر صفاته الداخلية حتى أنها تعكس ملامح وجهه ودرجة قبوله لدى الناس، وحضور شخصيته".

قالت أمي: "إن الروح تغادر جسد النائم في الليل، تمر في الدروب والأزقة، ويمكن لها أن تصعد الجبال أو تتسلق الأشجار، أو تطير مع السحب البيضاء في السماء، وتحلّ أيضًا في أجساد القطط، خاصة في الليالي المُعتمة، حتى

أنها تـأتي بأفعـال دون إرادة صاحبـها، ثم تعـود إلى الجسد فيستيقظ صـاحبه ويظن أن مـا فـعلته الـروح لا يعـدو عن كونه حلمًا راوده في منامه".

قال أبي؛ تعليقا على كلامها، وهـو يهز كتفيه استهزاء: "لا تصدق كلام أمك يـا حسين فهي لا تفهم شيـئًا". كان كلامها في ذلك الـوقت أقـرب إلى نفسي من كلام أبي الـذي تـابع كلامه قـائلاً: " أمـر الـروح من الغيبيـات، لا يـستطيع أحد التكهن بمـا هـي عليه". لم أفهم وقتهـا كلمة الغيـبيات، فقال: "أعني أن الـروح لا يـعلمهـا إلا اللّه". كان لكلام أمـي وقتئذ وقعًـا في قلبي، وكنت أتمنـى أن لـو تـظهـر الـروح أمـامي فآمرها أن تذهب لرعي الأغنام بدلا مني.

توقف حمار البائع أمام بيت بكير مبـاشرة، ولـم يتحرك خطـوة واحدة، كـأنه ينتظـر بفارغ صبـر أن يُحَط عنه حمْله ليـستـريح. تقـدمتُ خطـوات ورفعتُ مع البـائع "حِمَل" الأقمشـة، ووضعنـاه جانبًا. رفع يده شـاكرا إياي، بأنفـاس متلاحقـة وصدر مـا زال يصعـد ويهبـط، كأن الـرجل انتهى لتوه من صعود الجبل.

خـرجت الخـالـة فـرحـانـة من بيتهـا تهـرول في شـالهـا وجلبابها الأسـودين، مُـرحّبة بالضيف الذي حط رحاله الآن، وجلس يلتقط أنفاسه:

- أهلا وسهلا، مـرحبا بك يا مقـدّس، نورت البلد، لم كل هذا الغياب؟

- أهلا بكِ، هي المُدة ذاتها التي أغيبها في كل مرة تقريبًا؛ فأنا أعرف متى ستبلى الملابس التي أبيعها لكم.

- أهلا وسهلا، لا غيّبك اللّه، ولو أن ملابسنا ما زالت تسترنا كما ترى.

- أقصد ملابس الأطفال الذين لا يكفون عن الجري في الوحل والطين.

- بالطبع، الأجساد تبليها السنوات فما بالك بالملابس؟

- صدقتِ.

كانت الخالة فرحانة تجذبنا إلى بيتها في ليالي الشتاء، تجمعنا حكاياتها. كنا نتَحلَّق حول مَجْمَرة النار؛ نستدفئ من البرد، ونسافر مع حكاياتها البديعة إلى بلاد وأماكن لم نرها. سألناها، لمَ تدعو العم لمعي بالمقدّس، فقالت: "المقَدّس هو الشخص الذي حج إلى "بيت المقدس" في فلسطين حيث وُلد سيدنا عيسى نبي المسيحية". لم نكن نعلم وقتها ما "المسيحية"، وأين "فلسطين"، فاستغربنا كلماتها واتسعت أحداقنا في بلاهة، فقالت في صوت آمِر: "لن تفهموا الآن".

منذ أن استطعت أن أميز بين الأمور، وأنا أرى البائع يأتي من طرف الواحة الشرقيّ، عبر المدق الصحراوي الذي يخترق التلال والروابي حيث تتناثر الأحجار السوداء وتنمو نباتات قصيرة في الأنحاء. في الليالي المقمرة، كنا

نقصد المدق الشرقي المفروش بالحصى، ندهس التلال التي تحيطه، بأقدامنا الحافية صعودا وهبوطًا. نلعب ألعابنا الليلية، ثم نجمع الحصى الأبيض المستدير لنستمتع بوهجه بعد أن نقدحه في غُرفنا المظلمة... كل الأخبار الجديدة عن الدنيا الأخرى، التي تقع خارج واحتنا، تأتي مع القادمين خلال المدق الذي يبدأ من عند "دومة عنتر" ثم يتلوى كثعبان إلى ما لا نهاية؛ إنه الدليل الوحيد الذي يجعلني على يقين مطلق بأن ثمة أناس آخرين في هذا الكون سوانا.

عند فم المدق كنا ننتظر سيارة العم رزق بالساعات، إلى أن تظهر في البعيد مثل معزاة تجرجر وراءها غبارا كثيفا، أنظارنا لا تحيد عنها وهي تكبر أمام أعيننا كلما اقتربت. تظهر وتختفي في تعرجات المدق الصخري المفروش بالحصى، والذي تترامى حوله الكثبان الرملية على مساحات واسعة. كنا نتتبع السيارة بضجيجها الذي يصم الآذان، نتعلق في صندوقها المعدني الطويل غير عابئين بالغبار الكثيف الذي تذره الإطارات في عيوننا، حتى تنتهي في محطتها الأخيرة أسفل دومة "عنتر". لا نعرف عن شجرة الدوم سوى اسم صاحبها الذي لم نره قط، ذلك لأنه مات من زمن، ولم يترك خلفه ذرية ترث الشجرة وما يحيطها من أراض.

تأتي السيارة في نهاية كل شهر محملة بخيرات البلاد البعيدة، تلك البلاد التي قدمت منها، في شهر فبراير

المنصرم، إحدى السيدات، عابرة هذا المدق، في موكبها، تسأل عن كبير البلد. صديقنا عبدون، هو أول من التقى وجهها البهي عند فم المدق الصحراوي، وأشار لها أن تلك السيارات لن تستطيع التقدم أكثر من ذلك، وعليه يجب أن ينعطفوا قليلا إلى اليمين. قال: "قفوا هناك، في الظل، أسفل شجرة الدوم تلك"، وأشار إلى "دومة عنتر" التي تفرد أذرعها المتعددة الطويلة في اتجاهات مختلفة. كان حافيا كالمعتاد، بثوب مرقع وشعر مفلفل أشعث.. اقترب الموكب حتى حاذاه، وعندما التَفَتَت إليه وتوقفت تسأله عن بيت "الشيخ منطوق" بُهت لجمالها، وتسمر في مكانه ينظر إليها. نظرت إلى عينيه العميقتين وركزت فيهما قليلاً وهي تبتسم، ثم سألته عن اسمه، لم تسأل شابا عن اسمه خلال زيارتها، التي امتدت طوال اليوم، إلا هو. لم يستطع عبدون نسيانها منذ أن وقعت نظراته على وجهها الآسر.

عاد "عوض" من القاهرة منذ شهر مضى، التففنا حوله ليحكي لنا عما رآه في تلك البلاد البعيدة. ظل عوض يحكي وهو يتمايل برأسه هنا وهناك. انتظر عبدون وانتظر، حتى أصابه الضجر من الحكايات التي لا تهمّه في شيء، كان يتمنى لو يعرف خبرًا عن امرأة الحلم التي ابتسمت له مرات قليلة خلال يوم واحد، لذا خرج صوته الأجش يسأل عن السيدة " قوت القلوب الدمرداشية" التي زارت واحتنا وغيرها من الواحات التي نثرت فيها تبرعاتها دون حساب.

كانت سيارتها والسيارات التي تتبعها قد توقفت عند فم المدق الصحراوي، أما هي فقد ترجّلت مخترقة الزقاق الشرقي نحو بيت الشيخ منطوق، وخلفها تابعوها، وخلفهم تجمع الأطفال والشباب ولحقت بهم النساء، فبعثرت عليهم أكياسًا من الحلوى التي لم يتذوقها أحد من قبل؛ وأضحى الأطفال يسيرون خلفها أينما سارت، حتى أن أخي الصغير "شافع" لم يعد إلى البيت في ذلك اليوم إلا في المساء.

يبدو أن عبدون قد أصابته لوثة قلبية حال مرآها، ففكر في فكرة عبقرية تجعلها لا تنساه؛ أسرع يصنع لها تاجًا من نبات "الشلشلاو". ذلك النبات الشوكيّ الذي ينمو بكثرة على أطراف الواحة، جمع ثماره التي تشبه البلح إلى حد كبير. قطع بمنجله جريدة نخل يابسة، أخذ منها أجزاء صغيرة متساوية، ثم شذبها وسن أطرافها، وصنع من أجلها تاجًا رائعًا.

كان ذلك موسم صناعة التيجان التي كانت منتشرة بين الصبية في تلك الآونة، لكنه اقتنص الفكرة وأبدع في صنعه، ثم وقف ينتظرها حتى خرجت من بيت الشيخ، وعندما رآها مد لها يديه بذلك التاج دون أن ينبس، فأخذته منه وابتسامة رائعة ترتسم على شفتيها قائلة له: " أنت ذكي يا عبدون، أعدك أن أحتفظ به أينما ذهبت". كان تلك الكلمات كافية لأن يحلق طويلا في فضاء أحلامه.

❖❖❖

عندما وصلتُ أنا وأمي عند بيت الخالة فرحانة، جاءت صاحبة البيت مهرولة تجاه والدتي مرحبة بها: "مرحبا يا ست كاملة، تفضلي، ليتك شرفيني في الداخل أولا، نؤدي معك الواجب". الخالة فرحانة سيدة كريمة بطبعها لكن كرمها حتما يزداد مع والدتي لأنها زوجة الرجل الذي يحكم هذا المكان.. رأيت البائع يلتقط رَسَن حماره ليربطه حيث اعتاد. كان حسين واقف إلى جواره، أخذ مقود الحمار من يد الرجل وقال له: "دع عنك هذا الأمر. استرح أنت وأنا سأربطه تحت شجرة التوت التي هناك – وأشار بيده ناحية بيت العم بركات – وسأجلب له بعض الأعلاف أيضًا". نظر الرجل إليه نظرة امتنان وعرفان. قال حسين ذلك ثم اكتشف وجودي فتغيرت ملامحه واضطرب، بينما كان البائع يميل بجسده الثقيل، مستندا إلى جذع الشجرة؛ ليجلس.

كان قد أكل طعامه وشرب قليلاً من الشاي، ثم قبَّلَ باطن يده وظاهرها وهو يرفع نظره إلى السماء قائلاً: "الحمد للّه".

أخرج كيس التبغ من جيبه، فتحه وأخذ قليلا منه بأطراف أصابعه، ودسه في فمه، قضم قضمة صغيرة من قطعة الملح، ثم أخذ فكّاهُ يدوران في بطء كما يدور ثور منهك القوى في ساقية.

عندما استقر أمر البائع كانت النساء قد اجتمعن في ظل الشجرة، يقلبن في البضائع، وأمي بينهن، يبعثرنها هنا

وهناك ويتبادلن فحصها بأصابعهن. يدَعْن هذا النوع من القماش، ويلتقطن ذاك، والبائع يؤكد بين الحين والآخر: "نعم، هذا جميل، ذاك نوع جيد". يعرف أن النساء لا يعجبهن العجب، لكنه يعرف أيضًا أنه- وبعد أن ينتهي الجدال- سيبيع بضاعته لا محالة. جاءت النساء من أماكن متفرقة، وعندما وصلن بضجيجهن أمام بيت بكير، فرَّت طيور القمريّ دفعة واحدة تاركة أغصان الشجرة الظليلة، ثم رفرفت في السماء على غير هدى.

❖❖❖

لا أدري في أي كتب الشيخ قرأتُ أن الإنسان يفسد نظام الكون أنَّى ذهب. فرَّت الطيور من الشجرة/الوطن مُجْبَرة وأفسحت المجال للنسوة وبناتهن؛ أفسحت المجال للإنسان كي يعبث بدون أن يفكر.

كانت مليحة تقف إلى جوار أمها السيدة "كاملة"، زوجة الشيخ، لا تفعل شيء سوى أنها تتفرج.

قالت "منذورة" زوجة العم رزق وهي تمط شفتيها كعادتها: ساذجةٌ من تشتري تلك الفضلات..

قال البائع: لماذا يا سيدتي؟ إنها الأقمشة عينها التي تشترونها في كل مرة.

تحسست وجيدة العمياء نوعًا رقيقًا من ألأقمشة ثم قررت: إنها الأقمشة ذاتها بالفعل، بل إنها أفضل من سابقتها.

ردت عليها منـذورة في غلظـة: ومـا أدراكِ؟ هل رأيتها بـأم عينيكِ هاتين؟

قالت وجيدة وقد تغيرت ملامح وجهها: ما أكثر مَن يمتلكون أبصارًا حادة.

منذورة: ما الذي تقصديه بقولك هذا يا وجيدة؟

قـالت أمي: لا تقصـد شيئًـا يـا منـذورة، صلـوا علـى الحبيب.

منذورة: عليه الصلاة والسلام، لكني أفهم ما تقصده.

قالت السيدة كاملة، زوجة الشيخ: انتهينا. اقفلي فمك أنتِ وهي.

أدارت منذورة وجهها إلى الناحية الأخرى، فظهر أنفها الطويل أكثر طولا. تنهدت ومطَّت شفتيها، ثم قالت بعد هنيهة:

- لم أقصد أن أهينها، كلنا أخوات. ثم ربتت على كتف وجيدة في حنو وعطف.

وضعت "ثريا" يديها في وسطها، وابتدأت تمط شفتيها مثل والدتها بالضبط، عندما شمَّت رائحة معركة قد تنشب بين وجيدة وأمها.

ثريا فتاة طويلة بيضاء، تتعمد أن تُظهِر خصلة من شعرها المنسدل على جبينها؛ شعرها بني اللون مشرب بحمرة خفيفة، وعيناها خضراوان، لهما لون ثمرة الزيتون.

كنتُ أجلسُ على المصْطَبة أمام بيت بكير؛ أرقبُ الموقف وقد لاحظتُ تغير ملامح وجه وجيدة الذي بدا عليه الغضب في البداية، ثم ما لبث أن استعاد هدوءه. لو كانت فاكهة هنا لانتهى الموقف سريعًا، كانت ضحكتها المثيرة وتثنّي جسدها حين تتكلم، ونعومة صوتها سيؤلف قلوب النسوة كلهن ضدها. لقد اختفت فاكهة منذ عامين، وسافر "تعلب"، بعد تلك الحادثة الشهيرة إلى مصر، ولم يعد.. لم يكن أحد على علم بما فعله "علي المجبراتي" مع تعلب ليلة زفافه سواهما فقط، لكن جدتي كانت تقول إن ما تخبئه الصدور تكشفه الأيام. انتشر الخبر بعد سفر تعلب مباشرة وعلم الكبير والصغير بحكاية تلك الأعشاب المقوية للجنس التي طحنها تعلب جيدًا ودهن بها عضوه ليحصل على ليلة جيدة. يبدو أن السحر انقلب على الساحر وجاء الأمر بنتيجة عكسية تمامًا.

لم يتدخل البائع في الحوار الذي انتهى سريعًا، ورجعت بعده النساء إلى بعثرة الأقمشة بين أيديهن بينما كُن يتجاذبن أطراف الحديث، كأن شيئا لم يكن. اقتربت "راضية"، ابنة "علام النجَّار" من "ثريا" التي كانت تختبر نوعا شفّافًا من الأقمشة، أمسكت قطعة القماش من طرفها بينما أضحى الطرف الآخر في يد راضية التي مالت على صديقتها تهمس في أذنها. أطلقت ثريا ضحكة، بدأت صاخبة، لكنها سرعان ما كتمتها. من الواضح أنهما

تهامستا بشأن ذلك النوع من الأقمشة التي تخيطها الخالة فرحانة ملابس داخلية، وقمصان تحتية للنسوة والفتيات.

تمط منذورة شفتيها بين الحين والآخر. تعلّق على كل كلمة وهمسة تصدرها رفيقاتها، فلا ترى شيئًا في الحياة إلا وتنتقده. لم تعجبها أقمشة البائع وقررت أنها – بلا استثناء – رديئة، ولا تصلح إلا أكفانا للموتى. ذاك طبعها ولن يتغير، تتخلل عباراتها دومًا كلمات محددة مثل "الموت، الموتى، القبر، وكل ما يمت إلى تلك الكلمات بصلة. الله ربنا في عون زوجها الذي يعيش معها. هي أشهر "مُعَدّدَة" على الموتى في واحتنا والواحات المجاورة، يطلبونها في حالات الوفاة كي تقود جوقة النادبات. تُعدّد مناقب الميت ومحاسنه حتى إن لم تكن له محاسن. هي امرأة طويلة، جسدها ملفوف كجذع شجرة دوم، لها وجه مستطيل وأنف بارز.

أما زوجها "المعلم رزق"، فهو رجل قصير ممتلئ، أبيض البشرة، ذو شارب كث يغطي مساحة كبيرة من شفته العليا، وله حاجبان كثيفان أيضًا. رجل قليل الابتسام، صموت، قليل الكلام، برغم طول زوجته الواضح مقارنة به، إلا أنها تخشاه أكثر مما تخشى عفاريت الليل ولا تجرؤ أن تخالفه الرأي.

ثريا تُشبه والدتها في طولها الواضح وعينيها الجميلتين الثاقبتين. تمشي كأنها تهبط من منحدر، فيهتز نهداها الناهضين، ويتأرجح فوقهما عقد الخَرَز الملوّن الذي تتقلده.

كان نهداها حديث الأحاديث وأضحوكة الفتيان؛ فقد كانا مثل ثمرتي الليمون، لا يتناسبان أبدًا مع طولها. كنا نطلق عليها "عود القصب"، نظرا لنحافتها الزائدة. أما لو شاهدتها الآن، لا تملك إلا أن تقول سبحان مغير الأحوال؛ أضحت مهرة عَفيّة جامحة، ذات مؤخرة كاملة الاستدارة تقريبا. تُظهر جدائلها البُنية الطويلة على ظهرها. تمشي ولا تلتفت كأنها ملكة متوجة. لديها الكثير من الثقة، أو ربما من الغرور. حاول "بدر" ابن علام النجَّار أن يتقرب إليها. حاول حتى حفيت قدماه، لكن دون جدوى، برغم أنها صديقة أخته راضية.

يمتلك العم رزق سيارة نقل قديمة، كان قد اشتراها من ورش "السّبْتيَّة" بالقاهرة. سيارة شحن كبيرة ذات إطارات خلفية مزدوجة. اشترى عُمَد ومشايخ الواحات سيارات شبيهة بها، واستخدموها في نقل المسافرين من واحتنا إلى المناطق المجاورة ونقل البضائع والمواد التموينية التي تدعمها الحكومة.

عاد لمعي من حيث أتي بعد أن باع ما باع نقدًا، وأمهل غير القادرات إلى زيارته المقبلة. امتطى حماره بعد أن ساعده العم بكير في ذلك؛ أوقف له الحمار بموازاة المصطبة التي صعد عليها البائع ليركب. لم يعد وزنه، ولا سنَّه يسمحان له بامتطاء الحمار من قفزة واحدة كما كان يفعل في شبابه.

سيكون وراء الخالة فرحانة عمل طويل، حتى تنتهي من خياطة سراويل الرجال وجلابيبهم، وطواقيهم البيضاء، سيكون عليها أن تخيط أثواب النساء والفتيات، وملابسهن الداخلية الناعمة التي اختاروا لها أقمشة خاصة ذات ألوان محددة، وقبل كل ذلك ستخيط جلابيب بيضاء للأطفال الذين سيتم ختانهم بعد أسابيع.

7

في الحقل

عندما خـرجتُ من البيت، كـان الهـواء يشـاكس جـريد النخل، فيهتز هنا وهنـاك مُحدثًا صوتًا مُحبَّبًا إلى الآذان. كانت الشمس قد غادرت بيتها المختبئ خلف الهضبة، وأرسلت أشعتها الواهنة لتوقظ الكائنات. وقفتُ قليلاً أمام الباب أتمطى وأتثاءب بصوت مسموع. تلفّتُ في الزقاق يمنة ويسرة، ما من أحد سوى جارتنا السيدة وجيدة العمياء، تكنس أمام بيتها بمكنسة من خوص النخل. تلك المرأة، تمتلك قوة داخلية غريبة، فهي تحفظ كل شبر في بيتها وتؤدي أعمالها بمهارة ودقة. تزورها، في بعض الأحيان، "راضية" ابنة علام النجار، لتساعدها في أعمال البيت. قبل أن أفتح فمي كانت العمة وجيدة تبادرني بالتحية:

"صباحين وعافية" يا حسين. حفظك الله يا ولدي".

- صباحك خير يا عمة، أين عبدون؟

- سبقك إلى الحقل.

قالت بينما تزين وجهها ابتسامتها المُحببة.

كان البط قد بدأ بالفعل في نقر الطين من أمام البيوت وهو يمرح في جماعات. يضرب الهواء بأجنحته ويتقافز هنا وهناك. انتصر على كسله وخرج يستقبل النهار. قلتُ في نفسي إن البط لمحظوظ، فقد خُلق ليلعب ويمرح ولم يكن مرغمًا، في يوم من الأيام، أن يعمل في الحقل تحت قيظ الشمس.. منذ أن سافر أبي إلى القاهرة، وأنا أذهب إلى الحقل يوميًا لأؤدي نفس الأعمال.

في الزقاق، تحركتُ بخطوات بطيئة، لأستنشق أكبر قدر من الهواء البارد قبل أن تسخن الشمس وتحيل الجو جحيمًا لا يطاق. أنا أستفيق بصعوبة، والمشي في تلك الحالة ينفعني بالتأكيد. حين قاربتُ على آخر الزقاق، رأيت حمودة، يقف أمام البيت. كان شعر رأسه مبتلاً وقطرات المياه ما تزال عالقة بوجهه. ألقيت عليه التحية:

– صباح الخير يا ولد يا حمودة.

– ولد في عينك. صباح الخير على كل حال، برغم أنك لا تستأهلها.

قال وهو يرفع طرف جلبابه ويمسح وجهه من أثر الماء.

– أنا أمزح معك يا أخي، هل ضربك العم بركات هذا الصباح؟

– حاولت أمي إيقاظه فأبَى، وأخبرها أنه متعب ولن يخرج اليوم، وهذا معناه أن أتكرَّم أنا بالذهاب إلى الحقل.

- إذن لا منـاص من أن تتكـرم أنت وتذهـب، وسنلتقي هناك، سوف أعد لك شايًا بيديَّ هاتين، في وقت الضحى.

- وأنـا سـأشـربه على مضض. ها .. هـا، نهارك أبيض يا حسين.

- نهارك قشدة يا ابن بركات.

قلتُ وأنا أرفع يدي بالتحية، ثم انصرفت.

عندما رأيتُ حمار " فاضل الحَلاّق" يتهادى أمامي، ويثير خلفه غبارًا، أدركتُ أن اليـوم هو الجمعة. كان الحمار يهش بذيله اتقاء الذباب الذي يطير في دوائر حول إسته. يركب العم فـاضل ثم يترك الأمـر بـرمته للحمـار، لا يقـوده ولا يـوجهه، فالحمـار يعرف الطريق جيدًا، لـدرجة أنه يستطيع أن يسير مغمض العينين ولا يتعثر. يمشي بصـاحبه حتى يتوقف في ظلال الأشجـار التي تنتظم في صف طويل، داخل سياج بستان العم رزق.

يـأتي الحلاق مبكرًا في نهـاية كل أسـبوع ولا يقفل عـائدا إلا قبيل المغرب. يعمل مقصه ومـاكينته في رؤوس الخلق. وقبيل الظهر بلحظات، يضع أدواتـه بعنـايـة في الحقيبـة الجلدية السوداء، ثم ينصرف إلى المسجد.

ينتظـره النـاس خارج المسجـد، عقـب انتهـاء الصـلاة. يتصـافحـون بـاسمين، وحين يضـع العم فـاضل قـدمه في الخارج، يسارعـون إليه، يجـذبونه مـن يده، يحـاول كل منهم أن يصطحبه إلى منزله:

"تفضل معي"، يقول أحدهم.

- إلى أين؟، سينزل ضيفًا عندي، لا مناص من ذلك"، يرد آخر.

- لا، لا، لقد أخبرتهم في البيت أنه قادم معي.

- لن يذهب معك ولا معه، سيأتي معي.

هكذا يستمر الجدال، ثم يتنازل الجميع لواحد منهم، يصطحب معه الحلاق إلى البيت. لا يأخذ الحلاقُ مالاً نظير عمله، فله حِصّته التي يحصل عليها من المحاصيل في كل موسم؛ حِصّة متفق عليها منذ زمن.

حدَّثني أبي، ذات يوم، قال: "ظل عباس، والد فاضل، يأتي كل جمعة يحلق للناس، مصطحبًا معه ابنه فاضل وهو لا يزال صبيًا. يجلس الفتى، ليبصر والدهُ وهو يعمل. بعد سنوات، غاب عباس وجاء ابنه فاضل بنفس الحقيبة السوداء ليكمل ما بدأه. يحلق رؤوس الخلق، وفي موسم الحصاد، يدور على الحقول حقلاً فحقلاً، فما أن يظهر عند رأس الحقل مشيرًا بيده وملقيًا السلام، حتى يهرع إليه صاحب الحقل محييًا، ثم يجزل له العطاء، حتى يقسم بأغلظ الأيمان أن كفى، فهذا كثير. يعود بعدئذ إلى داره راضيًا قرير العين.

توقف الحمار في ظل الأشجار. ترجل عنه الحلاق في قفزة رشيقة، ثم سحبه خلفه عدة خطوات. الجريدة

الخضراء التي يعقد فيها رسَن حماره كل أسبوع، تتدلّى من سياج البستان وقد انثنى طرفها وذبلت. رأيتُ الجريدة تهتز من جراء نسمة هواء خفيفة، كأنها تحييه. العم فاضل رجل حسن الهندام، يرتدي جلبابًا نظيفًا على الدوام. يعتمر "طاقية" بيضاء، شاربه مقصوص بعناية وذقنه حليقة. ينتعل حذاءً جلديًا، يخلعه ويضعه جانبًا حين يبدأ العمل فتظهر قدماه نظيفتين كأنه طفل حديث الولادة. كنت قد اقتربت منه بما يكفي لإلقاء التحية:

- "صباح الخير يا عم فاضل". قلت.

أجاب العم فاضل: صباحك خير وعافية يا بني، إلى أين؟

قلتُ: إلى الحظيرة، ثم إلى الحقل.

قال: معك اللّه يا حسين، ما أخبار والدك؟

قلت: بخير والحمد للّه. لم لا تضع علفًا أمام حمارك؛ فاليوم ما زال في أوله؟

قال: يفرجها الكريم، يا ولدي.

قلتُ: الخير كثير يا عم، سأحضر له حزمة برسيم في الحال.

قال: شكرا لك يا بني. متى سيعود والدك من السفر؟

قلتُ: أرسل إلينا خطابًا، منذ شهر مضى، مع عوض، ربما يصل اليوم أو غدًا.

قال: أمانة عليك أن تبلغه سلامي حين يصل، كم أفتقده.

قلت: لا أراك اللّه مكروهًا يا عم.

❖ ❖ ❖

انطلقتُ قاصدًا الحظيرة. كنتُ أسير في زقاق الطاحونة الظليل مستمتعًا ببقايا نسائم الليلة الفائتة، بينما تناهى إلى مسمعي أصوات متداخلة للحيوانات في الحظائر القريبة. دخلتُ الحظيرة.. هرولتُ هنا وهناك.. قمت بواجباتي كما ينبغي، ثم قصدتُ مَرْبَط "العِجل" الصغير. فككتُ قيده وفتحتُ له الباب فاندفع الصغير أسفل ضرع أمه المليء باللبن يضربه ويمصّه في لهفة وهو يحرك قائمتيه الخلفيتين ويهش بذيله.. جلستُ لأحلب بينما كان بطن البقرة يلامس خدي الأيسر بين فينة وأخرى فأحِسُّ بدفء جسدها وأشعر باتصال ما بيني وبينها.. منذ شهر مضى رآها العم بركات وقد انتفخ بطنها وامتلأ ضرعها. دار حولها ثم قال: "تلك البقرة ستلد خلال أيام يا حسين، أرى ألا تتركها هنا. إذا ولَدَت بليلٍ قد يأكل الضباع مولودها. اسحبها اليوم خلفك، اربطها في الحظيرة، ولا تنسَ أن تقصِّر من رسنها قليلاً حتى لا تبتلع مشيمتها بعد أن تلد".

اعتدنا أن نترك الأبقار قرب زراعات الذرة والبرسيم في فصل الصيف؛ ندق أوتادها لترعى الحشائش التي تنمو على حافات المصارف وعند رؤوس الحقول وأطرافها، وفي

الشتاء نحبسها في الحظائر القريبة من البيوت درءًا للبرد.. سحبتُ العِجْل الصغير المتشبث بضرع أمه، فتململ محاولاً المقاومة. سحبته عنوة من مقوده وقيدتُه في قائمة البقرة اليمنى كي يظل ذلك الصغير إلى جوارها وأنا أحلبها. لا أستطيع أن أحلبها إلا إذا كان وليدها ملتصقًا بها. وضعتُ "مَحْلَب" اللبن بين ركبتيّ، بعد أن غسلتُ ضرعَها جيدًا ونظفته بما في "المحلب" من ماء... كان العجل يرفس الأرض ويهزّ رأسه الصغير وهو ينظر إليَّ كأنه يهددنني بالابتعاد، وأنا أدفعه بعيدًا في رفق. أخذتُ ما يكفي من اللبن وفككتُ مقود العجل، ثم تركته يرتع كيف يشاء... ملأتُ محيط ذراعيَّ علفًا وألقيته أمام البقرة. ما أن رأى الحمار ذلك حتى شرع في نهيق متواصل: "صبرًا أيها المتسرع، أنت تعرف أني لن أنساك"، هكذا حدثتُ حماري بصوت مسموع وأنا أبتسم. أنا أحب هذا الحمار وأعزَّه، منذ أن أشتراه لي والدي من "فوزي"، بائع الحمير.

قال فوزي: "لقد أهديتك حمارًا سريعًا، لكن لابد أن تعلفه جيدًا". هآنذا آخذ بالنصيحة فلا أبخل عليه. وكلما ألقيتُ أمامه حزمة من البرسيم، أربت على ظهره قائلاً: "كُل يا حماري، تغذَّ جيدًا ولا تدع حمارًا آخر يسبقك". لم يخذلني الحمار يومًا؛ كأنه كان يسمعني.

كانت الشمس قد فرشت المكان. وضعتُ "البرذعة" فوق ظهر الحمار، وشددتُ رباطها على بطنه، ثم سحبته ورائي

وخرجتُ.. لقد تأخرتُ بالفعل. لقد سبقني الأصدقاء إلى الحقل. حتمًا سينجزون أعمالهم قبلي، بينما تسخن الشمس فوق رأسي. يسيل العرق المالح من جبهتي، وتسقط نقطة في عيني. أغرس المنجل في الأرض. أرفع طرف جلبابي وأدعك عينيَّ لاعنًا اليوم الذي صار فيه أبي فلاحًا.. يتبقى أن أقطع زقاق الطاحونة عائدًا لأعطي العم فاضل حزمة البرسيم التي وعدته بها، ثم أعرج على البيت لأسلّم "محلب" اللبن لأمي يدًا بيد. ستعلّقه في "الخطّاف" الحديدي المتدلي من السقف وأطير بعدها إلى الحقل.

ضربتُ الحمار على مؤخرته بعصا في يدي، أستحثه على الإسراع. فانطلق في الزقاق المفروش بروث الأبقار والحمير والأغنام. حين تخطيت ساحة المسجد كان الدخان الأزرق يخرج من كوات صغيرة في أسقف البيوت ناشرًا رائحة الطعام والخبيز، وراسمًا أشجارًا وحيوانات ذات أحجام مختلفة في فضاء الواحة. كان البط لا يزال يمرح في الزقاق، ينقر الطين ويرفرف بأجنحته. يبدو أن الحمار قد شعر بتوتري، فانطلق مسرعًا دون توجيه.

حميت الشمس في الطريق، أخرجت "شَمْسيَّة الخوص". وضعتُها فوق رأسي، وأنا أزفر زفرة يأس قائلاً في نفسي: "حتمًا سيؤدي الرفاق أعمالهم في الحقل قبلي".

المسافة بين البيوت والحقول بعيدة. قطعتُها بحماري السريع في نحو نصف الساعة.

حين أصبحتُ على مشارف الحقول امتلأت أنفي برائحة النباتات العطرية التي تنمو تلقائيًا على جانبي الطريق. دخلتُ في ممشى طويل، بين بساتين النخل وأشجار الفاكهة تحف به من الجانبين أشجار الكافور الباسقة صانعة بساطًا متواصلاً من الظلال الكثيفة. نهق حماري في انعطاف الممر وتردد صدى نهيقه في المكان، فردت تحيّته الحمير الأخرى من أماكن متفرقة.

تركتُ الأمر لحماري المبرمج تلقائيًا والذي بدأ يتوقف بين حين وآخر، كي يشم روثًا طازجًا مبعثرًا في الطريق يرفع بعدها رأسه عاليًا، مستنشقًا كل ما علق بأنفه من رائحة. كنتُ مستسلمًا للظلال الوثيرة التي تخيم على الممشى الذي تحفه حشائش "الحلفا" وبعض النبات العطرية على الجانبين. حاولتُ أن أستمتع بالظلال والروائح الذكية قدر طاقتي قبل أن يبدأ برنامج العمل الممل.

بعد أن انتهيتُ من العمل، جلستُ أستريح قليلاً في ظل شجرة الليمون التي أحبها كما أحب أصدقائي تمامًا. كان العَرَق يقطر من جبهتي ويسيل على خدي في خطين، ليتجمع عند ذقني التي نبتت بها شعيرات صغيرة أعتز بها، وأتأملها في مرآتي الصغيرة بين الحين والآخر.. هذه الشجرة غرستُها بيديّ، والفضل في ذلك يرجع لأبي الذي سمح لي أن أفعل ذلك، بينما كان يقوم بغرس بعض الأشجار. ما زلت أذكر نبرة صوته الدافئ حين قال:" تنشأ

بين أحدنا وبين الشجرة التي يغرسها بيديه علاقة متينة، لدرجة أنه يشعر بها وتشعر به". كان يقول ذلك بينما يتحسس بعض وريقات الشجرة التي انتهى من غرسها.. كان أبي محقًّا في قوله ذاك، وإني أكاد أجزم أن للأشجار قلبًا ينبض مثل البشر.. أستطيع أن أعرف حال شجرتي هذه من أوراقها التي أراها لامعة أحيانًا ومنطفئة أحيانًا أخرى، مزدهرة أو ذابلة، أتحسس أوراقها وأمرر أطراف أصابعي على ساقها فأشعر ببهجة بالغة، وفي يوم الريّ أبالغ في ريّها، وأتمنى أن أظل أرويها من مطلع الشمس حتى مغربها.

عندما التفتُّ، لمحت سليمان يمرُّ عند رأس الحقل: "أنت تمر في الوقت المناسب يا صديقي، لأني في كل الأحوال كنت سأنتظر أن يمر أحد كي يعينني على حمل "القُفّتين"؛ لن استطيع أن أرفع إحداهما على ظهري منفردًا"، قلت في نفسي.

كنت أقفُ إلى جوار أبي، في المكان ذاته الذي أقف فيه الآن، بعد أن انتهى من ملء القفتين برسيمًا. تلفَّت أبي يمينًا ويسارًا فلم يجد أحدًا يعينه على رفع الحِمل على ظهر الحمار، فما كان منه إلا أن أوثق القفتين إلى بعضهما وطلب مني أن أمسك بمقود الحمار، وأحاول ألا أجعله يتحرك من مكانه كي يتمكن من وضعهما على ظهره بأمان. لم يكن أبي واثقًا أنه يستطيع فعل ذلك بمفرده، لكنه حاول؛

رفع إحداهما فوق الأخرى، جثا على ركبتيه، ثم نزل بكتفه اليمنى بينهما، فأصبحت واحدة على ظهره والأخرى ما زالت أمامه على الأرض وحبل الليف يوثق عُرى القفتين جيدًا.

حاول أبي أن يعتدل بهما قائمًا، لكنه لم يستطع. حاول مرة أخرى وفشل، فطلب مساعدتي في رفع "القُفّة" الأمامية، ففعلت.. حينئذ، نجح في وضع الحِمْل على ظهر الحمار بعد أن أجهده التعب. شكرني بعدها قائلا: "لولاك لما استطعت أن أرفعهما يا بطل، أرني ذراعيك". كشفتُ عن ذراعيّ فقال: "هووه، كم أنت قوي". دخلتُ البيت يومها وأنا أتمايل فخرًا وتيهًا. وحكيت لوالدتي عن بطولاتي مع أبي.

ألقيتُ "بالمنجَلْ"، عندما مر سليمان، ووقفتُ رافعًا يدي اليمنى وزاعقًا: "يا سليمان، أقبِلْ"، وعندما انتبه لوجودي، أشرتُ إلى "القُفَّتين"، ففهم الأمر وجاء مسرعًا.

انحنى سليمان وأمسك "القُفَّة" من مقبضيها الجانبيتين، ورفعها معي وهو يقول "يا قويّ"، فكانت فوق ظهري. سرتُ خطوتين ثم التفتُّ إلى الخلف:

" انتظر قليلاً، سأعود لآخذ الثانية". قُلتُ.

قال سليمان ضاحكًا: بالطبع سأنتظر، هل هناك مفر؟

لمحتني البقرة قادمًا فهزت رأسها وهشَّت بذيلها، ودارت حول الوتد المدقوق في ظل الشجرة عدة دورات، فقلت لها: "صبرًا، صبرًا. ستأكلين الآن".

كان سليمان منتظرًا في حرّ الشمس، وعندما عُدتُ قال:

- أسرع يا رجل، كدت أذوب من الحر هُنا. رفع يده ومسح العرق الذي سال فوق جبينه بكم جلبابه.

- هيا بنا، سوف أعد شايًا. حمودة سينضم إلينا الآن. لنشرب الشاي أولا، ثم نتحرك إلى البلدة مباشرة. حتما، بدأ العم فاضل حكاياته الجميلة.

- أنت لا تسأم من كثرة الحكايات؟ ألا يكفيك ما تقرأه في كتب أبي؟

- لا يا سليمان، منذ أن رغَّبَني الشيخ في القراءة، وأنا أجدها عالمًا واسعًا لا ينتهي، فكلما قرأت؛ أدركت أنني لا أعرف شيئًا.

"أمرك غريب".

قال سليمان، وهو يضرب كفا بكف.

- ربما يبدو الأمر غريبًا عن بُعد.

جلسنا في ظل شجرة الكافور التي على رأس الحقل. كَسَّر سليمان بعض الحطب، وضعه في الموقد الطيني وأشعل فيه النار. أنا أحضرت السخَّان النحاسي، بعد أن ملأته بالمياه ووضعته فوق ألسنة النار، ثم وقفتُ متوجهًا ناحية حقل العم بركات. وضعتُ يديَّ مثل بوق حول فمي، ثم صرخت: "يا حمووودة.. يا حمووودة"، وجاءني الرد من بعيد "قاااادم. . قاادم".

وصل حمودة بينما كان الشاي يغلي في السخّان، وكنتُ أمام النار ألقمها حطبًا وأدعك عينيَّ من أثر الدخان:

قال حمودة آمرًا: الشاي يا ولد.

قلتُ مبتسمًا، ومنحنيًا في ارتباك مُصطنع: أمرك يا مولاي.

جلس حمودة وهو يتأوه: " آاااه".

سأله سليمان: ما بك؟

أجاب: مرهق أنا يا صديقي. منذ أن طلع الصبح، وأنا منكفئ على العمل حتى انحنى ظهري، وأبي نائم في البيت لا يحرك ساكنًا.

قلتُ مشاكسًا: مَن أخبرك أنه لا يحرك ساكنًا هناك، هل انكشفت عنك الحُجُب؟

قال حمودة في تحد: وماذا سيفعل في ظنك؟

قلتُ: "ربما يغني، يدخن، يشاكس أهله، يستحم مثلاً".

تدخل سليمان، ليمنعنا من الانجراف في جدال يعرف أنه سيؤدي آخر الأمر إلى إغضاب أحدنا: إما أنا، وإما حمودة فقال: كفاكما، تعرفان أن اليوم هو الجمعة. لابد أنه يجلس الآن عند الحلاق، تحت الظلال الباردة، ينتظر دوره ليحلق.

قلتُ: كل شيء ممكن.

نهق حمار عبدون في الجوار، بينما نحتسي الشاي. ميَّز حمودة صوتَه الرفيع، ونهيقه المتصل وقبل أن ينتهي من

نهيقه كان حماري يرد له التحية. أنصَت حمودة لحظة، ثم قال:

- عبدون.. الحمار.

وضحكنا، لكنه استدرك بسرعة:

- أقصد ذاك حمار عبدون الذي ينهق.

قال سليمان مُبتسمًا: نعم، نعرف قصدك يا خبيث.

قلتُ: بهذه المناسبة، لماذا لا ندعو عبدون لتناول الشاي معنا؟

قال حمودة وهو يمد قدميه: ولماذا لا تدعوه بنفسك؟ أنت صاحب الضيافة اليوم.

قلتُ: هذا صحيح، سوف أدعوه الآن. لكن ماذا يفعل عبدون في الجوار؟

قال سليمان: "يروي أرض عم رزق.. لابد أنه يدير الساقية الآن ولن يستطيع المجيء.

قال حمودة: سيأتي، برغم انهماكه في العمل، سترى الآن، هيا قم وازعق عليه يا حسين.

قمت بالفعل، وزعقت بأعلى صوتي: "يااا عبدوووون، يااا عبدوووون"، فتردد صدى صوتي بين الأشجار، وسمعناه يلبي من بعيد: "هوووه، أنا قاااادم".

جاء عبدون، بعد قليل، يدب الأرض بقدميه الكبيرتين، معتمرًا "شَمَسيّة" من الخوص فوق رأسه اتقاءً للحر، وطرف

ثوبه معقود فوق خاصرته، وسرواله الطويل ملطخ ببقع طينية جففتها حرارة الشمس:

- السلام عليكم، هل لي بشربة ماء؟

أجاب حمودة على الفور:

- ألا ترى الماء أمام عينيك، أم أصابك بالعمى؟

قلتُ: آه منك، ردّك جاهز.

قال سليمان: لابد أنك قد قاربت على الانتهاء من ري الأرض.

حينما جلس عبدون، وثنى قدميه تحت وركيه، ظهرت الشقوق واضحة في كعبيه... لا يهتم عبدون بهيئته. جلبابه متسخ على الدوام، وشعره الأشعث يرتفع فوق رأسه مثل شجرة برية متوحشة. لقد سئمت من كثرة ما تحدثت معه في ذلك الشأن. أقول له " يا بني، شقوق قدميك يمكن أن تختبئ فيها الحشرات والهوام، ألا تخشى أن تجرح مَن تصافحه بكفيك الخشنتين؟" فيضحك بطيبته المعهودة قائلاً "أنا هكذا، لن أتغير". ثم يضيف " ما أدراك أنت يا جاهل، الفتيات يعشقنني لأنني هكذا"، فأبادره: "هل تقصد راضية؟"

فينظر لي، ثم يضحك، ولا يريحني بإجابة شافية.

صمت عبدون قليلاً ثم قال:

- ما زال الوقت مبكرًا على الانتهاء من ريّ الأرض؛ المياه تأبى التحرك، كأنها تحتاج إلى مَن يدفعها دفعًا، يبدو أن مياه النبع آخذة في النضوب.

سأله حمودة مستهزئًا: كيف عرفت ذلك يا ناصح؟

قلتُ: بالفعل يا حمودة، إن كلامه صحيح. ألم تر حَدَّ المياه في القناة الرئيسية التي تخرج من النبع؟ لقد انخفضت العلامة فيها ما يقرب من نصف إصبع.

قال حمودة، مُحددًا بإبهامه طرف سبابته: عقلة إصبع، تلك مسافة هيِّنة.

قال سليمان: لا، ليست قليلة. ألم تلاحظوا أن مساحة الأرض المنزرعة هذا العام قد تقلصت؟

قلتُ: بلى، بالإضافة إلى تباعد دورة المياه. كنتُ أروي أرضنا كل عشرة أيام، والآن أرويها كل خمسة عشر يومًا.

بدت على حمودة أمارات الجد والاهتمام، وانخفض صوته الذي لا ينخفض أبدًا:

- ما الذي سيصير إليه الأمر يا ترى؟

قال سليمان: بحسب الاجتماع الذي حضرناه جميعًا منذ يومين، سوف نلجأ إلى المعلم سعيد الحفَّار، ولن ننتظر رد الحكومة على الخطابات الكثيرة التي أرسلها أبي دون جدوى.

قلتُ: أرى ألا ننتظر عودة سيارة المعلم رزق من السفر. لم لا نذهب إلى المعلم سعيد على الدواب؟ المسافة بعيدة حقًّا، لكن للضرورة أحكام.

قال حمودة: هل تظن أنه سيؤخَذ برأيك؟

قلتُ: ولم لا؟ إن الشيخ منطوق يستمع إلى الكبير والصغير. ثم، من أدراك، فربما قلتُ رأيًا مُهمًا.

كان عبدون يجلس معنا، لكني شعرت أن جسده فقط هو الحاضر. كان ينظر في الناحية الأخرى، كأنه ينصت إلى صوت بعيد.

سألته: ما بك يا عبدون؟"

قال: الكلاب.

لم يزد على تلك الكلمة حرفًا واحدًا.

أرهفنا السمع، كان نباح كلاب يأتي من الجهة الشرقية.. بعد هنيهة، ظهرت غير بعيد مجموعة من الكلاب الضخمة، تطارد كلبا هزيلا يحاول جاهدًا أن يهرب منهم. مروا في سرعة خاطفة على مقربة منا فسمعنا لهاث أنفاسهم ثم اختفوا خلف الأشجار مخلفين ورائهم خطًّا من الغبار.

"سيلحقون به بعد لحظات، ثم يشبعونه تمزيقًا"، قال عبدون وهو يهز قبضته، مؤكدًا على كل كلمة يقولها.

عبدون يكره الكلاب مثلما يكره العمى، ما أن يرى كلبًا حتى ينقضّ هاجمًا عليه، فإن فر الكلب - وهذا ما يحدث غالبًا - فإنه يلاحقه بالحجارة حتى يختفي عن ناظريه. وبرغم أننا حذرناه من ذلك، وأخبرناه أنه كبر على تلك الأمور لكنه لم ينته... كانت لعبدون حادثة مؤسفة مع الكلاب في طفولته أثّرت عليه زمنًا.

سمعنا صوت الكلب الضعيف، بعد لحظة، يئن، بينما الكلاب الأخرى تزمجر.

قال عبدون: ألم أقل لكم؟

ثم هبّ واقفًا واندفع باتجاه الصوت.

قال حمودة: اشرب الشاي أولاً، ثم العب مع أحبائك فيما بعد.

لكن عبدون لم يسمعه؛ كان قد اختفى بين الأشجار.

هذا الـ "حمودة" حاضر البديهة، لا يكف عن السخرية، كلامه يُضحك طوب الأرض، خفيف الحركة، ويُعتمد عليه في اللحظات الجادة. لم يترك صغيرة ولا كبيرة في صفات والده إلا ورثها عنه.

عاد عبدون بعد لحظات وهو يلهث، تاركًا جسده يسقط في الظل. قال، وصدره ما زال يصعد ويهبط:

- لم أتركهم حتى تفرقوا؛ هربوا كالجرذان، الكلاب أولاد الكلاب.

قال وهو يضم قبضتيه بغلّ واضح.

قال سليمان مبتسمًا: ماذا حل بالكلب المسكين؟

قال عبدون: انزوى وحيدا في الظل، متأثرا بجراحه فتركته لحاله.

قال حمودة بصوت لا يخلو من خُبث: لا بد أنه ممتن لك، فقد أنقذته.

قال عبدون: بالتأكيد.

سأله حمودة: هل أخبرك بامتنانه؟

أجاب ضاحكًا: إن أردت أن تعرف اذهب واسأله.

ضحكنا بصوت عال نكاية في حمودة.

قال سليمان: ألا نستطيع أن نتحدث بجدية دون هذا العبث؟

قلتُ: فعلا، نريد أن نلحق بالحلاق قبل الصلاة، فاليوم هو الجمعة كما تعلمون.

قال عبدون وقد بدا عليه الهم: كما أنني سأعود عصرًا لأدير الساقية.

سأله حمودة: ماذا كنت تفعل منذ أن أشرقت شمس الله؟

أجاب: كنت أروي الأرض البحرية، فهي لا تحتاج إلى رفع بالساقية. لكن المياه قليلة. لقد ذقت المرارة منذ الصبح، ولم أنته بعد.

قلنا جميعًا: معك الله.

قال حمودة: هيا، قم بنا يا سليمان قبل أن تشتد وطأة الحر، فالرمال ساخنة وأقدامنا حافية.

قلتُ مُحاولاً أن أغيظه: حقًّا؟ اذهب يا مسكين قبل أن تكتوي أقدامك الرقيقة من لسع الرمال؛ نحن الرجال لا نشعر بحرارتها إطلاقا - كُنْ جَلدًا يا بُنَي.

قال حمودة وهو يهم بالابتعاد عني: بالطبع، هل تعرف لماذا لا تشعر بحرارتها؟

قلت مستفسرا: لماذا يا فصيح؟

قال: لأن قدميك ليست كأقدام البشر، هما حافران، كحافريّ حماري.

قال حمودة ذلك، وانخرط في الضحك. تناولتُ طوبة من الأرض وهممتُ أن أقذفه بها، فأطلق ساقيه وفرَّ هاربا من أمامي.

نهق حماري معلنًا عن وصوله، ودبّ فيه النشاط فجأة فاتسعت خطوته. ربما أحس أن المشوار قد انتهى، وربما حاول أيضًا أن يستعرض قوته أمام الجمع الذين يجلسون الآن في ظل أشجار الكافور.

ترجّلتُ عن الحمار وسحبته خلفي، وحين حاذيتُ الجلوس ألقيتُ عليهم السلام. ثم وثبتُ على حماري ثانية بعد أن تجاوزتهم بمسافة كافية.. جميعنا يفعل ذلك؛ فمن

العيب أن أمرّ راكبًا حماري بينما الجلوس جميعهم في مقام والدي. اندفع بي الحمار ناحية البيت في نشاط دون أن أوجهه أو أستحثه على الجري.

أمام بيت حمودة، كان الأطفال يلعبون تحت شجرة التوت. الأرض أسفل الشجرة مُقسَّمة إلى أحواض صغيرة، تمر بينها قنوات متعرجة. أثوابهم الباهتة تحمل كل قذارة الزقاق، مما يدل على أنهم يلعبون منذ فترة طويلة. اخترقت أصوات عراكهم أذنيّ قبل أن أصل إلى ملعبهم الصغير لأرى ماذا يجري: "ماذا يجري هنا، لماذا تتصايحون هكذا يا أولاد؟"، ألقيت عليهم السؤال، دون أن أسمّي أحدًا، فتطوع أحدهم بالرد: "انظر يا عم حسين: الأرض مقسمة بالتساوي، وهذا يريد أن يحصل على حصة من المياه أكثر من الجميع". فكرتُ لحظة ثم قلت: "ما دامت أراضيكم متساوية، فلابد أن تُقَسّم حصة المياه بينكم بالتساوي"، فقالوا في صوت واحد تقريبا: "هاه. هل صدَّقت؟". أومأ الطفل برأسه موافقًا، وهدأ الجو. نظرتُ إلى أراضيهم المغروسة بأفرع صغيرة جافة من شجرة التوت، وسألتهم: "ماذا تزرعون اليوم يا رجال؟". هبّوا في وجهي جميعًا ضاحكين: "نزرع قمحًا". قلت وأنا أشير بأصبعي محذرًا: "حتى لو قلَّت المياه، لابد أن نتعاون جميعًا كي تكفينا.. إياكم والعراك". أومأ الطفل موافقًا. وتنبهتُ إلى أمر مهم فقلت ناصحًا:

"اعلموا جيداً أن القمح لا يُزرع في فصل الصيف". ثم انصرفتُ وأنا أتذكر لهونا القديم عند دومة عنتر.

لم أكن قد وصلت إلى البيت عندما لمحتُ نافذة "عوض"، زوج "فطومة" مفتوحة، وستارة حمراء صغيرة تحجب ما بالداخل، تهدهدها نسمة هواء لا أدري من أين جاءت في هذا الجو الخانق. لأن عوض يكبرنا بعامين، فقد تزوج قبلنا جميعاً، بعد أن أمضى عامين في القاهرة قضاهما في عمل متواصل.

تلك الستارة الحمراء الصغيرة تلفت نظري. فكلما رأيتها، تتراقص أمام عيني مواقف لا يمكن أن أنساها.

قفلتُ عائداً إلى جلسة الحلاق. جلستُ مع الجالسين في ظل الأشجار المصطفة أمام بستان العم رزق. حقيبته الجلدية السوداء مفتوحة عن يمينه: حقيبة صغيرة مُبَطّنة من الداخل بقماش أبيض لامع، بداخلها فرشاة، معجون، عدة أمشاط، مقص كبير وآخر صغير وقطعة مستطيلة من جلد أسود يمرر عليها الموسي بين الحين والآخر. يجلس العم بركات أمامه وقد أحنى ظهره حتى كادت ذقنه تلامس الأرض.

الرجال الذين يعتمرون "الطواقي" مدى الحياة، لا نراهم حاسري الرؤوس إلا أيام الجُمَع. شعر العم بركات، والذي يعالجه الحلاق الآن، أسود لامع إلا عند فوديه، فقد غزاهما الشيب.

عندما جلستُ، كان العم بركات يستغيث:

"الرحمة يافاضل، كاد فمي يلتصق بالتراب".

تعمل مقص الحلاق في الرأس المنحني، ويده الأخرى توجّه تلك الرأس يمنة ويسرة، والعم بركات يتململ. في الجوار، نهق حمار الحلاق فقال بركات بسرعة:

- ألا تدري ماذا يقول الحمار يا فاضل؟

- ماذا يقول؟

- يقول لك ارحم الرجل الذي أمامك.

- وهل تفهم لغة الحمير؟

صمت الحلاق لحظة لم يُسمع خلالها سوى صوت المقص: "تك، تك"، ثم تذكر شيئًا فقال: "بمناسبة لغة الحمير تحضرني حكاية".

"هيا احك. لكن إياك أن تكون قد حكيتها من قبل"، قال بركات محذرًا.

- هل يشهد أحدكم بأنني أكرر الحكايات؟

- نعم تكرر الحكايات، لا، لا، نعم، تكرر، لا...

هكذا اختلطت الأصوات، وعلت الابتسامات على الوجوه. فاضل ينسى كثيرًا، ويمكن أن يقص الحكاية الواحدة أول النهار ثم يعيدها آخره.

- حسنا سأحكي لكم حكاية لم تحُطّ على أرض الواحة بعد.

- هيا إذن بسرعة، شنف آذاننا.

قال بركات وهو يضع سبابتيه في فتحتي أذنيه حتى لا يسمع.

وشرع الحلاق يحكي، حكاية كنا سمعناها من الخالة فرحانة قبلا، بينما مقصه لا تكف عن العبث في رؤوس الخلق كيفما اتفق:

"كان ياما كان، في سالف العصر والأوان، ولا يحلوّ الكلام، إلا بذكر النبيّ العدنان - وردد الجميع: "عليه الصلاة والسلام" - كان في أحد البلاد ملك كريم، وكان عنده وزير حكيم يجالسه ويؤانسه، ويستشيره في كل كبيرة وصغيرة، وبرغم كثرة مجالسيه، كان لا يثق إلا فيه، مما أوغر صدر المقربين، فدبروا له مكيدة ليكون من الهالكين. قالوا يا مليكنا وزيرك يغدق الأموال على أتباعه ويدبر لك، ليمكر بك، ويستثير الرعية ضدك، فلتأمره أن يذهب.. يبحث في البلاد، حتى يعثر على الحمار الذي يقرأ القرآن، ويحضره إليك. امتثل الملك، لأن خوفه أعماه، فقال: أيها الوزير، أمامك شهر حتى تحضر لي الحمار الذي يقرأ القرآن. خرج الوزير يستعد للسفر، وودع الأهل والأصحاب.. مشى، ومشى في بلاد الله، حتى قاربت المُدّة على الانقضاء. وكان على مشارف إحدى الواحات الصغيرة، فضرب خيمته، وأشعل النار، وجلس يندب حظه:" يا ويلي، يا ويلي، ألا من أحد يدلني على حمار يقرأ القرآن؟".

وتصادف أن كان رجل من أهل تلك الواحة يمرّ، فسمع الغريب يبكي بالدموع، فألقى عليه السلام، وعرف قصته من البداية للختام. وقال طلبك عندي، لكن اعطني مالاً لأحضر المطلوب، فأعطاه كل ما لديه من المال والحبوب. ذهب الرجل واشترى حمارًا في مقتبل العمر. ثم وضع أمامه منضدة واطئة، ووضع فوقها دفترًا كبيرًا، ثم وضع بين كل ورقة وأخرى حبة من الفول. شم الحمار الصغير الورقة الأولى، تحسسها بلسانه فانقلبت وظهرت حبّة الفول، فأكلها ثم تحسس الورقة الثانية، وظل يفعل ذلك في كل مرة؛ يلحس الورقة بلسانه فيجد تحتها حبة الفول فيأكلها، حتى أتى على آخر حبة. ظل الفلاح يُعَلّم الحمار حتى كان اليوم الأخير، فجاء ليخبر الوزير أن الحمار جاهز للسفر... عاد الفلاح والوزير، ومعهما الحمار. وصلا في اليوم الأخير، وقد احتشد الناس في الميدان الكبير ليشاهدوا الحمار الذي يقرأ القرآن.

خرج الملك ومعه الحاشية، وجيء بالمصحف، ووُضع على المنضدة أمام الحمار الذي ابتدأ –كما درّبَه الفلاح –في تقليب الأوراق، وفي كل مرة لا يجد حبة الفول فيقلب الصفحة التي تليها حتى وصل للصفحة الأخيرة، لكنه لم يجد حبات الفول التي اعتاد عليها فأخذ في نهيق متواصل ثم استدار. في تلك اللحظة، سأل الملكُ وزيره: "ماذا يقول الحمار أيها الوزير الكريم؟". فقال الوزير:"يقول صدق اللّه

العظيم". هنا ضحك الملك، وضحك الشعب من ورائه وأمر بجائزة كبيرة للوزير.

انتهى الحلاق بينما كان بركات يحكّ ذقنه الناعمة قائلاً:

- حكاية جميلة يا فاضل، ولكني أعتقد أنك حكيتها من قبل.

- لا، مستحيل.

قال فاضل وهو يرفع يده عاليًا، احتجاجًا على كلام بركات. - المُهم أننا استمتعنا وضحكنا، قال بكير.

- فعلا، كما ضحك الملك، وأدخل البهجة على قلوب رعيته بابتسامته.

قال الشيخ، ثم تابع كلماته الحكيمة التي أتلهف على سماعها منه:

"إذا ضحك الملك لابد أن يضحك الشعب، ومن يجرؤ على ألا يضحك إذا ضحك الملك، ما من ملك على وجه الأرض إلا وله عصبة تحبه وعُصبة تكرهه، لكنه إذا ضحك أو اغتم لابد أن يحذو حذوه الجميع". ضحكنا وضحك الحلاق، وضحك الأطفال الذي يجلسون على أطراف الحلقة، حتى أخي الصغير "شافع "، انقلب على ظهره من الضحك.

التفت الحلاق إلى بركات، وقد شعر بالنصر، قائلاً: تُرى يا بركات أيهم الأذكى: الفلاح الذي درَّب الحمار أم الوزير، أم الملك؟

لم يعط العم بركات نفسه فرصة للتفكير فأجاب على الفور: الحمار هو الأذكى طبعا يااا ذكي.

هنا ضحك الجمع وتصايحوا، فاهتزت الأشجار لضحكهم، وتضامن معهم حمار الحلاق، فنهق بصوته الحاد.

كان موعد أذان الظهر قد حان، عندما جمع الحلاق أدواته القليلة، وطوى حقيبته ثم طلب من أحد الأطفال أن يأتي له بإبريق ماء كي يتوضأ. انطلق الطفل وهو يكاد لا يلمس الأرض من شدة حرارة الرمال الصفراء، التي تعكس بعض حبيباتها ضوء الشمس وقت الظهيرة، فتلمع كأنها الذهب. بعد قليل، انفضّت الحلقة، وأنا قمت أنفض ما علق في مؤخرة الجلباب من قش ورمال، ثم أسرعت الخطى في اتجاه البيت لائذاً بظلال الحوائط.

ما أن وضعتُ يدي على بوابة البيت وهممتُ أن أدفعها لأدخل حتى لمحتُ البنت راضية - بطرف عيني - خارجة تهرول من بيت العمة وجيدة. رمقتني بنظرة سريعة رأيتُ فيها سحر عينيها الواسعتين. "أظنها ابتسَمَت لي"، قلت لنفسي بينما يدي اليمنى لا زالت عالقة على خشب البوابة. "ترى، هل السيدة وجيدة في الداخل؟". ثم كأني سمعت من يهمس في أذني قائلاً: "وعبدون أيضًا"..

أم عبدون امرأة عمياء. توفى زوجها "عبد الفضيل" منذ أقل من عام، وذلك بعد أن زاره الشيخ "سعد الله" - يرحمه

الله – في منامه، وقال له: "يا عبد الفضيل، اذهب إلى أرض "الحمراء"، المجاورة للمقابر، ستجد جريدة خضراء، مقطوعة من نخلتك -التي سوف تُثمر هذا العام- مغروسة هناك. ابنوا لي ضريحا مكانها، واضربوا حوله قُبّة بيضاء". أفاق الرجل من نومه على صوت العم "شُعَيب" يؤذن لصلاة الفجر. في اليوم الثاني والثالث، رأى نفس المنام، وفي كل مرة كان يستيقظ مع أذان الفجر. حكي عبد الفضيل للشيخ منطوق ما رآه خلال ثلاث ليال مضت، ثم ذهبا معًا إلى أرض الحمراء..

كانت هناك جريدة خضراء منتصبة، وسط أرض حمراء صلبة، تتخللها حجارة بيضاء وحصى صغير يلمع في ضوء الشمس حين تشرق. قرر الشيخ منطوق في الحال أن الرجل صاحب كرامات وسوف يكون له ما أراد..

حل موعد تلقيح النخل بعد بناء القُبة بأيام. طلع عبد الفضيل إحدى نخلتيه، ليضع اللقاح في قلب النخلة، لكن يده، التي يقبض بها على قَحف الجريدة، انزلقت، فهوى على الأرض.. اصطدمت رأسه في "ماجُور" العجين المنكفئ تحت النخلة، فمات في الحال.

نسيتُ يدي معلّقة على خشب البوابة وأنا أتابع راضية. خطواتها ضيقة، لكنها سريعة. تمشي فترتج مؤخرتها التي أذهبت عقولنا مع كل خطوة تخطوها. التَفَتَتْ فجأة عند منعطف الزقاق، ورأتني أقف كتمثال، أتأملها. لم أكن أتمنى

أن تراني وأنا أقفُ هكذا. دفعتُ البوابة بقوة فأحدثت صوتًا كالأنين. سمعَت أمي الصوت من الداخل فقالت بصوت مرتفع: "ها قد جاء حسين". كان أخي شافع يجلس عاريًا في الطست النحاسي الكبير، وأمي تسكب المياه على رأسه وجسده. ضم فخذيه، عندما لمحني، ووضع يديه على عضوه الصغير. كتمتُ ضحكة كادت أن تخرج لولا ستر الله؛ لو خرجت لبكى شافع في التو، حينئذ لن أقدر أن أرضيه.

جاء فاضل الحلاق في صبيحة يوم خميس، حسب الموعد المتفق عليه لختان الأطفال. لم يكن أخي شافع ولا أقرانه يعلمون بما يُدبَّر لهم في الخفاء. يبدو أنه شعر بشيء من الريبة، عندما رأى النساء يُقَلِّبْن في أقمشة البائع الجوَّال، خاصة تلك الأقمشة البيضاء التي ستحيكها الخالة "فرحانة" ملابس خاصة بيوم الختان، تخيطها ثم تطرزها بكلمات تقي من شر العين. اختفى شافع في ذلك اليوم. بحثتُ عنه عند أقرانه فلم أجده. كان مختبئًا في بيت الشيخ ظنًّا منه أن سليمان سوف يحميه من شفرة الحلاق التي ستقطع جزءًا من عضوه الصغير. حَمَلَه سليمان رغمًا عنه وجاء به إلى قدره المحتوم. لم يكفَّ يومها عن النحيب مستنجدًا بأبي الذي لم يكن موجودًا بيننا.

ارتفعت حرارة الجو بعد ظُهْر الجمعة أكثر مما هي عليه. ما من نسمة هواء تلوح في الأفق. يسيل العرق على

الأجساد، والرمال تحت الأقدام مثل جمرة متقدة؛ تمنح الواحة كل ما اختزنته من حرارة النهار.

كنتُ قد تناولتُ طعامي، وتجشأت كما يحلو لي. ثم مددتُ قدمي واستندتُ بظهري إلى الجدار. سمعت، بعد لحظات، طرقًا قويًا على بوابة البيت فعرفتُ أنه عبدون، فقد اعتاد أن يطرق أبواب أصدقائه بهذا الشكل المستفز، لكننا تعودنا على طريقته وانتهى الأمر. أسرع شافع يستقبله. شد البوابة الثقيلة بكل قوته فانفرجت قليلاً وهي تصر صريرًا عاليًا: "إنه عبدون"، زعق شافع.

قلت بصوت عال وأنا جالس مكاني: ادخل يا عبدون.

قال: سوف أسبقك إلى الحقل.

قلتُ: تعال استرخِ قليلاً؛ ما زالت الحرارة لا تُحْتَمل.

دخل عبدون وهو يصطنع سعالاً، ليعلم أهل البيت أنه قادم. أشرتُ إلى "بُرشْ" الخوص الذي أجلسُ عليه وأفسحتُ له مكانًا، ثم عرضتُ عليه أن يشرب شايًا فتمنّع وشكرني. ثم عدل عن رأيه بعد هنيهة ليطلب قدحًا من القهوة بدلاً من الشاي. كنتُ أعرف أن الأمر سيؤول إلى القهوة في الأخير، فهو يعشقها، كما أن أمي تجيد صنعها حسب زعم أصدقاء أبي وأصدقائي.

قال عبدون: أريد أن أنتهي من ري أرض عم رزق قبل غروب الشمس. أنت تعرف أن الضباع تهبط من الجبل ليلاً بحثًا عن طعامها.

قلتُ: سوف أكون معك، أنا وسليمان وربما حمودة أيضًا، ولو تأخرنا قليلاً، نشعل النار إلى جوارنا؛ الضباع تخاف من النار. أومأ عبدون برأسه موافقًا، فقلتُ مردفًا:

- ما الذي تخشاه وأنت تعلم أن الضباع لن تأكل لحمك أبدًا.

قال، وأمارات التعجب ترتسم على وجهه: لماذا؟

قلتُ مُمازحًا: لأنك لا تستحم يا رجل.

ضحك عبدون ملء شدقيه ثم رشف رشفات متمهلة من قدح القهوة... بعد قليل، طُرق الباب ثانية: طرقة واحدة، ثم طرقتين متتاليتين. هرول شافع متهلل الوجه وهو يقفز قفزات خفيفة نحو الباب ويصيح: "جاء سليمان، جاء سليمان".

8

يا ولـــد

تـاهت إلـى أذني طرقات خـافتـة على بـاب جارتـنا لـيلة أمـس. لم أكن قـد نمتً بعـد، عـندما سـمعتُ ثلاث طـرقات ضعيفة علـى باب العمّة وجيـدة، ثم طرقتين مـرتبكتين. كنت منبطحًا على فـراشي وأذناي تحولتا إلى طاقتين مفتوحتين. سـاد الصمت هنيهة، ثم سمعت صوت عبدون يقول: "مَن بـالبـاب؟"، وجاء الصوت مـرتبكًا خافتًا: "أنـا راضيـة". سار عبـدون نحـو البـاب وهـو يـدُبّ الأرض بقـدميه. قـدمـاه ضخمتان مثل جسده العفيّ.. مـرت لحظة قصيرة، تفتحت خلالها مسـامات جلدي وتحـولت إلى آذان، وسـمعتُ راضية تقول: هل تأذن لـي بالدخـول؟ قمت بسـرعة. فتحت البـوابة – حتى لا تشعر تلك الواقفة أمام بيت الجارة بشيء – بقدر لا يسـمح إلا بمرور رأسي وألقيت نظرة سـريعة إلى الخارج، لكنـي لسـت متـأكدًا بـأنهـا لم تنتبـه لي؛ فقد حـانت منهـا التفاتـة خاطفة نـاحية بيتـا قبل أن تدلف إلـى الداخل. كان

الزقاق ساكنًا سكون الموت.. يا بنت الجنيّة! ما الذي أتي بك في مثل هذا الوقت؟!

❖ ❖ ❖

لا أدري ما الذي أتى بها في مثل هذا الوقت؛ فبعد صلاة العشاء، ينام كل كائن يتنفس في هذه الواحة. جاءت وهي تطوي شالها الحريريَّ الأحمر على شيء ما وتقبض عليه بعناية:

– كيف حالك يا عبدون؟

– بخير.

– أريد الخالة وجيدة في أمر.

– أمي دخلت غرفتها، يبدو أنها نامت.

– لازال الوقت مبكرًا على موعد النوم.

– تلك عادتها، فمتى زارها السلطان نامت.

ضحكت ضحكة ناعمة خافتة، حركت لديّ إحساسًا ما، لم أستطع تحديد ملامحه جيدًا.

– أي سلطان؟

سألَتني راضية، بينما الضحكة ما زالت تتأرجح في صوتها الناعم.

– سلطان النوم، ألا يقولون "النوم سلطان"؟

– الحق معك، لا يوجد أحلى من النوم خاصة مع أنيس ترتاح إليه في سكون هذا الليل، ومع نسمة الهواء العليلة

تلك، يمسي الظلام نعمة نُحسَد عليها، كما قد يكون النوم أعظم نعمة، خاصة لو مع الواحدة منّا أنيس يُذهب وحشتها".

- ربما تكون أمي قد نامت الآن.

قلتُ لأصرفها عن موضوع النوم ذاك، فقد أحسستُ أنها تنوي الاستفاضة فيه.

- حسنا، فلترتح، أحيانًا يكون النوم بعيد المنال، مثل غمامة صيف، حين تنفرد الواحدة منا بالفراش ليلاً، تفكر في أمور كثيرة.

- أية أمور؟

- أقصد الحياة وما فيها، تنشغل رأسي أحيانًا بأسئلة كثيرة لا أعرف لها أجوبة، ولا حتى أعرف من يستطيع الإجابة عنها.

- أسئلة، أسئلة. الولد حسين يقول أيضًا إن رأسه مليئة بالأسئلة. ما حكاية الأسئلة معكما!! لقد قُلتُ له نَظّف رأسك من موضوع الأسئلة ذاك.

- بالمناسبة، هُيىء لي أنه أطل برأسه من بوابة بيتهم منذ دقائق. المهم، قل لي بم أجابك؟

- قال لي: "هل يستطيع البشر الحياة دون أن يتساءلوا؟". وقال أيضًا: الحيوانات لا تتساءل. لا أدري ماذا يقصد؛ ولد مخبول، لا يكِلّ من الجلوس مع العجائز.

- لقد صرتم رجالاً يا عبدون، ولكن من هم العجائز؟

- أقصد الشيخ منطوق والعم بركات، ومن هم في مثل سنهم. الشيخ منطوق يحب "حسين" لأنه يحب القراءة مثله.

- هل رأيت كتب الشيخ؟

- رأيتها مرة حين كنت بصحبة سليمان، كُتب ضخمة، يحتاج الواحد منها إلى عام لقراءته.

- ألا تدري ما فيها؟

- يقول حسين إن فيها أخبار الدنيا والبلاد البعيدة.

- آه. أتمنى لو أستطيع القراءة. لابد أن دنيا اللّه واسعة وفيها العجائب. إن حُسينًا لمحظوظ.

- يبدو أنكما متشابهان.

- مَن؟

- أنتِ وحسين.

- وأنت؟

- ماذا بشأني؟

- ألا تفكر؟

- ألن ننتهي من هذا الأمر؟ نعم، أفكر يا سيدتي، أفكر في الحياة، والعمل، والصحاب، سوف أفكر كل يوم، أعدك، سأفكر من الآن.. انظري، ها أنذا أفكر: تُرى، لماذا مات أبي وتركنا فجأة؟ ولماذا أصيبت أمي بالعمى؟ ولماذا أيضًا

لم نمتلك أرضًا مثل باقي البشر.. لماذا لا أترك هذه البلاد وأفرّ إلى أية مصيبة تأخذني؟ لماذا...

- لماذا تصبح جميلاً هكذا عندما تغضب؟

قاطعتني، ثم تابعت بصوت ناعم ينم عن خُبث واضح ومكر مقصود: "رويدك يا عبدون. أعرف أنك تفكر، فكل إنسان له عقل يفكر. ألا تفكر في الفتيات؟ عندما تستلقي في فراشك ليلاً، ألا تسرح بعينيك الثاقبتين هاتين في الظلمة، فترى عالمًا آخر؛ ترى فتاتك التي تتمناها؟ ألا تظهر أمام عينيك كنجمة وحيدة في ليلة غابت نجومها! ألا تفكر أن تحملها بين ذراعيك القويتين هاتين، وترفرف بها في سماء الواحة.. ألا تفكر في الفتيات، يا مكّار؟".

تلفظت بكلمة "مكار" بطريقة ماكرة بالفعل؛ مدت حرف الألف حتى كاد أن يتمزق بين شفتيها، ثم أكدت على حرف الراء وألصقت به ضحكة رفيعة ماجنة، انخلع لها قلبي. ثم تابعت بصوت أكثر جدية: الفتيات يحلمن أيضًا، كلنا نحلم، أليس كذلك؟

- نعم، كلنا نحلم، والآن، ما الذي تخبئينه في هذا الشال؟

- هل تحب أن ترى؟

- أقصد فيم كنت تريدين أمي؟

- أرسلتني أمي بهذين الرغيفين.

- حسنًا، هاتيهما، شكرا لك يا راضية.

- لا، لن يحدث، سوف أدخل لأضعهما بنفسي.

❖❖❖

مرة أخرى، سمعتُ صوت خطوات تقترب من بوابة بيت الجيران. وبعد فترة صمت مرت عليَّ كأطول ما يكون، سمعتُ:

- تصبح على خير يا "عبده".

- تصبحين على خير يا "قطة".

ترى ماذا حدث في الداخل؟ إني أسمع صوت الولد عبدون من هنا كأنه تغريد قمريّ على الشجر. هل قال "ياقطة"!! صوت راضية كأنه زقزقة عصفورة تبني عشها في فصل الربيع. إمم، "عبده"، هي قالت عبده. كيف تحول اسمك يا عبدون، فأمسى بهذا الدلال!! ماذا يمكن أن يحدث؟ إن الخالة "وجيدة" في الداخل. راضية تأتي في بعض الأحيان لمساعدة أم عبدون في أعمال البيت، خاصة بعد زواج "فطومة" ابنتها.

نفضتُ رأسي، ثم تعوذتُ من الشيطان الذي وسوس لي بأمور لا يمكن أن تحدث، وأراني خيالات تراقصت أمام عينيّ، فاستثارتني وجعلت دمي يفور. قمتُ فأطفأتُ الفانوس، واستغفرت الله، وخرجت.

كان النسيم عليلاً في الخارج. وقفتُ أمام الدار، ثم تذكرتُ فجأة أن الولد عبدون قال إني مخبول، وسمعته

يقول أيضًا: "الولد حسين"، ذاك المعتوه يقول عني ذلك! لقد أراد أن يظهر أمامها رجلاً بالتأكيد. على كل حال، سأواجهه بما قال، وليسمعني رده. ثم تذكرت كلام راضية عني، يبدو أنها تعرف الكثير عني، لكنها تتجاهل أمام عبدون. ربما أرادت أن تستثيره. لكن، فيمَ تُشْبهني راضية؟ إن الأسئلة تدور في رأسي...

منذ صغري وأنا أتأمل الأشياء، وأتساءل. كنت أسأل أبي أحيانًا، وأسأل أمي أحيانًا أخرى: "لماذا تبدو السماء في الأفق منطبقة على الأرض؟ أين تذهب نجوم الليل اللامعة حين يظهر ضوء الشمس؟ لماذا تتساقط أوراق الأشجار ما دامت ستنبُت أوراقًا أخرى غيرها، لماذا لون الأوراق أخضر؟ من أين تأتي الرمال؟ مَن وضع الأحجار السوداء الكثيرة بهذا الشكل في الناحية الشرقية للواحة؟ من أين تأتي مياه النبع، ولماذا تتدفق باستمرار ولا تنفد؟".

حين كبرتُ، صارت لي أسئلة أكبر، وصارت الإجابات بعيدة المنال. في كل مرة كنت أتساءل فيها وأنا صغير، كان أبي إما يجيبني إجابة لا ترضيني، أو يحيلني إلى صديقه المقرب.

أبي يعرف القراءة والكتابة؛ يقرأ في المصحف ويقرأ الخطابات التي يرسلها أهل الواحة من القاهرة إلى ذويهم. الشيخ منطوق يكبره بعامين.. كنت أراهما يسيران قبيل الغروب بين غابات النخل، يتحدثان ولا يصمتان أبدًا.

يضطجعان متجاورين، وقت القيلولة، ويشربان الشاي معًا في المساء. الشيخ منطوق رجل علم وتقوى وصلاح، عيناه العميقتان تلمعان دائمًا وجبهته عريضة. يعتمر طاقية بيضاء نظيفة على الدوام.. إنه يعرف الكثير، لكنه لا يعرف كل شيء.

ترددتُ على بيته مرات لا تُحصى، وفى كل مرة يعلمني شيئًا جديدًا. في الآونة الأخيرة، سألته أسئلة كثيرة فأجابني بجملة واحدة ظللت لأيام أفكر في مغزاها؛ قال لي: "لا تكف عن الأسئلة لأنها ستقودك حتمًا إلى إجابات. كل إجابة تخرج من فمي أنا محاسب عليها، أما الأسئلة فلن يُحاسبُك عليها أحد". جلستُ مع سليمان كثيرًا، رعينا الأغنام معًا، ذهبنا إلى الحقول معًا، ولعبنا فوق التلال الرملية العالية. وحينما كبرنا وتشكلت ملامحنا وقويت عظامنا، كنا نفكر في الفتيات قبل أن ننام؛ نبتسم لهن، نتحسس شعورهن، نضمهن إلى صدورنا ونهبط على أجسادهن. ثم نستيقظ في الصباح وقد بللتنا شهوة الحلم.

لا أذكر أني حلمت بها ليلة، وخجلتُ من حلمي. كان أقصى ما آخذه منها في الحلم قُبلة. إنها بستان ناضر ذو ثمار يانعة. مليحة بوجهها المضيء وعينيها الواسعتين، فتحت شرفة السهاد ذات ليلة ونسيَت أن تغلقها، فهي مفتوحة على الدوام. ترخي أهدابها الطويلة حين تبتسم، وتبزغ تفاحتان على خديها المتوردين باستمرار. تخرج

كلماتها القليلة من شفتيها متسربة إلى القلب كماء بارد في ظهيرة يوم قائظ. أين الماء يا نبعي العذب، إنني أذوب.. آه، يا قمر الصحراء.

خرجتُ ليلة أمس، بعد أن غادرت راضية بيت الخالة وجيدة مباشرة. وقفتُ في الزقاق أراقب السماء. ارتفع القمر قليلاً فظهرت ملامح البيوت وانعطافات الأزقة، ظهرت جذوع النخل المتناثرة هنا وهناك، وتحددت - من خلال ضوء الفانوس المعلق أمام بيت العم بركات - ملامح شجرة التوت وقد صبغ الضوء الواهن أوراقها العريضة ببعض الحُمرة فبدت أكثر رهبة. واجهة بيت "علي المجبَّراتي" تبدو مُشتعلة من جرَّاء انعكاس ضوء الفانوس عليها، بيته في مواجهة بيت العم بركات لكنه أعلى قليلاً؛ لأنه بُنيَ على ربوة. كثيرًا ما كنت ألمح حمودة يُقعي على حافة سطح بيتهم في الليل، فأقول لابد أنه صعد يتنسَّم الهواء، ولما تكرر الأمر في أوقات بعينها ملأني الشك ولما سألته أجابني بكلام فارغ لا يقتنع به طفل صغير. قلتُ له محذرًا: "هذا الكلام لا يمشي معي، فاخبرني بالحقيقة... كان حمودة على علم بالأوقات التي تتعرى فيها البنت "عفاف" لتستحم.

استندتُ إلى بوابة الدار هنيهة ثم استدرتُ في مواجهتها أتأملها، أتحسس خشبها السميك، المأخوذ من أشجار الدوم. حوافها المحددة بصفائح معدنية رقيقة مثبتة

بمسامير حدادي طويلة. في أعلى منتصفها مقبض على شكل نصف دائرة من النحاس وعلى عتبها نُقشَ بخط دقيق محفور على الخشب، آية قرآنية تقول" صُنع اَللّه الذي أتقن كل شيء"، ثم نُقش اسم صانعها وتاريخ صناعتها.

حين بدأت أعي وأفهم، سألتُ أبي لماذا كتب النجار هذه الآية، فقال إن النجار كان يكتب الآيات التي يحفظها على أعتاب البيوت دونما سبب واضح. لم أرتح لهذا الجواب فسألت الشيخ منطوق، لكنه سألني بدوره: " مَن خَلَقَ شجرة الدوم؟ "، فأشرت بأصبعي إلى السماء وقلت: "اللّه"، فابتسم وقال: "الذي خلق شجرة الدوم، هو الذي خلق الإنسان وخلق له عقلاً يفكر به وأيادي يصنع بها الأشياء"، ثم قال أخيراً: "هل عرفت الآن لم كتب النجار تلك الآية؟"، فأومأت برأسي أن نعم.

بينما أنا منشغل بالبوابة، إذ خرج عبدون من البيت وهو يمسك طرف جلبابه في يده، فانكشفت ساقه القوية. التفت ورآني واقفًا، فرفع يده بالتحية. كان القمر قد ارتفع قليلاً، وظهرت السماء صافية:

- كيف حالك يا حسين؟

- الحمد اللّه يا "عم عبدون"، ما رأيك في تمشية قصيرة؟

- حسنًا، فليكن.

سرنا ﭬ الزقاق إلى حيث تقودنا أقدامنا. كان القمر يصنع ظلاً قصيرًا للحوائط، وامتد ظلانا مثل طفلين صغيرين يسيران أمامنا. نظرتُ لأعلى، وكان عبدون ينظر إلى ظله الذي يسير معه. كان القمر يسير حيث نسير وينعطف حين ننعطف.

عند بيت العم بركات، لمحتُ حمودة يجلس ﭬ قاعة البيت مستندًا إلى الحائط، رافعًا ركبتيه الجافتين وقد حُسر ثوبه عن ركبتيه، وأمه إلى جواره ترتق له فتقًا ﭬ ذيل الثوب. مررنا ولم يرنا فحمدتُ الله. قلت لعبدون، ونحن ننتهي إلى الساحة الواسعة التي يتوسطها المسجد،: "سوف أسألك سؤالاً، وستصدقني القول". قال: "هات ما عندك". قلت: "لقد سمعتُك منذ قليل تتحدث مع راضية، وقد قلت عني فيما يشبه الاستهزاء: "الولد حسين".. لن أسألك لماذا، فلم أكن مثلك ﭬ قلب الموقف، لكن ما أريد أن أعرفه الآن: لماذا جاءتك راضية وأمك نائمة، ولماذا تأخرَتْ ﭬ الداخل؟ أنا لم أتَسَمّع عمدًا؛ سمعتُ حديثكما وأنا ﭬ حجرتي التي تشرف على الزقاق. إذا كانت راضية تود الحديث عن النوم وما شابه، فلِمَ تتحدث أمام الباب؟ الآن يا عبدون، أنا منصت... صمت عبدون لفترة، ثم خطى خطوات إلى الأمام:

"هذا الأمر سرّ بيننا"، قال وهو يشير بسبابته نحو وجهي.

– بالطبع، هات ما عندك.

قال عبدون: "أصرت راضية أن تضع الرغيفين بنفسها في الداخل. دفعتني في صدري دفعة خفيفة وسارت أمامي وهى تتلوى كأفعى. خطواتها المتكسرة، اهتزت لها مؤخرتها بتناغم غريب، كأني سمعت الأرض تتأوه تحت قدميها. لن أخفيك قولاً، لقد فار الدم في عروقي حتى أحسست بدقات قلبي تخبط في أذني. دخلتُ خلفها كالمجذوب. كان ضوء الفانوس ينبعث من الغرفة الداخلية ويمتد حتى آخر القاعة ويتسرب بعضه إلى الباب المقابل. دلفت راضية تتخبط على غير هدى وكادت أن تتعثر في "قَصْعَة" من الفخار، كانت تقبع بلا مبالاة في أول الغرفة، لولا أنها تشبثت بذراعي..".

صمت قليلاً، كأنه ينتظر أن أقول له وماذا بعد:

- هاه، وماذا بعد؟

- لا أدري؟

- ماذا، ألا تدري حقًّا!! ألا تتذكر؟ إن الأحداث ما زالت دافئة يا رجل، هيا انطق.

- بلى أتذكر، لكني لا أدري كيف حدث ذلك، كأني لم أكن أنا.

- لا بأس من ذلك، عليك فقط أن تخبرني.

"قلت لك إنها تشبثت بذراعي، ثم استدارت لتواجهني. لم أتبين ملامح وجهها تمامًا. في تلك اللحظة، لم يكن وجهها

مُهمًا. كان بصيص الضوء يجعلني أستطيع أن أحدد أين تذهب يدي. عليك أن تتخيل: حين استدارت في مواجهتي، اشرأب وجهها لأعلى وأمسكتني من ذراعيَّ. تشبثْتُ بهما وضغطتُ بأقصى ما تستطيع، ثم قالت: " قبلني، قبلني". قالت ذلك بينما أنفاسها تتلاحق، كأنها انتهت للتو من صعود الكثيب العالي الذي يواجه بيت الشيخ منطوق".

"هل قَبّلتها؟"، سألته متلهفًا.

"هي لم تنتظر حتى أقرر، بل باشَرَت هي العمل في الحال. آه يا حسين، لأول مرة أقبّل شفتي فتاة. شفتاها مكتنزتان، ولسانها- الذي عربد داخل فمي- أشعلني. ضغطتُها إليّ بعنف وهي تتأوه. عندئذ، جثت على ركبتيها وتوسلت إليّ، وأنا جُن جنوني، فحملتُها كطفلة بين ذراعيّ وطرحتها أرضًا، متحسسًا أخاديدها وهي تتلوى على تراب الحجرة".

ثم صمت مرة أخرى، وهو يرفع ناظريه إلى القمر الذي زين المكان بنوره الأخاذ.

"ما بك يا عبدون؟ هل فقدت لسانك؟ انطق يا بَغل، ثم ماذا حدث؟"

"ثم سَعَلَت والدتي في الداخل، وأحَّت أحًّا شديدًا (يبدو أن لهاثنا وصل إلى أذنيها) ثم زعقت: "يا ولد يا عبدون، هات القُلَّة، أريد أن أشرب؛ أنت لا فائدة منك على الإطلاق"".

"هأ، هأ. هل قالت لك: "يا ولد؟""

"نعم، وماذا في ذلك؟"

"أريدك فقط أن تتذكر ذلك دائمًا".

سكت عبدون ولم يعلق، واستدرت أنا راجعًا. أدندن، بصوت مسموع، جزءًا من أغنية طالما أحببتها. وقف عبدون هادئًا، وقد اتكأ على جدارٍ واطئ لحظيرة، ظهرت داخلها كومة من التبن - في ضوء القمر - كأنها جبل من الدقيق. كان يتلفّت يمنة ويسرة وهو يتأمل المكان بصمت، كأنما يسترجع ذكرى محببة إلى نفسه.

"هيا يا عبدون، هيا يا أسد"، قلت مستحثًا إياه.

"سأنتظر هنا قليلاً"، همس، بينما نبح كلب في البعيد.

- هيا يا رجل.

- لا أريد العودة إلى البيت الآن.

- لماذا؟

لم يجب، ظل واجمًا، رافعًا رأسه لأعلى كأنه وُلِدَ على تلك الحالة، فلم أجد بُدًا إلا أن أتركه في حاله.

كنت شاردًا، في طريق عودتي... وكانت راضية أمامي، تدفعني في صدري دفعة خفيفة وتهمس لي: "قَبِّلني، قبلني".

❖ ❖ ❖

خلف هذا الجدار الذي اتكئ عليه الآن، كانت راضية تختبئ ذات يوم، ونحن نلعب لعبة " الاستخفاء". كنا أطفالاً، ولا أدري ما الذي جعلني أجري لأختبئ هنا أيضًا، خلفها مباشرة. ما الذي أوقفني أنا وحسين هنا الآن! لماذا توقفت قدماي في هذا المكان دون غيره؟

❖ ❖ ❖

لم نكن، نحن الأولاد، قد كبرنا بعد، والبنات كنّ شقيات ما زلن. كنا جميعًا نقضي معظم الوقت نلعب في الأزقة، أو تحت دومة عنتر، نلهو فوق التلال العالية وتحت الأشجار، وأقصى أمانينا كانت ألا ينتهي اللعب، فلا نعود إلا إذا قرصنا الجوع. كنا نلعب ذات يوم لعبة الاستخفاء في الساحة الرملية التي تحيط بالمسجد وتتفرع منها أزقة ضيقة وشوارع صغيرة ملتوية.

استدار حمودة ناحية الحائط، أغمض عينيه واضعًا يديه عليهما، بينما فرّ الباقون للاختباء. أنا وسليمان وعبدون وبدر، ومعنا راضية وفطومة وثريا ومليحة، كلنا تركنا سيقاننا للريح وتفرقنا في أزقة مختلفة. رفع حمودة – المكَّار – يده اليسرى عن عينه وفتحها قليلاً بعد أن باعد بين أصابعه. التفت في بطء شديد ليحدد مكان الطفل الذي يقع في مرمى بصره. أنا ومليحة وسليمان اتخذنا انعطافة حادة لنقف خلف المسجد مباشرة. ثريا فتحت بَرْجَلَهَا الواسع وركضت، وتبعها بدر. أشارت له بيدها كي

يرجع ويجد له مكانًا آخر للاختباء، لكنه لم يطع أمرها، فتوقفت عن الجري، وضَعَت يديها في وسطها وانتظرت حتى اقترب منها – كانت تفوقه طول – ودفعته في صدره فوقع على مؤخرته وانحسر جلبابه. لم يكن يرتدي سروالاً فظهرت عورته مما تسبب في بكائه، وثريا تشير إلى عورته وتضحك.

جرى عبدون في خطوات قوية وثابتة خلف راضية التي اتجهت غربًا في زقاق الطاحونة القريب من الحظائر. اندسَّت وراء حائط متهدم قصير. وقَفَت ملتصقة بالحائط لا يظهر منها إلا وجهها. مطت عنقها من فوق الحائط لترى إذا ما كان هناك أحد يتعقبها. رآها عبدون فانعطف ليقف خلفها مباشرة، التصق بها من الخلف. وتصادف أن كان "عَلام النجار" يَعْبُر الزقاق بحمارِه من الناحية الأخرى، فرآهما على تلك الحال.

علام يحب ابنته كثيرًا، شأن كل الآباء، إلا أنه يدللها ولا يرفض لها طلبًا. جذبها من شعرها المنكوش وضربها ضربًا مبرحًا للمرة الأولى في حياته. صرخت راضية وحاولت التملص من بين يديه دون جدوى. ندم علام سريعًا على فعلته تلك وحاول إرضاءها بكل الطرق فأصرَّت أن يأخذها معه إلى حيث يذهب. ركب حماره ثم أمسك يدها الصغيرة، وأمرها أن تضع قدمها على قدمه، ثم رفعها لأعلى ووضعها أمامه.

ﻓﻲ الطريق الذي تظلله أشجار الفاكهة والنخل، رأت الطفلةُ شجرةَ الموز تطل من بستان الشيخ منطوق مثقلة بثمارها. "عِزْقٌ" كبيرٌ يتدلَّى إلى خارج السياج، وقد انتظمت أصابع الموز فيه بشكل يسيل له اللعاب؛ أصابع كبيرة وصفراء. سال لعابها وأصرت أن تأخذ واحدًا. حاول الأب إفهامها أن تلك الشجرة مِلْك للشيخ منطوق، ولا يجوز أن نقطف ثمارها إلا بعلمه، لكنَها بكت بكاءً مُرًّا.

وقف أبوها متحيرًا لا يدري ماذا يفعل، وكان أن حدثته نفسه: "الطريق خالٍ ولا بأس من أصبعِ موز واحد، سأخبر الشيخ عندما أعود". أنزل الطفلة ونحَّاها جانبًا، ثم وقف ينظر لأعلى. مدّ ذراعه لكنها لم تصل إلى هدفها. قفز قفزة صغيرة، ونجح ﻓﻲ أن يقبض على إصبع موز كبير، لكن قدمه احتكت بالسياج بينما يهبط، فانغرست شوكة كبيرة ﻓﻲ باطن قدمه. صرخ علام وبكت ابنته لصراخه.

كان بركات ﻓﻲ بستانه، فجاء مهرولاً قاصدًا الصوت. جلس علام على الأرض، ممسكًا بقدمه، بينما انكسر عِزق الموز متدليًا على السياج. سأله بركات عما حدث، لكن الرجل لم يستطع شرح الأمر والألم يعتصر قدمه. وقفت راضية على مقربة من أبيها تنظر إليه، وكلما تأوه انخرطت ﻓﻲ البكاء. جلس بركات ﻓﻲ مواجهة علام، تفحص باطن قدمه التي غطاها الدم محاولا اقتلاع الشوكة لكنه لم يستطع أن يقبض عليها، فقد غاصت كلها ﻓﻲ لحم القدم:

"ليس هناك بُد من الذهاب إلى "علي المجَبراتي"، فإنه خبير بتلك الأمور"، قال بركات، ومدَّ يده إلى صاحبه، فأعانه على الوقوف، ثم ساعده في ركوب دابته. رفع راضية على الحمار لتتخذ موضعها أمام أبيها، وأمسك المقود سائرًا أمامهما حتى بيت علي المجبراتي.

عندما علم الشيخ منطوق بالأمر، قطع عِزق الموز وحمل بعضًا منه إلى علام وهو يزوره. لا يملك علام إلا بستانًا صغيرًا تنمو فيه بعض أشجار النخل، لكن أهل الواحة يعطونه من فيض خيرهم. خجل الرجل خجلاً شديدًا، وحاول تبرير الأمر للشيخ الذي وضع يده على فم النجار، أعفاه من أي تبرير، ونصحه أن ينسى الأمر برمته.

لم ينس أحد من أهل الواحة تلك الواقعة، وظلوا لفترة يؤرخون بها الأحداث، يقولون: "قبل يوم إصبع الموز، أو بعد يوم إصبع الموز"، ثم ابتدأت الأيام تطمرها شيئًا فشيئًا، فلم تعد تظهر إلا إذا استدعتها الذاكرة.

❖ ❖ ❖

إن ما أخبرتُ به "حُسين" قد حدث بالفعل. وقد رأيتُ عينيه وهما تلمعان وتنشدان المزيد من التفاصيل. دارت رأسي وغامت عيناي؛ غاب كل شيء حولي، سقطت الدنيا في ظلمة ناعمة.. زَعَقَتْ أمي: "يا ولد يا عبدون". أدركتُ وقتئذ أنني في البيت، مستيقظ تمامًا، لم أكن نائمًا، ولم أكن أحلم - وإنني بالفعل عبدون، ليس شخصًا آخر. كانت

أمي تريد أن تشرب. انسحبت راضية وهي تستحلفني: "أستحلفك برحمة والدك أن تدبر لنا لقاء". هززتُ رأسي موافقًا، وأنا أحدث نفسي: "لقد رحل أبي دون أن يخبرني ماذا أفعل".

كنتُ لا أزال فتى يافعًا، عندما قابلتني العمة فوز في ذلك الصباح. هذه المرأة، بوجهها العبوس، ما زالت تتكّل بالغادي والرائح... كان ابنها حَمَّاد قد هَرَب بعد أن ضربه أبوه ولم يُعْثَر له على أثر، ثم ما لبث أن مات والده بعد أن أنجب ولدًا آخر، تاركًا العمة فوز في فورة نضجها. ظلت تبلل وسائد الليل بدموعها الحارة، لم تذق للنوم الهادئ طعمًا. كانت كلما خلدت للنوم داهمتها الكوابيس، فتهب مفزوعة تتلفت حولها، ولا تجد من يمد لها يده بشربة ماء. هي التي تخرج كل يوم بعد الظهيرة، بقُلّة الماء الباردة؛ فتروي عطش الرجال الذين دائمًا ما يأخذون قيلولتهم أسفل شجرة الكافور العتيقة أمام بيتها.

منذ أعوام طويلة ورجال الواحة يقضون فترة القيلولة تحت شجرتها. تهبّ من النوم فزعة، جافة الريق، وحيدة، لا تجد من يسقيها، بينما هي تروي عطشهم بقلتها الباردة. طيف ابنها حماد في البيت، أمام عينيها في كل لحظة. تجلس على مائدة الطعام، تزدرد لقيمات صغيرة، وتقوم دامعة العين دون أن تشبع. ينتفض قلبها كلما طرق أحد بابها، تندفع خارجة حاسرة الرأس، آملة: "ربما يكون حماد

قد عاد"، فإن سمعت جلبة خارج البيت هرولت مسرعة، فربما يكون ابنها قد عاد، وإن تنهد أحد إلى جوارها فزعت وساورتها الشكوك: "ربما حدث لحماد شيء في غربته، ولا يريد أحد أن يخبرها".

هكذا قضت العامين المنصرمين، تمشي وتنام على شوك الأمل والذكريات. ظل الجميع في الواحة يتحملون لسانها السليط، ويشفقون عليها. كانوا قد فقدوا الأمل في عودته، إلا هي، كانت توقن أنه سيعود.

كان أبي، قبل أن يتوفاه الله بأشهر، يعتمد عليَّ في أمر إدارة الطاحونة. فقط، في اليوم الذي يكون فيه مشغولاً بإدارة الساقية...

قابلتني في زقاق الطاحونة، في صباح يوم شتوي قاس - قادمة من جهة المقابر. كانت تسير حافية، غير عابئة بالبرد، وقد اتخذ ظهرها انحناءة خفيفة. كانت تحمل حزمة من حطب الوقود على كتفها. كنتُ أسير متأنيًا ضجرًا. دققت المرأة في وجهي بعد أن ضيقت حدقتي عينيها:

- يا ولد عبدون؟

- نعم يا عَمّة.

- لم يعد لدينا ما يكفي من الخبز، سوف أرسل البنت "راضية" بمكيال من القمح، وعليك أن تطحنه، هل أرسلها الآن؟

كادت عاطفتي تتغلب عليّ، عندما تفوَّهَت باسمها، وهممت بأن أقول: "فلتأتِ الآن"، لولا ستر اللّه، فقلتُ:

– لن أقدر يا عمة؛ فقد قال لي سليمان إنه سيرسل أحدهم بالقمح خاصّتهم، كي أقوم بطحنه الآن.

– هل ستقوم أنت بطحنه نيابة عن الثور؟ لا فرق، أنت والثور واحد.

– هأ، هأ. كلك ذوق يا عمة.

"قُل لي، متى أرسل البنت، يا مكسور الرقبة؟"، قالت مهددة إياي، لكنني ضحكتُ ضحكة عالية، ثم أجبتها:

– إن شاء اللّه بعد الظهر، هذا إن كان لنا أجَل.

قلت ذلك ومشيت، محاولاً الابتعاد عنها، وقد نفد صبري، لكنها لم تتركني في حالي، وقالت ساخرة:

– لا تدبّ على الأرض هكذا وأنت تسير، يا خروف، ألا تخشى أن تلبسك العفاريت؟

– أين هم العفاريت يا عمة؟

– ألا تدري يا مُغَفَّل؟ الأسياد هنا.

وأشارت إلى الأرض، ثم تابعت قائلة: "هنا، تحت الأرض".

– لا أسياد تحت الأرض، نحن الأسياد؛ الأسياد يكونون في الأعالي دائمًا. قلت ضاحكًا ثم تابعتُ: "ثم ماذا يضيرني لو مسَّتني جنية جميلة، فربما تريحني من عناء الحياة هنا،

سأطلب منها أن تطير بي مباشرة إلى مصر؛ أريد أن أرى أم الدنيا".

"متى أتعبتك الحياة يا صغيري؟ أنت لم تر شيئا بعد"، قالت، ثم تنهدت طويلاً وهي تتمتم: "اللهم رد كل غائب إلى أهله".

أما أنا فقد تركها ومشيت، وحين ابتعدتُ قليلاً، استدرتُ للخلف ورأيتها ما تزال واقفة تتأملني. بعد أن سرت عدة خطوات أخرى سمعتها تقول: "سبحان الله، نسخة أخرى من والده، رحمك الله يا "عبد الفضيل"، غير أن هذا "المفعوص" يظن نفسه شيئا".

لم تكن العمة فوز في حاجة ماسّة إلى الدقيق، لو كانت كذلك، كنت وافقتُ على طحن حبوبها في الحال، لكن النساء يرسلن إليها "الحامي"(*) بالتتابع، كما دأب رجال الواحة على إهدائها بعضًا مما تجود به أراضيهم من خير.

❖ ❖ ❖

طَرَقَت العمة فوز باب بيتنا، واستأذنت أمي في أن أذهب لمساعدتها في غربَلة القمح وتجهيزه للطحن.. حين طَلَبَت مني الذهاب إلى الطاحونة، عدتُ سريعًا إلى البيت، انتقيت ملابس نظيفة، طويتُها تحت إبطي وقصدتُ الحمّام، وهناك اغتسلتُ جيدًا، وحككتُ كعبيَّ حتى كاد الدم أن يتفجر منهما. عندما خرجتُ، وقفتُ أمام شظية المرآة

المثبتة في الحائط، شددتُ خديَّ وفركتهما عدة مرات، مشّطتُ شعري، ثم تكحلتُ وخرجت... عندما رأتني العمة فوز صاحت: "مَن يراكِ هكذا يحسب أن موعد زفافك اليوم يا "مفعوصة".

ما إن دخلت الزقاق المؤدي إلى الطاحونة، حتى غمرتني ظلال السقيفة وصافحت جسدي برودة المكان، فأبطأت من خطوتي، بينما كنتُ أملأ رئتيَّ من هواء الزقاق المعتق. كانت قُفَّة القمح فوق رأسي، أقبض على أطرافها بيديَّ، فأشعر بجسدي مفرودًا، متحفزًا.

الزقاق، في التواءاته الحادّة وضيقه وظلمته، يبعث في النفس رهبة حتى في وضح النهار. أما في الليل فلا يجرؤ الأشخاص العاديون على المرور بمفردهم، باستثناء قلة قليلة، أوَّلهم عبدون. يخلو الزقاق من البيوت العامرة لأنه يمتد غربًا كي يفضي في نهايته إلى الطاحونة ثم إلى المقابر في الفضاء الواسع غرب بيوت الواحة. أما جدرانه فما هي إلا الأسوار الخارجية للحظائر.

❖ ❖ ❖

كنا قد ضربنا رهانًا، ذات يوم، على من يستطيع عبور ذلك الزقاق ليلاً. تواطأنا: أنا وسليمان وزوَّام وحمودة على أن يكون عبدون هو الضحية. كنا نجلس على المصطبة، أمام بيت حمودة الذي كان قد بيَّت النية من قبل، فربَط حبلاً في شجرة "السنط" القريبة من المقابر، ربطه إلى

جوار "مِنْشَال" من الفخَّار مُعلقًا في تلك الشجرة (يملؤه سليمان كل يوم) ليشرب منه المارَّة.

جاء عبدون، في تلك الليلة، متأخرًا. سمعنا وقع خطواته في الزقاق قبل أن يظهر، فقال حمودة:

"أخيرًا جئت أيها البطل؟".

عبدون آسفا: عذرًا للتأخير يا شباب.

قال حمودة: لا تعتذر، لأنه لا مناص من توقيع العقوبة عليك.

قال عبدون محذرا: لا تستطيع أنت ولا مائة من أمثالك أن يلمسوا شعرة من رأسي، كما تعلم.

قال حمودة: اشهدوا يا شباب، لقد أخطأ في حقي.

ابتسم سليمان قائلاً: نعم أخطأ.

قلتُ متضامنًا مع سليمان: أخطأ بالتأكيد.

قال حمودة متوجها بحديثة إلى سليمان: أنت ابن عمدة واحتنا، وسيؤول أمر الحكم إليك ذات يوم، عليك الآن يا سليمان أن تصدر حكمًا عليه.

قلت: احكم يا شيخ.

قال سليمان: هل ترضى بحكمي يا عبدون؟

أجاب عبدون وهو يفرد ذراعيه على أقصى اتساع لهما: أنا لا تخوفني أحكامكم، هيا.

قـال سليمـان: حـسنًـا، عليك الآن أن تختـرق زقـاق الطاحونة حتى نهايته، و...

قال عبدون مقاطعا: اعتبرني قد اخترقته بالفعل، وماذا في ذلك من خطورة؟

قال سليمان: دعني أكمل كلامي. سِر حتى تصل إلى شجرة السنط، في الفضاء المجاور للمقابر، ثم عُد إلينا هنا.

ابتسم عبدون وهو ينقل بصره بين أصدقائه قائلاً:

- ماهي جائزتي إن فعلت ذلك الآن؟

قال حمودة: سنذهب جميعًا لنشرب القهوة في بيت الشيخ.

قال عبدون: لي شرط واحد، إن قبلتموه سأذهب الآن.

قلتُ: هات ما عندك.

اشترط عبدون: حمودة لا يذهب معنا لشُرب القهوة.

قال حمودة في غيظ: لن أذهب، لكن اعلم أن هناك حبلاً مربوطًا في أحد أفرع الشجرة، ما عليك إلا أن تحضره إليَّ هنا، يا بطل؛ ذاك هو الدليل على أنك وصلت إلى هناك بالفعل.

قال عبدون: حسنًا، أيها الخبيث.

واستدار، في الحال، ناحية الزقاق، وهو يلوِّح لنا...

عاد عبدون، بعد لحظات، وهو يلفّ الحبل حول خاصرته، وفي يده اليمنى غصنٌ صغير كان قد كسره من الشجرة.

لم يكن يُسمع في ذلك الوقت من الظهيرة إلا صوت السكون، ودويّ بعض الزنابير التي اتخذت من سقف الزقاق أعشاشًا لها... كلما مررتُ في اتجاه الطاحونة رفرفت روحي كحمامة، وغُصت في بحر أحلامي؛ تسحبني الأحلام في لطف نحو القاع، فأراهُ وقد خطبني لنفسه، ثم تزوجني. كنتُ كلما توغلتُ في الزقاق، باتجاه الطاحونة، يُخيَّل إليَّ ما سيكون من عبدون ومنّي، حتى تنتفخ بطني وتفاجئني آلام المخاض.

❖❖❖

كنت أجلسُ في انتظار راضية أمام باب الطاحونة، عندما ظهَرَت في انعطافة الزقاق الأخيرة، وهي تمشي على مهل. تأملتها مليًّا وهمستُ لنفسي: "إيه، يا غزالتي الشاردة". كانت تحمل "البَدَّارة" فوق رأسها، ذراعاها مرفوعتان، ويداها تقبضان على أطرافها العليا، مما صَيَّرَ جسدها كوتر مشدود، وثوبها الضيق يبرز كنوزها ويئنّ من روعة ما يحتويه. سعلتُ متعمدًا فشهقت حتى كادت تُسقِط " البدارة" من فوق رأسها.

❖❖❖

كان جسده كله يهتز وهو يقهقه ساخرًا من فزعي لعطسته المفاجأة. نظرتُ إليه غاضبة، فخبط على صدره برقة عدة مرات وهو يقول: "سامحيني، لم أكن أقصد". كان واقفًا يسد الباب، وعندما اقتربتُ أفسح لي المجال، مشيرًا

إلى الداخل وهو ينحني قليلاً. نظرتُ إليه وأنا أفتعلُ الغضب ثم قلتُ بصوت حرصتُ على ان يكون ناعمًا خفيضًا: "إليك عني أيها البغل"، فأجابني ضاحكًا: "أمرك سيدتي".

❖ ❖ ❖

وقفتُ قبالتها أتلقى عنها حمولتها. وضعتُ يديّ في قَعر "البدَّارة"، اقتربتُ قليلاً كي أرفعها عن رأسها المتعب فغشت أنفي رائحة جسدها الزكية، أخذتُ نفسًا عميقًا وأنا أتلفت متصنعًا البحث عن مصدر تلك الرائحة العطرة: "يا لها من رائحة، ترى، من أين يعبق مِسْكَها؟". ابتسمت الفتاة وهي تدرك ما أرمي إليه، فقالت متعجلة: "ارفعها عني يا عبدون، فقد تعبت". نظرتُ في عمق عينيها هامسًا: "ماذا تعطينني إن أنا رفعتها عنكِ؟"

- أعطيك صفعة على وجهك.

- ما أحلاها من صفعة.

- العجلة من الشيطان، انتظر حتى نتزوج.

- وماذا سآخذ عندما نتزوج؟

- احمل عنّي أولا، وأنا أخبرك.

نَفَّذتُ ما أمرَت به في الحال، ثم قلت:

- قولي الآن، ماذا ستعطينني عندما نتزوج؟

- كل ما تريد. لكن قبل الزواج لا تحلم بشيء.

- أعطني أي شيء الآن لتوثيق العهود.

- عبدون، انتهينا.

- حسناً، حسنًا. لا تغضبي يا غزالتي البرية، لكن دعيني أنظر في عينيك الرائعتين قليلاً.

- بسرعة.. نظرة واحدة.

تحركَت إلى الداخل، ثم وقفَت ساكنة في ظل النخلة المعوجّة، التي بُنيت الطاحونة حولها. اقتربتُ منها. نظرتُ في عينيها طويلاً. وضَعَت يديها على عينيها قائلة: "هذا يكفي"، فانتهزتُ الفرصة وضممتُها إلى صدري. حاولَت التملص وهي تدفعني في صدري، لكن ذراعيَّ كانتا قويتين بما يكفي. حاولَت حتى أجهدتها المحاولة فوقَفَت مستسلمة وهي تلهث. كنت أعبث في جديلتها وهي تنظر في عينيّ وتبتسم: "اتركني أيها الثور"، قالت. تركتها وأنا أضحك قائلاً: "أمرك يا بقرتي الجميلة ".

❖❖❖

جلستُ في ظل النخلة المعوجّة، أما هو فقد اتجه ناحية حجر الطاحونة المستدير في نشاط وبهجة. رفع "البَدَّارة" بين يديه، أفرغ بعضًا من القمح في ثُقب الحجر الواسع وضرب الثور ضربة خفيفة على مؤخرته. دار الثور ودار الحجر الأسود الكبير فأحدث ضجة أزعجت الطيور

الساكنة ففرت من أعشاشها. دار خلف الثور يستحثه على المضي. كأن الدنيا كلها قد قامت من سُباتها، تسرب النشاط إلى الكائنات التي كانت قد أوت إلى سكون القيلولة وكان قد ربط ذيل جلبابه حول خاصرته فبانت ساقاه القويتان. كان يدور خلف الثور ويغني:

"يا ني يا ني

امته تطيب يا ني

يا ابو علي قلبي عليلي

عيني على صبية شَعرها لِيلِي

وقال خُدني على حِمْلَك ولا يميلي

وقال خدني لها ليلي، يا ليل.

صوته كان رائقًا ونديًا. يغني فيتردد صدى صوته بين جذوع النخيل وأغصان الأشجار، بينما أنا جالسة في ظل النخلة المعوجة، أسترق النظر إليه بين الحين والآخر، فيخفق فؤادي طربًا.

كان يغني منتشيًا، بينما تواطأت معه الطيور فغردت على الأغصان، وهبت نسمة هواء طرية فحركت جريد النخيل وأفرع الأشجار.

٩

عبد الفضيل

كيف صار العم "سَعْد اللّه" رحمهُ اللّه شيخًا، وصاحب كرامات، ونحن لم نر عليه في حياته ما يدل على ذلك!!

كان الشيخ سعد اللّه رجلاً وحيدًا، طاعنًا في السن. ماتت زوجته قبله بأعوام بعد أن تزوج أبناؤه، ونزحوا إلى العاصمة. تركوه وحيدًا، لا تؤنسه إلا رائحة الذكريات. حياته اليومية لم تلفت انتباه أحد، لأنه لم يفعل شيئًا زائدًا عما يفعله الجميع.

إن هذا الأمر قد حيرني حقًا، ولم أعثر على إجابة شافية حتى الآن. لقد سألت عبدون عن رؤيا والده، لكنه غضب عندما شعر بشكوكي في رواية أبيه تفوح من كلماتي، وقال إنه لم ير على والده كذبًا أبدًا. لمَ لا يكون أحدهم قد غرسها بليل؟ لكن يستحيل أن يُغرس غصن أخضر في أرض جدباء صلبة كتلك، كما أن الرجال الذين رأوا الجريدة منتصبة تتلاعب بها الريح فتتمايل هنا وهناك، قالوا إنه لا توجد آثار لأقدام بشر في المنطقة كلها. لمَ لا تكون الريح قد مَحَت أثر الفاعل؟ ربما. لِمَ لا تكون الحكاية كلها ملفّقة؟

ربما يكون عبد الفضيل قد قطع الجريدة الخضراء من نخلته وذهب لغرسها بنفسه؟ لكن الشيخ سعد اللّه تنبأ أيضًا في الرؤيا بأن نخلة عبد الفضيل ستُثْمِر هذا العام؛ وقد أثمرت النخلة بالفعل...

يُحكى أن العمة وجيدة قد سمعت صوت نباح كلب بالقرب من النخلة، قُبيل أن تفلت يد زوجها ليسقط وتصطدم رأسه في "ماجُور" العجين الفخاري المنكفئ بالأسفل - فتشج رأسه وتسيل دماؤه لتروي النخلة التي رواها من قبل بكدّه وعرقه... قالت أمي إنها سألت السيدة وجيدة عن حكاية الكلب تلك فأنكرتها تمامًا!

بيت السيدة وجيدة نظيف على الدوام. أرضيته مرشوشة برذاذ الماء. الأشياء في مواضعها الطبيعية. ثمة مرآة لامعة كبيرة مُعلَّقة في صدر القاعة الطويلة للبيت، مرآة جديدة تمامًا، كأنها صُنعت للتو. عَجِبْتُ لأمر تلك المرآة، لأنني في كل مرة أدخل هذا البيت تلفت انتباهي. لابد أنها كانت موضع عناية فطومة، قبل أن تتزوج؛ فهي فتاة تحب التزين، تهتم بهندامها وهيئتها، على عكس أخيها.

في بيتنا قطعة صغيرة من مرآة مكسورة، خُدشت في أنحاء كثيرة منها. دائمًا ما أرى وجهي فيها مشوهًا، فاعتمد فيما نقص من ملامحي على الذاكرة.

أم عبدون لا ترى، لكنك حين تنظر في عينيها تكاد تقسم أنها تراك. دائما ما تبادرني بالسلام:" مرحبتين يا حسين".

عندما دخلتُ بيتها اليوم ورأيتها، أو قُل إنها رأتني، كانت تجلس القرفصاء في قاعة البيت، وقِرْبَة اللبن مُعَلَّقَة على "شُعُبَة" من حطب الزيتون، مستندة بدورها إلى الحائط. كانت تدفع القربة للأمام، ثم تسحبها فجأة للخلف، فترتج في حركة منتظمة ودقيقة. كانت تغني مع إيقاع القربة وصوت ارتجاج اللبن داخلها:

" لا تعايروني يا بنات عمي

مكتوب عليَّه من بُطين أمي

قالوا شقيّة، قلت من يومي

يفرقوا النايب، أخدت الكبير كومي".

كانت ابتسامة الخالة وجيدة لا تفارق محياها. لكن الأيام كان لها رأي آخر. لو أنها لا تضن بابتسامتها الصافية، التي لا مثيل لها، لملأت قلوب أهل الواحة صفاءً ومحبة. إلا أنها في الأغلب ساهمة صامتة، يكسو الحزن ملامح وجهها فيزيده بهاءً.

بيت عبدون له بوابة كبيرة، يعلوها قوس بارز من الطوب اللبن، تتخلله فتحات وتعاشيق ذات أشكال منتظمة من الطوب ذاته. عُلقت "شجرة شيح" عِطريّة، في أعلى البوابة لتمنع الهوام والحشرات من دخول البيت. كنت أدخل مع عبدون. أمشي خلفه إلى حجرته مباشرة، عندما لا تكون والدته في مرمى بصري، ودون أن أنبس، كنت أفاجأ بها

تقول: " مرحبتين يا حسين"، يأتي صوتها من حجرتها، أو قريبًا من قاعة مواعين الماء فأضطر خَجِلاً أن ألقي عليها السلام. أتعجب: كأنها تراني، يبدو أنها تعرف الشخص من طريقة خفق نعله، أو ربما من رائحته، أو حتى من طريقة تنفسه - صِرْتُ لا أستبعد عليها شيئًا... كلما دخلتُ بيتها، استشعرت رائحة نظافته، ولا أدري لم لا تنعكس نظافة البيت ونظامه الدقيق على صديقي عبدون؟!

❖❖❖

كانت الواحة غارقة في صمتها حين انبعثت صرخة قوية من بيت عبد الفضيل ارتجت لها الجدران وترددت في أثرها صرخة، صرختان، ثم صرخة من هنا وصرخة من هناك، واحدة من الجوار وواحدة من بعيد، صرخات كثيرة مختلفة للنساء، أصوات رفيعة حادة، وأصوات كالطنين، وأخرى كالحشرجة. كانت أمي في المطبخ، وعندما سمعت الصراخ ينبعث من أماكن متفرقة، اختلط عليها الأمر، فزعقت:

- يا بنت يا راضية، أين أنتِ؟

- أنا في الفناء يا أم.

- اصعدي إلى السطح بسرعة، واعرفي مصدر الصراخ.

- في الحال.

هرولتُ صاعدة إلى فوق. وقفت عند حافة السطح، أطلُّ على الزقاق. كان الجميع يهرولون ناحية بيت عبد الفضيل.

النساء بأثوابهن السوداء، وعلى رؤوسهن "طُرح" أو "شيلان" سُود، يطلقن صرخات قوية ويحاولن البكاء بكل ما أوتين من قوة!! وكلما التقت امرأتان تساءلتا عن الخبر، ثم تابعن الصراخ بطريقة آلية. أسفل بيتنا كانت منذورة "النادبة" تهرول وتولول، وحين التقت "فرحانة" في الطريق سألتها فرحانة:

- ماذا جرى يا منذورة؟

- يقولون إن عبد الفضيل مات.

- كيف مات؟

- سقط من فوق النخلة جثة هامدة.

- سبحان الله، من يصدق!! ثم مصمصت شفتيها: "كل ذلك بسبب سعد الله".

- وما شأن الشيخ بذلك؟ إنه رجل صالح.

"وما أدراكِ أنه كان مثلما تقولين؟ لم نر عليه كرامة واحدة في حياته"، قالت فرحانة، ثم قامت بإطلاق صرخات قوية، ومنذورة تجيبها بعدودة من عديدها الذي لا ينفد.

نزلت مسرعة لأنبئ أمي بالخبر، فارتدت ثوبها الأسود على عجل، وما أن تخطت عتبة البيت حتى انطلق صوتها بالصراخ... أغلقتُ البوابة ورائي وانطلقتُ في أثرها.

اجتمعت النسوة في سرعة غريبة، وكلما دخلت امرأة البيت، أطلقت صرخة جليّة، فتردُّ عليها بقية النسوة

بصرخات مختلفة. تجلس منذورة النادبة إلى جوار وجيدة. تبكي ولا دموع تسيل من عينيها!! فقد خبرت الأحزان وامتهنتها؛ تبكي مجاملة كما يفعل بعضهن، لكنها تتفوق عليهن بما تحفظ من عديد. تنكّس رأسها وتُعَدّد:

"يا هل ترى يا ابويا

وصِّيت عليَّه مين؟

وصيت عليكي يا بنتي

من الرجال ألفين

الميتين غطيتهم ناموا

خوفي على الحيين ينضاموا"

ابنتها فطومة، التي جاءت للتو من النبع، أُغْمِيَ عليها. وقعت من طولها حين دخلت الفناء فوجدت والدها مُسَجًّى على الأرض، وأمها تسح دموعًا غزيرة؛ تبكي زوجها بأحرِّ الكلمات، والنسوة يربتن على كتفها، يحاولن إسكاتها.

الرجال الذين كانوا يصطفون منذ قليل في صفين متقابلين، أمام بيت عبد الفضيل تحركوا وراء النعش، لينتهوا من مراسم الدفن. سيعودون بعد ذلك إلى المسجد. يمكثون ثلاثة أيام بلياليهن، يقرأون القرآن على روح المتوفى، ويستقبلون العزاء من أهالي الواحات المجاورة.

جلست فطومة في أحد أركان القاعة، تبكي بصمت فيهتز كتفاها، بينما جلستُ إلى جوارها أنا وثريّا، ومليحة،

نواسيها ونربت على ظهرها، وهي تمسح دموعها بين الحين والآخر، ثم ما تلبث أن تنخرط في نوبة بكاء كلما علت صرخة من إحداهن. هدأ الجو قليلاً بعد سويعات، فلم يعد يُسمَع إلا البكاء، أو همس النسوة في إحدى زوايا البيت.

هبَّت منذورة واقفة فوقفت كل النساء في أثرها، خرجت من باب البيت، فخرجن خلفها؛ إنها قائدة الجوقة. سوف تدور في كل أزقة الواحة وشوارعها والنسوة خلفها، تهيل التراب على رأسها فيفعلن ذلك. تصرخ وترفع يديها إلى السماء فيتبعنها. تلطم على وجهها وتعدد مناقب الراحل ورجولته وكرمه، فيرددن وراءها، ويلطمن خدودهن. تقودهن في آخر الأمر إلى المجرى الرئيسي للنبع، لتضع الوحل والطين على رأسها، فلا تتوانى واحدة منهن في أن تفعل ما تفعله منذورة. تعود، بعد ذلك، إلى بيت المتوفى وهن من ورائها، ولما يعد هناك شبر في الواحة إلا وطئته أقدامهن.

دخلت منذورة فناء بيت عبد الفضيل، وتبعتها النسوة، تحلقن حولها في دائرة واسعة وبدأت مراسم الندب: تضرب الأرضَ بقدمها اليمنى، ثم تتبعها بخبطة من يدها على صدرها، في حركات متتالية، بينما يهتز جذعها ويدور حول نقطة واحدة: إلى الأمام وإلى الخلف بانتظام والنسوة يدرن حولها في دائرة سوداء واسعة، ويفعلن مثلها: ضربة قدم في الأرض، وضربة يد على الصدر. يدرن ويتأرجحن بنصف

الجسد العلوي، إلى الأمام، ثم إلى الخلف، يضربن الأرض بأقدامهن، فترن الخلاخيل، صانعة لحنًا جنائزيّا حزينًا، يتضافر مع كلمات النادبة التي تقف في مركز الدائرة كنقطة سوداء، تعدد مناقب الفقيد وهن يرددن خلفها:

"يا بنت ابكي على أبوكِ

غمضوا عينيه وهانوكي

اللي بابوها شَدّوهَا وشالوها

واللي بلا أب في الطريق يرموها".

كانت فطومة تجلس مع صويحباتها بالقرب من النادبات، وما أن سمعت عديد منذورة حتى انهارت بين أيديهن. ناحت وتمرغت في التراب ولطمت وجهها. توقفت منذورة عن "العديد"، وتوقفت النسوة، وأسرعن جميعهن إلى فطومة يواسينها، لكنها لم تهدأ حتى أخذتها الست كاملة، زوجة الشيخ منطوق جانبًا، وهمست إليها بكلمات ثم سحبتها من يدها، بعد أن أعلنت على الملأ: "سآخذها معي إلى المنزل". أومأت إلى مليحة أن هيّا، فتبعت والدتها وانسحبت في أثرها أيضًا أم حسين وفرحانة. ثم عُدن بعد فترة بطعام ساخن لأهل البيت.

أقسمت وجيدة أنها لن تتذوق الطعام بعد اليوم!! وأنها ستظل دون طعام حتى تلحق بزوجها، لكنها أكلت بعد ذلك. أما بقية النسوة فقد التهمن الطعام حتى صارت الأواني والأطباق نظيفة لامعة.

بعد ثلاثة أيام، كانت مراسم العزاء قد انتهت، وأصبح بيت وجيدة خاليًا إلا منها وأولادها. البيت الذي كان يضج بالحركة ورائحة الطعام الساخن أصبح خاويًا إلا من بكاء خافت بين الحين والآخر. إن أقسى الليالي وأطولها كانت تلك الليلة التي خلا فيها البيت من الأنفاس المتزاحمة، التي كانت تشغله ليلاً ونهارًا. أهملت فطومة نفسها وهيئتها لفترة ...ثم عادت للتزين، أما عبدون فلم يشغله وقتها سوى أن يثبت لنفسه وللناس أنه قادر على تحمل المسئولية، وأنه يستطيع أن يقوم بكل ما كان يقوم به والده من عمل، وأكثر.

في الأسابيع التالية، صار موت عبد الفضيل المفاجئ بهذا الشكل حديث الأحاديث بالنسبة للنساء والفتيات في الواحة. قلن إن زوجته حاولت منعه من صعود النخلة في اليوم الذي هبَّت فيه رياح شديدة، لكنه أصر قائلاً إن الشيخ سعد الله زاره في المنام، وأكد أن نخلته سوف تُثمر هذا العام، ولابد من تلقيحها. قالت زهرة، زوجة صبحي، إن الخالة وجيدة سمعت نباح كلب بالقرب من النخلة قبل أن يسقط عبد الفضيل بثوان معدودة، لكن أم حسين قالت إن ما تقوله زهرة كلام فارغ. قالت فرحانة إن سعد الله هذا ليس وليًا، وإن كل ما حدث من أمور كراماته هو أمر ملفَّق، فلما عاتبتها منذورة، محذرة إياها من مغبة ذلك الكلام، قالت لها: "إن كان وليًا فليمسخني ثعلبًا أو ذئبًا". ثم

أردفت مؤكدة على عدم مقدرته على تحريك حصاة من مكانها: وضعت يديها في وسطها، وقالت متحدية: "أنا منتظرة".

ظلت وجيدة أربعين يومًا كاملة لا تتخطى عتبة دارها. إلا إن جاراتها داومن على إرسال الطعام لها. كن يرسلن لها، مع بناتهن، بعض ما تجود به الأرض من حبوب وفاكهة وخُضر، وكن يحذرن بناتهن مرات ألا ينظرن في عينيها عندما يدخلن عليها البيت حتى لا تمسسهن لعنتها!!.

كانت فطومة معنا، عند عين النبع نملأ الجرار، عندما سقط والدها ميتًا. الصراخ الذي تصاعد في سماء الواحة تناهى إلى آذاننا. سمعته فطومة أولا، فصرخت ضاربة بيديها على صدرها. نزعت غطاء رأسها وشالت على شعرها الفاحم تراب الأرض، ونحن مذهولات لا نعرف سببًا لما تفعله، حتى أفصحت مولولة: "أبي، آه يا أبي، مات أبي".

سألتها ثريّا ابنة منذورة بعد أن بردت حرارة حزنها على موت أبيها: "كيف عرفتِ أنه والدكِ الذي مات، يوم سمعنا الصراخ؟" فأجابت: "قبَل موته بيومٍ واحد، رأيتُ "الذبابة الخضراء" تقف على رأسه. هشَشْتُها دون أن يدري، فطارت ثم عادت لتقف على رأسه مرة أخرى"، وتابعت موضحة: " الذبابة الخضراء روح هائمة من أرواح الأجداد الراحلين، إذا حطت في مكان فلا ترحل إلا إذا أخذت معها روح صاحبه!".

10

الساقية

كانت الرياح الساخنة المحمَّلة بالأتربة تُدحرج النباتات الشوكية الجافّة، فوق الكثبان الرملية التي تحيط بنا، بينما يتوغل الشيخ منطوق والعم بركات شمالاً، بين تلك الكثبان - في الأراضي المنبسطة المفروشة بالحصى - وأنا أسير وراءهما ببضع خطوات. الشمس الحارقة، أحالت صفحة السماء إلى لون أقرب إلى البياض بينما أشعتها تلسع جانب وجهي الأيسر فأتقيها بكفي. شمس الواحات تجفف الأبدان، تصبغها بالأسود الداكن، تجعلها أكثر تحملاً للعطش، أكثر تعوداً على المناظر الجهمة التي لم ولن تتغير: الصحاري العامرة بالشقوق والصخور والرمال والهوام، والنباتات الفقيرة، والحيوانات الجائعة، والمياه القليلة.

كانا يتحدثان بحماس عن الواحة وما آلت إليه الزراعات مع ندرة الماء. سار الشيخ والعم بركات متجاورين، والرياح التي ابتدأت تشتد، تتلاعب بطرفي جلبابيهما وتكشف أجزاء من سيقانهما ثم ما تلبث أن تسترها مرة أخرى،

بينما تتمايل أطراف النباتات المتناثرة في المكان... قال الشيخ:

- برغم أن الماء يقل والزراعات تتقلص، لكني أعتقد أن حل المسألة ليس مستحيلاً، يجب أن ننظر إلى أبعد من تحت أقدامنا.

"نعم يا شيخ، أرى أن نبدأ في الحال، فالحكومة لن تفعل شيئًا، كما أن حبالها طويلة"، قال العم بركات.

- أنت تعرف المعلم سعيد.

- تقصد سعيد الحفَّار؟

- بالضبط، سنذهب إليه ونتفق معه على حفر بئر جديدة.

- عين الصواب.

- نذهب إليه فور عودة سيارة رزق من السفر. نأتي بدولاب الحفر الذي يملكهُ ومعداته، ثم نبدأ على الفور.

"أرى أن تجمع الرجال ذات مساءٍ وتعرض عليهم هذا الموضوع ليكون الجميع على علم"، قلتً.

- رائع يا حسين، سوف أترك لك هذا الأمر. قِف في المسجد بعد صلاة العشاء واعرض الموضوع على الجميع.

- أنا؟

"نعم أنت، لم لا؟"

أجاب الشيخ، فأطرقتُ، بينما ربت العم بركات على كتفي.

اجتمع أهل الواحة في مضيفة الشيخ واتفقوا على الذهاب إلى المعلم سعيد الحفَّار. فقد جفت أطراف الحقول وتقلصت الزراعات، وظهرت بوادر خلافات وعراك حول نصيب كل فرد من ماء العين... لكن المعلم سعيد كان لديه عمل بالفعل في مكان آخر، ولن ينتهي منه قبل شهر.

حين وقفتُ في المسجد، في تلك الليلة، كي أُعلِنُ أن الشيخ يريد الناس في مضيفته للنظر في أمر مهم، تطلع إليَّ الكبير والصغير. كانت الفوانيس في أركان المسجد الأربعة تلقي بظلال المصلين في بؤرة واحدة صغيرة في منتصف المسجد. غمرني الضوء حينما وقفت، فارتبكتُ قليلاً بسبب تطلع الجميع إليّ. عرضتُ الأمر في كلمات قليلة. كان الشيخ موجودًا وكان يقدر أن يكفيني تلك المهمة.

تجمَّع القوم في مضيفة الشيخ: مروا من خلال السقيفة المعتمة، في مجموعات صغيرة، تتأرجح في أيدي بعضهم الفوانيس. الأقدام حافية، والأثواب بالية والماء شحيح، لكن الابتسامات على الوجوه لا تفارقها. مشيتُ مع بطانتي في ذيل السائرين وتناهت إلى آذاننا كلمات تصب كلها في مجرى واحد لا تحيد عنه، فانخفاض منسوب المياه هنا ليس بالشيء الهيِّن. إن نقطة الماء يمكن أن تنبت شجرة، أو تروي ظمأ حيوان، ولابد من حل.

حضـر الجمـيع ولم يتخلف أحـد، فـامتلأت المضيفـة بأصوات مختلفة ما بين ضحك وهمهمة وسعال.

استـأذن الشيـخ لدقـائق، ثم عاد حـاملاً ورقًـا قد اصفرّ لـونه وتآكلت أطرافه. جلس في صدر الحجـرة التي اصطف الرجال على جانبيها في صفين طويلين. جلس مربعًا قدميه، وحين وضع نظارة القراءة على عينيه، أصغى الجميع:

تلك الأوراق (التـي تعتبـر حُجـة للجميع، وعليهم أيضًـا) قد كتبها الآباء وبصمـوا بأصابعهم المغمـوسة في الحبر أسفلها. وقد قرروا فيها نسبة المياه التي تخُصّ كل عائلة على حدة، وبـالتالي مساحة الأرض التـي تحوزهـا". بدأ الشيخ في قراءة الأوراق معلنًا أن عائلـة فلان في حيازتها عدد كذا "أميلة"[٤] مـن الميـاه، وكـذا قيـراط من الأرض. وبعـد أن انتهـى قـال: "أردت فقـط أن أعلمـكم أن ميـاه النبع قد تنـاقصت، وذلك غير خفيّ عليكم، والعقل يقول إنها ستستمر في التناقص".

سرت أولاً بعض الهمهمة ثم تعالت الأصوات:

- إذن لابد أن نتحرك.

- ألم يـرسل الشيـخ عدة طلبـات إلـى إسمـاعيل أفندي، رئيس الدواليب، ولم يرد على طلباته أحد؟

(٤) تحسب مسـاحة الأرض التي يجب أن يمتلكها الفـرد في الواحات حسب ما يمتلك من نسبة مياه العين، لأن الأرض لا قيمة لها في تلك المناطق إلا إذا "ركبتها المياه". أضف إلـى ذلك صعوبة حفر الآبار. يحسب أهل الـواحات ميـاه العين بمـا يسمـى (الأميلة)، وهـي طـريقـة غـريبـة لا يـتبعهـا غيـرهـم، وطريقة حسابها معقدة بعض الشيء.

- وهل ننتظر حتى تتحرك الحكومة؟ يقولون إن يوم الحكومة بسنة.

- ما العمل إذن؟"

- نذهب للحديث مع سعيد الحفار.

- ذلك معناه أننا سنعمل بأيدينا في حفر البئر.

- إنه أمر شاق.

- بالفعل، سيستغرق الأمر عامين في أحسن الأحوال.

- نعم، سوف نحفر ما يربو على ستين مترًا، حتى نصل إلى الطبقة الحجرية للخزان الجوفي".

- هذا أفضل من أن نجلس كالنساء، نندب حظنا.

وهنا قال الشيخ: "هؤلاء الشباب متحفزون للعمل"، وأشار ناحيتنا ثم تابع: سوف نذهب إلى المعلم سعيد، ونأتي بدولاب الحفر، وكل ما يتعلق به من أدوات. سيأتي سعيد في البداية، وحين نشرع في العمل سنعتمد على سواعدنا، ذلك هدفنا وسنصل حتمًا إليه.

قام سليمان، وعندما خرج من باب المضيفة أشار إليّ، فقمتُ أتبعه. عندما وصلت إليه، سحبني من يدي قائلاً: "تعال نرى ماذا أعد أهل المنزل للرجال".

كانت عدة أطباق كبيرة من الخوص مملوءة بالرُطب، ومليحة جالسة مربعة قدميها وفي يدها "مَنَشَّة" من سعف النخيل تهش بها الذباب الذي يحاول أن يحط على

الأطباق. ما إن دخلنا حتى هبت واقفة، نظرت إلينا وأشارت إلى الأطباق قائلة، وابتسامتها العذبة لا تفارقها،:

"عودا بعد قليل لتأخذا الشاي". أومأتُ برأسي على الفور. دخل سليمان أولا وأنا تبعته. كانوا يتحدثون لا يزالون في أمر البئر. كان المعلم رزق يقول: ماذا لو انتظرنا حتى تردَّ علينا الحكومة؟

قال العم بكير: معك حق، هل سنقضي كل تلك المدة في الحفر، مَن سيقوم بأعمالنا خلال تلك الفترة، وهل نترك الزرع يموت والحيوانات تهلك؟!

قال الشيخ: لن نترك شيئًا يهلك يا رجال، إذا لم نبادر بحفر البئر سوف تموت الحيوانات ويهلك الزرع. سنقتسم العمل بيننا، كي يتابع كل منكم حقله دون تعطيل، المهم أن نتفق.. إنه مجرد بئر لا أكثر، ذلك أمر هين، لن نجوب الصحراء لاكتشافها ورسم خرائطها.

❖❖❖

عندما قرَّر أهل الواحة إصلاح تروس الساقية، وتبديل "قواديس"(٥) الماء المتهالكة. اجتمعوا هناك ذات عَصْرٍ، وجاء علام النجار يحمل أدواته وبصحبته ابنه بدر، وجئتُ أنا بعدهم بقليل. يهمني إصلاحها بالطبع لأنهم قد أوكلوا إليَّ

---

(٥) أوعية من الفخار تثبت بحبل غليظ في طارة الساقية المستديرة ، تغرف الماء من الجب لتفرغه في المجرى لري المزروعات.

أمر إدارتها وريّ أراضيهم، بعد وفاة والدي إثر سقوطه من فوق النخلة، هذا إضافة إلى أمر إدارة الطاحونة.

جلسوا تحت الأشجار التي تلتف كسياج حول الساقية. هرول العم بركات يجمع حطبًا من هنا وهناك، ثم عاد فكسَّر بعضه، وأشعل النار تحت السَخَّان الكبير. سكب العم رزق الماء من "بنّورة" الشيشة وشرع في تنظيفها وتجديد مائها استعدادًا لتدخين "حَجَر معَسِّل"، يدفئ الصدور في هذا البرد.

فار الشاي فوق الموقد الطيني، فرفعه بركات في خفة، ثم صب الشاي في الفناجين. ابتدأت الأفواه في رشف الشاي الساخن، وتبادل التدخين. يسحبون الدخان إلى صدورهم، ثم ينفثونه في الهواء. وأنا أرقبهم، ساحبًا ما يزفه الهواء إلي من الدخان قدر استطاعتي. يجلس العم بكير جانبًا، يرتشف الشاي في تلذذ، وينظر في اتجاه بيوت الواحة. هو لا يدخن ولا يحب رائحة الدخان.

ابتدأ علام في تفحص قطَع الأخشاب التي أعدها من قبل. يعرف أنها مناسبة تمامًا للأجزاء التالفة، في تروس الساقية، لكن لابأس من حركة منشار هنا، أو ضربة قدوم هناك. ابنه بدر يقف إلى جواره، يناوله الأدوات وهو يتأمل الوجوه مفتخرًا بما يصنع والده، وبين الحين والآخر يتفحص المسامير "الحدّادي" الطويلة، يقلبها بين أصابعه، ثم يضعها مكانها.

عندما وقف النجار، وقفوا جميعًا، واتجهوا وراءه ناحية الساقية، وعندما انحنى ليعمل، انحنوا أيضًا وهم يقفون خلفه في نصف دائرة، ملتفين حوله، وهو ينزع ما تلف من أجزاء الساقية. كانوا على أهبة الاستعداد. ينتظرون أية إشارة منه لمعاونته. كان بدر يتمشى خلفهم جيئة وذهابًا، يداه متشابكتان خلف ظهره، وهو على ثقة تامة بما يفعله أبوه.

اعتدل النجار أخيرًا، واعتدلوا من خلفه متجهين ناحية "طَارَة" الساقية التي تأخذ شكل دائرة كبيرة، يغطس نصفها في عمق الجُب بينما يظهر نصفها الآخر فوق ممشى الساقية.

امتدت ظلال الأشجار والنخيل، وكست المزروعات والعشب بلون أخضر داكن، وسرت في الجو نسمة هواء باردة، ارتعدت لها الأجساد. ما زال هناك بعض الوقت قبل أن تسقط الشمس خلف غابة النخيل.

قال الشيخ: هيا ياعلاّم، نريد أن ننتهي من استبدال "القواديس"، قبل أن تسقط الشمس، وتغافلنا العتمة.

قال العم رزق: كما أن الجو أمسى باردًا بالفعل. لا أرتدي إلا هذا الجلباب، ولم أضع في حسباني أي تأخير.

قال العم بكير: لابد أن "فرحانة" قد أشعلت النار في المجمرة الآن، لتدفئ القاعة قبل أن يهبط الليل.

علق العم بركات: أرى أن لديك رغبة عارمة في أن تطير إلى البيت، لتنعم بالدفء في كنفها. وضحك؛ فأضحك الجميع، وضحك العم بكير أيضًا.

قال النجار: هيا يا رجال، شمروا عن سواعدكم، نريد أن نفك وثاق القواديس كلها كي نستبدل المحطمة منها.

قال الجمع: توكلنا على اللّه.

تقدم علام ناحية الجُب وهو يغني بصوت خفيض. انحنى قليلاً ومد يده حتى يتمكن من الوصول إلى بداية الحبل، فانزلقت قدمه وهوى في الجُبّ. أطلق صرخة مزقت صمت المكان، ففرت الطيور من أماكن متفرقة فوق الأشجار. كان الجب العميق خاليًا من المياه بحسب نصيحة النجار الذي قال: "إن خلو الجب من المياه سيسهل علينا تحريك تلك الطارة العملاقة". التف الجميع حول حافة الجب وقد أصابهم الهلع. قاع الجب مظلم، ولا صوت للرجل بالأسفل.

كان بدر يبكي بكاءً مُرًّا ويزعق: "أبي، آه يا أبي"، والرجال يطلون برؤوسهم للأسفل ويزعقون: "علام، يا علام".

اعتدلتُ متقهقرًا خطوة قائلاً: "سوف أنزل أنا". استدار العم بركات ناظرًا إليَّ، وقال الشيخ: "أنت لها يا عبدون، يا ولدي". هرول العم بكير في اتجاه حماره المربوط أسفل شجرة زيتون... أحضر حبلاً طويلاً وعاد يلهث. لفَّ الحبل

على خصري وربطه جيدًا. أمسك الرجال بطرف الحبل، ونزلتُ أنا واضعًا قدمًا في حائط الجب من ناحية، والقدم الأخرى في الحائط المواجه، متحسسًا بأقدامي مكان الحُفَر الصغيرة في الجدران "الجَلِّيَة"، التي صُنِعَتْ خصيصًا للنزول، حال تنظيف الجب أو لأي طارئ يطرأ.

أنزل في حذر، عيناي على التجويف الذي سأضع فيه قدمي. أستند إلى الجدارين المتقابلين، مستخدمًا ضغط ذراعي وهما مفرودتان... أهبط حثيثًا، والرجال يقبضون على الحبل بأيد قوية، يشجعونني ويستحثونني بكلمة تجعلني يمكن أن أقطع الحديد، يقولون: "هيا يا رجل". عندما سمعتُ تلك الكلمة استعذبتها وتحرك داخلي إحساس بأهميتي بين المجموعة، تقافز قلبي فرحًا وأنا أرددها في نفسي: "يا رجل". (هأنذا رجل بين الرجال يا أبي.. رجل توكل إليه المهام الصعبة.. ليتك تنظر إليَّ الآن وأنا أجوس خلال الجب المعتم ولا أخشى شيئًا).

حالما لامست أقدامي قاع الجب، رفعتُ وجهي لأعلى قائلاً: "ها قد وصلت".

كان الضوء في الأعلى أكثر ألقًا من المعتاد.

تغطي المياه قاع الجب، وترتفع لما يقرب من قدمين.. كان علام يجلس في القاع وقد استند رأسه إلى الجدار الصخري، غائبًا عن الوعي تمامًا، والماء البارد يصل إلى صدره.

تساءل الشيخ: انطق يا رجل كيف وجدته؟

قلتُ: إنه بخير، اطمئن يا شيخ.

رفعته قليلاً محتضنًا إياه بين ذراعي، ثم انحنيت مجمعًا كل قوتي لأضعه على كتفي... كان الرجل غائبًا عن الوعي مستقرًا على كتفي بينما كان كل شاغلي أن أستطيع الصعود به وأنا على تلك الحال. إن قوة خفية تدب في جسدي، تمنحني قُدرة على حمل الرجل وصخور الجدار مرة واحدة... صاحت في ثقة: "اسحبوا الحبل يا رجال، لكن من فضلكم ببطء وروية".

كان الرجال يسحبون الحبل في بطء، وأنا أقتلع قدمي من فجوة "جَلّيَة" في الجدار الصخري، لأضعها في واحدة أعلى. كان الرجل على كتفي ثقيلاً مثل جثة هامدة. لا يسحبون الحبل إلا إذا أعطيتهم الإشارة وكنت مستعدًا لنقل قدمي، أقول: "هاه". فيسحبون الحبل معًا في توقيت واحد؛ بجذبة واحدة قوية وواثقة، قائلين معًا: "هيلا هوب". يكون الثقل كله عندئذ مرتكزًا على قدم واحدة، بينما قدمي الأخرى حرة تستعد للصعود. هكذا وعلى هذا المنوال خطوة بخطوة، حتى تسلموا الرجل من فوق كتفي وأنا خائر القُوى.

مددوه على ممشى الساقية، ثم أشعلوا النار إلى جواره... خرجتُ مبللاً أرتعد، وما أن أُشعلت النار حتى التصقتُ بها، مادًا يديَّ أفركهما فوق اللهب. انسحب العم بركات في خفّة إلى حقله، ثم عاد بغطاء دثَّر به الرجل وشرع في إعداد الشاي.

التفَّ الجميع حول الرجل، ولم يكن يُسمع سوى صوت أنفاسهم، وصوت تآكل الحطب وسط النار. سرى الدفء في جسد علام، فتأوه وهو يحرك ذراعيه ليشد الغطاء على وجهه. يبدو أنه اعتقد أنه نائم في البيت. نظر الرجال إلى بعضهم البعض، ثم نادوا في أصوات متفرقة:

- قم يا علام.

- هاه.. م.. اذا، ماذا؟

هب من رقدته منزعجًا.

"ألم تشبع من النوم؟"، نهره بركات ممازحًا.

- لماذا نمتُ هنا؟ ولماذا أنا متدثر هكذا؟

حَكَّ جبهته كأنه يحاول أن يتذكر شيئًا، والجميع ينظرون إليه. قال بركات:

"اسمعوا، لقد حلمتُ حلمًا عجيبًا".

قلنا: "خيرًا إن شاء الله".

قال العم بركات: احك، وإياك أن تبالغ.

قال علام: رأيتني وقد سقطتُ في جب الساقية عندما كنتُ أحاول فك قواديس الماء.

صمت لحظة، فرأى الرجال ينظرون إليه باهتمام وفي أعينهم كلام كثير. كشف الغطاء، ألقاه جانبًا، وظل ينظر إلى جسده وملابسه غير مصدق:

- أين ثيابي، ولماذا أرتدي جلباب الشيخ؟

أشاروا إلى جلبابه المبتل، المعلق في غصن الشجرة، وأفهموه أنه وقع بالفعل في الجب ولم يكن يحلم. كما أخبروه أني حملته على كتفي ثم صعدتُ به للأعلى. نظر الرجل إليَّ ممتنًا، وربت على كتفي بحنو الأب، فطأطأتُ رأسي خجلاً.

11

مَلِيحَة

بيت الشيخ منطوق - عُمْدة واحتنا وصديق أبي - هو آخر بيت أودّعه في طريقي إلى الحقل. هو أيضًا أول بيت أستقبله وأنا عائد من هناك. ذلك لأنه في أقصى الناحية الشمالية. إنه الأقرب إلى الحقول والأقرب إلى الكثبان الرملية العالية التي تزحف في اتجاه بيوت الواحة، وكلما اقتربت كتائبها تجمعت واتحدت في شكل جزر رملية واسعة، الأهم من كل ذاك، إنه البيت الأقرب إلى قلبي، البيت الأجمل في هذا العالم لأنه يضم بين حناياه قلبًا نابضًا بالدفء والمحبة: مليحة هي الفتاة التي تعني لي كل معنى للحقيقة: وجنتاها متوردتان على الدوام، وعيناها تختصران نقاء هذا العالم. تُمحَى الموجودات من حولها حينما أراها. يظل حضورها طاغيًا ومسيطرًا بما تحمل في داخلها من سكينة وصفاء نفسٍ يكفيان لأن يسود الود هذا العالم الذي أجهل حدوده.

جاءني سليمان اليوم. طرق الباب فأسرع شافع يستقبله مُتهللاً. كان عبدون قد شرب القهوة منذ لحظات قليلة

وخرج من بيتنا إلى الحقل مباشرة، ليدير الساقية. دسّ سليمان يده في جيب جلبابه، ثم أخرج ثلاثة أصابع كبيرة من الموز، ودفعها إلى شافع الذي ما أن رآها حتى صرخ فرحًا. سليمان لا يأتي إلا وفى جيبه شيء يمنحه لشافع؛ لهذا يحبه.

قال سليمان بعد أن جلس: "أريدك أن تذهب معي الآن إلى الحقل".

- حسنًا سوف آتي معك في الحال.

- ألا تسألني لماذا.

- ولماذا أسأل، ستجدني متى تحتاجني.

- هذا عهدي بك دائمًا يا حسين.

- على كل حال سأسألك: ماذا تريد؟

- جمعتُ صباح اليوم حِمل بطيخ من الحقل، فلنذهب لإحضاره معًا. أريد أن أجلبَ معي بعض الحطب أيضًا.

- معنى ذلك أنك تريدني أنا و...

- أنت والحمار. قال سليمان ضاحكًا، فضحك شافع ضحكة عالية اتفاقًا معه.

- حسنًا، سأذهب الآن لإحضاره.

- سأنتظرك أمام البيت.

ذهبتُ مسرعًا إلى الحظيرة. فككتُ قيد الحمار. وضعتُ "البَردَعَة" على ظهره، ثم ربطتُ القُفَّتين وطَوَّحتهما في

الهواء، فوقعتا على ظهر الحمار مباشرة. سحبته من مقوده، وكنت فوق ظهره بقفزة واحدة. انطلقتُ ناحية بيت الشيخ وأنا أمني النفس برؤية مليحة.

كان حمودة جالسًا على المصطبة أمام بيتهم، أسفل شجرة التوت. كان مربعًا قدميه ومزماره في فيه. يعزف لحنًا لأغنية نحبها جميعًا ونغنّيها معًا في الأفراح. كان يعزف ويتمايل برأسه يمنة ويسرة، عيناه مغمضتان وأوداجه منتفخة، بينما برزت عروق رقبته من شدة النفخ في المزمار.

حين صرت بمحاذاته، شددتُ مقود الحمار فتوقف. كانت السعادة تغمرني، فتمايلت مع حمودة مترنمًا بالأغنية ذاتها التي يعزف لحنها. فتح عينيه، عندما سمع صوتي، وابتسامة عريضة على محياه:

- إلى أين يا حكيم زمانك؟

- سأذهب مع سليمان لنحضر بطيخًا من الحقل.

- رائع، لن آكل حتى تعود. أريد أن آكل بطيخًا حتى لا أقدر على رفع إبهامي.

- لك ما تريد، أتمنى أن تأكل حتى ينفجر بطنك، ونستريح منك.

ضحكنا معًا، ثم أشرت له بيدي مودعًا وانطلقت وأنا أترنم بالأغنية.

قطعتُ الساحة التي أمام المسجد، وانعطفتُ يمينًا لأدخل في الزقاق المؤدي إلى بيت الشيخ. من هنا تمر الفتيات

ذاهبات إلى النبع لملء الجرار، أو عائدات من هناك. الزقاق مسقوف في منتصفه تقريبًا. يقع بيت علام النجار في بداية الزقاق. تمتد السقيفة لأكثر من عشرين خطوة بطول الزقاق، سقفها من جريد النخل المغطَّى بالسعف والطين، محمولاً على دعامات من جذوع النخل. ظلال السقيفة طرية وهواؤها بارد على الدوام. ربما كانت أبرد مما يماثلها من سقوف أخرى. حين تضربك حرارة الشمس بسياطها الملتهبة، ويغمرك العرق، تشعر كأن نارًا قد اشتعلت تحت جلدك، ثم تدخل السقيفة لتعرف الفرق بين الصيف والشتاء، بين لهيب الشمس المحرقة خارجها، ورحمة ظلالها الوارفة التي تحتويك؛ فتشعر كأن جسدك قد غطس في ماء الجُب البارد.

أكوام الحطب التي يجمعها علام النجار وابنه بدر تحتل جزءًا من السقيفة، وتمتد حتى شجرة السنط الواقعة إلى يمينها؛ شجرة ذات جذع ضخم وأفرع قوية تميل هنا وهناك.

قبل أن أدخل في ظل السقيفة المعتم، لمحتُ شخصًا يقف في المنعطف الأخير. شددتُ مقود الحمار فتوقف. دسَّ الحمار أنفه في الأرض يشم البعرات المبعثرة في الطريق. دققت النظر، فرأيتُ بدرًا يقف ذابلاً، يظهر جانب وجهه فقط. كان يشير بيديه كأنه يكلم أحدًا. لم أر أحدًا يقف في مواجهته، فاعتقدت أن مسًّا قد أصابه، وبعد لحظة قصيرة

رن في أذني صوت ثريا الحاد وهي تزجره: "اغرب عن وجهي في الحال". ترجلتُ سريعًا وسحبت حماري أسفل شجرة السنط متواريًا خلفها بحيث أرى المشهد دون أن يلحظني أحد. مرت ثريا تتبختر في مشيتها. لمحتُ جانب وجهها من خلف جذع الشجرة الضخم. تتبسم وتتلوى في مشيتها كأفعى. وما هي إلا لحظة قصيرة حتى مر بدر وهو يتعثر في مشيته. حاولتُ جاهدًا ألا يراني، فقد كان في حالة يرثى لها. هكذا هي حاله كلما التقى ثريا مصادفة في الطريق. ركبتُ حماري الأسود، مخترقًا ظِل السقيفة البارد. ثم خرجت من الناحية الأخرى وضوء الشمس يكاد يعشي عيني.

أمام بيت الشيخ منطوق، تسمق نخلتان، تنمو أسفلهما حشائش خضراء. ربطتُ الحمار في وتد مدقوق تحتهما قد اعتاد سليمان أن يربط حماره فيه، ثم يممتُ وجهي ناحية الكثبان الرملية العالية أتأملها؛ كثبان هلالية الشكل، متراصة متجاورة، ومتتابعة تنتهي قبل بيت الشيخ وتمتد ناحية الشمال إلى ما لا نهاية. كأنها جيش مدجج يستعد ليهجم هجمته الأخيرة.

كثيرًا ما سهرنا هناك، أنا وسليمان وعبدون وحمودة وزوَّام. حتى بدر الذي لا يحب الخروج من البيت ليلاً، كان يأتي معنا أحيانًا عندما كنا نتهمه أنه مازال صبيًا، يخشى مغادرة حضن أمه. كنا نخترق الزقاق مرورًا بالسقيفة حتى

نصل إلى بيت الشيخ، لنصطحب سليمان من هناك ونتوغل شمالاً. نهبط من كثيب لنصعد آخر حتى نستقر فوق جزيرة الرمال الضخمة التي كونها تجمع الكثبان. ينعكس نور القمر على حبات الرمال، فتلمع كنجوم متناثرة في السماء. من أعلى، نرى أسطح البيوت واهتزازات أضواء الفوانيس في النوافذ البعيدة، فتكبر في داخلنا الأحلام. أحلام الانفلات إلى عالم أرحب نرى فيه أناسًا آخرين، وحيوات لم نخبرها، وطرقًا جديدة لم تطأها أقدامنا بعد.

حين طرقتُ الباب لم يأتني إلا صوتها متشحًا بسحره الغامض:

- مَن بالباب؟

- أنا حسين.

مرت لحظة، ثم بزغ القمر من وراء الباب قائلاً: "أهلاً حسين"، لم تقل إلا تلك الكلمة، قالتها بهدوئها المعتاد، وابتسامة مضيئة تتهادى بين شفتيها. ما كل هذا البهاء الذي يغمرها... كيف تغيرت مواضع الأشياء في ناظريّ، كيف طُمست الأفكار في رأسي. بل كيف هوت الكلمات التي أعددتها في هوة سحيقة! مخطئ من أخبركم أن الكلام المنمق يستميل القلوب. لم أعد أنا حسين، ولم تعد الأشياء من حولي هي الأشياء ذاتها. مليحة فقط أمامي ثم يسيطر السكون وتنعدم الأشياء. كل سنواتي التي عشتُها في واحتي الصغيرة، كل لحظة فرح، كل لحظة يأس مرت بي، تجمعت

ﾀ في نظرة واحدة منحتُها لعينيها التي أوقفتني في منطقة غائمة بين اليقظة والمنام. عينان صافيتان واسعتان، وأهداب طويلة لامعة، وروح تغمرها السكينة.

هل تسمعينني؟ ألا ترين بساتين الشوق التي تُثْمر في عينيَّ؟ هل يهتز فؤادك طربًا مثلي؟ ألا تمدين إليّ يدًا تنشلني من جب أيامي المظلم؟

"أهلاً مليحة"، قلتُ وأنا أمد يدًا من الشوق باتجاهها، فما كان منها إلا أن منحتني أصابع يدها، فقبضت عليهما لأول مرة بعد دهر من الحرمان.

لا أدري كم من الوقت مرَّ بنا ونحن واقفان. تسافر نظراتنا جيئة وذهابًا. كانت ممالك قد سقطت وقامت غيرها، واحات هُجرت وازدهرت أخرى ونحن على حالتنا تلك. قالت: "تفضل، فعرفتُ أنني حسين، وأن اليوم هو الجمعة، وأن سليمان قد جاءني منذ قليل لأذهب معه إلى الحقل. دخلتُ آسفًا على اللحظة التي مرت. سبقتني إلى الداخل وأنا تبعتها. جلستُ حيث أشارت بيدها، بالقرب من كتاب ضخم، يستقر على فراء أسودٍ.

كان الكتاب مفتوحًا عند منتصفه تقريبًا، وعوينات الشيخ الزجاجية، التي يقرأ بها تستقر فوق الصفحات. تركتني مليحة قائلة إن سليمان سوف يعود في الحال، فأومأت برأسي موافقًا وأنا أتأمل وجهها المتورد، ثم تابعتها وهي تغيب، ساحبة معها كل نقطة ضوء في المكان.

تناولتُ نظارة الشيخ، وقررت أن أضعها على عيني لأنظر كيف يصير حجم الكلمات، فإذا هي كبيرة بالفعل. قرأت سطرًا، ثم سطورًا... غاب العالم من حولي وأصبحتُ أنا والكتاب كيانًا واحدًا.

انتبهتُ على صوت قدمي الشيخ، وهما تهبطان الدرج فاعتدلتُ واقفًا. لما رآني علا صوته مقهقهًا، برغم أنه نادرًا ما يرتفع صوته هكذا. اعتقدتُ أنه يسخر مني، فحزنت. لكنه اقترب مني وهو لا يكاد يسيطر على نفسه من الضحك، حتى صار الفاصل بيننا مقدار خطوة واحدة، وامتدت يداه لترفع النظارة من فوق عيني. تذكرت الآن أنها ما زالت هناك، فبادلته بضحكة خجولة، بينما ربت على كتفي قائلاً:

- مرحبًا يا حسين، أعرف أنك تحب القراءة مثل عينيك.

- مرحبًا يا شيخي.

- جميعكم بخير؟

- الحمد لله.

- والدك سيأتي قريبًا، ربما تعود سيارة رزق هذا المساء، أو في الغد على الأكثر.

- لقد وعدني أنه سيحضر لي ساعة أعرف بها الوقت، لقد رأيته في المنام ليلة أمس، وهو يعطيني إياها.

أخرج الشيخ من جيبه ساعة ذات غطاء معدني، معلقة في سلسلة ثم قال: "ماذا نفعل بالساعات هنا؟ تعرف، أنا لا أحمل ساعتي تلك إلا نادرًا، فالوقت يمر كما قدر اللّه له أن يمر، أليس كذلك؟".

"بالطبع، أعلم أنه لا جديد على الإطلاق، نفس الأشياء والوجوه، الأشجار والحقول، الصحراء بصخورها السوداء وكثبانها العالية، يوم الجمعة مثل يوم السبت، نخرج من البيت إلى الحقل، ومن الحقل إلى البيت.. هكذا تمر الأيام والسنون".

– لا تحزن يا بني، أعرف مدى طموحك وتطلعك إلى رؤية عالم مختلف، لا تتعجل يا حسين، فالعمر مازال أمامك، لقد أخبرني والدك أنه سوف يسمح لك بالسفر.

– متى؟

– ربما العام القادم.

تهلل وجهي فرحًا، ثم قلت في نفسي "إنْ أنا سافرت، فلن أرى مليحة لمدة طويلة"، لذا تغيرت ملامح وجهي ثانية ولاحظ الشيخ ذلك:

– ماذا، ألا تريد أن تسافر؟

– كلا، بلى، لا أدري.

– بل ستسافر وترى الدنيا، ولا تقلق بشأن أي شيء آخر. كن مطمئنا. مليحة"، قال ذلك ثم صمت قليلاً وتابع: ألم تحضر لك شيئًا تشربه؟

- كلا، لا أريد.

- أنت واحد منا فلا تخجل، سأشرب شايًا الآن، فلنشرب الشاي معًا حتى يأتي سليمان. وزعق مناديًا مليحة، فجاءت مسرعة والماء يقطر من يديها. تطلعتُ إليها فرمقتني بنظرة تحمل ما تحمل من الود.

- اصنعي لنا شايًا.

- حاضر.

سمعتُ نهيق حمار سليمان من بعيد، ثم صوت حماري يرد له التحية فقلت: "ها قد جاء سليمان". قال الشيخ: "لن تخرج حتى نشرب الشاي".

ذات يوم كنت أجلس على المصطبة خارج دار الشيخ؛ أنتظر سليمان حتى يخرج، فلما رآني الشيخ عند خروجه رفع يده مُرحِّبًا. انتفضتُ واقفًا حال رؤيته، ثم قلت:

- مرحبا بك سيدي، أنا أنتظر سليمان.

أومأ برأسه ثم أشار لي بالجلوس، وقال بعد أن جلس قريبًا مني:

- سليمان يحبك يا حسين، فهو يتحدث عنك دائمًا.

- نعم يا شيخ، فهو صديقي.

"أعرف أنكما أصدقاء، لكني كنت أتساءل إذا ما كانت الصداقة تورّث؛ والدك صديقي المقرب رغم أني أكبر منه سنًا، وتصادف أنكما أصدقاء أيضًا، المصادفة الثانية هو

أنكما ولدتما في يوم واحد، كان ذلك منذ ما يقرب من سبعة عشر عامًا".

كان الشيخ يحدثني ولا ينظر إليّ، بل ينظر في اتجاه الكثبان الرملية الهائلة التي تطل علينا من الجهة الشمالية. يبدو أنه أراد حينئذ أن يوصّل إلىّ معلومة ما، لأني أذكر أنني سألته عما إذا كانت هناك حياة خلف حافة الهضبة التي تحيط بالواحة، أو آثار لبشر في تلك المناطق النائية المسكونة بالرمال، لكن نظراته ظلت عالقة هناك في اتجاه الرمال التي تقترب في كل عام من البيوت؛ تحرّكها الرياح الشمالية – التي تهب معظم العام – قاصدة الجنوب، وتعمل في نفس الوقت على تلاحمها لتتكوّن جزيرة عظيمة من الرمال، نسهر فوقها أنا وأصدقائي في ليالي السمر المقمرة.. تابع الشيخ حديثه قائلاً:

"أما نحن فقد ولدنا هناك"، قال وهو يشير بإصبعه في اتجاه الكثبان الرملية.

كنت أعرف أن البلدة القديمة قد طمرتها الكثبان الرملية، التي تتقدم الآن في شكل أقواسٍ كبيرة، قاربت على الامتزاج.

"انظر، تلك الرمال تحتها بلدة كاملة قائمة: البيوت، الأزقة المسقوفة، ضحكاتنا ونحن أطفال، صراخ النساء عندما يموت شخص عزيز، ليالي البهجة والفرح، حتى رائحة أنفاسنا تركناها هناك بعد أن طمرتها الرمال. هناك

مسجد يتوسط البيوت أيضًا، كأنه هو. هل تعرف أن هذه البيوت التي نسكنها، تشبه تمامًا تلك التي طُمِرت؟ قُلْ إننا نقلناها هنا"، قال الشيخ.

"أعتقد أنه نوع من الإصرار والتحدي، دون النظر إلى تلك الأخطار، أنتم شجعان يا شيخ.. لا أدري إن كنا نستطيع أن نفعل ما فعلتموه".

قلت مشيرًا إلى الكثبان الرملية التي أمامنا.

"حقًا، كنا نود أن نشعر أننا لم نُرغَمْ على ترك ديارنا، برغم أن إحساس الفقد لازمنا لسنوات طويلة، ثم خفَّت وطأته رويدًا رويدًا، حتى أصبحت لنا ذكريات هنا وبدأنا نتآلف مع البيوت. لكن ذكرياتنا هناك ما زالت حاضرة في قلوبنا، تشعرنا بالدفء حين نستعيدها. عندما استشعر آباؤنا الخطر الآتي، ابتدأوا يفكرون في النزوح".

البيوت متقاربة محتشدة ذات حدود متلاصقة، حتى أنها تظهر للرائي كتلة واحدة مستديرة. كل البيوت هنا تُعطي ظهرها للصحراء الشاسعة في الخلف، كأنما تخشى النظر إلى الوحش القادم نحوها في إصرار لا يفتر. إنها تُعطي ظهرها للمجهول الغامض اللا محدود، بينما تنفتح جميعها نحو الداخل؛ ينظر بعضها إلى بعض في دائرة مكتملة، لا يثقبها سوى أفواه الأزقة في نهاياتها. تبدأ الأزقة من ميدان المسجد الصغير الذي يتوسط المكان، وتمتد متعرجة حتى

تُشرف على الفراغ الواسع من حولها. وبرغم تداخل البيوت وضيق حجراتها إلا أنها تمتلك أمامها أفنية هادئة رحيبة، تستقبل وجه السماء الصافي وتتخللها بعض أشجار النخيل والفاكهة.

تُشرف الأزقة الشرقية والجنوبية على صحراء شاسعة، تتخللها أحجار سوداء ناعمة ذات أشكال مختلفة، تتناثر خلالها أشجار السنط والدوم والعبل البلدي ونباتات العُشَر والحلفا؛ مشهدٌ متسع فسيح في الأسفل، تظلله قُبة السماء الزرقاء الهائلة في الأعلى، لا يفصل بينهما سوى حافة الهضبة التي تبدو شاهقة في الشرق، وتنخفض تدريجيًا في الجهات الأخرى. تدور حول الواحة مثل سور ضخم في الشرق، ثم يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى يذوب تمامًا في الغرب.

يمتد الزقاق، الذي يؤدي إلى بيت الشيخ منطوق، من المسجد لينتهي عند الفضاء الواسع الذي تزحف ناحيته الرمال في الجهة الشمالية، جزء منه مسقوف - شأنه شأن بقية الأزقة - بداية من شجرة السنط العتيقة المجاورة لبيت علام النجار حتى بيت الشيخ. في الغرب، يمتد زقاق الطاحونة المظلم الذي يُفْضي في نهايته إلى المقابر، حيث يبدو الخلاء خلفها رحيبًا منبسطًا لا يكسر انسيابه سوى قمم متعرجة لسلاسل من الرمال المسافرة إلى الجنوب الغربي. حيث تظهر للرائي، في الليل، مثل أسنمة الإبل.

يتحدث الشيخ معي، كأني في مثل عمره تمامًا. يحدثني قائلاً: "هل تعرف؟". كأني أعرفُ حقًّا كل ما يحكيه، أو كأني لا أعرف شيئًا... كان أبي - برغم أسفاره المتكررة وطول مُكثه خارج الواحة - يحكي لي شذرات صغيرة من تلك الأمور في أوقات الصفاء. يجلس شافع بيننا، ينظر إلى أبي وهو يحكي، بينما يتصاعد الدخان من الشيشة. يحب شافع أن يستمع إلى أبي وهو يحكي ويقلده في كل شيء: مشيته، طريقة نظرته، ملامح وجهه وهو غاضب، بل إنه يأمر أمي أن تحضر الطعام بنفس نبرات صوت أبيه، قائلاً: "الطعام يا بنت"، فنضحك جميعًا. لذا يصبح يوم رحيل أبي إلى القاهرة يومًا طويلاً مضنيًا للجميع. يبكي شافع، فلا يستطيع أحد إسكاته. يظل تائهًا لأيام، لا يلعب ولا يضحك، كأنه فقد لسانه. لقد بلغ التاسعة بالكاد ويُرضي غروره أن يرى أباه يعمل - مثل بقية الرجال - في الحقول صباحًا، أو يراه جالسًا معهم في ظل السقيفة، أو تحت شجرة الكافور الظليلة، وقت القيلولة.

يصبح أخي الصغير شخصًا آخر، عندما يعود أبي من السفر. يلعب ويصارع الأولاد، ويؤكد لهم أن أباه يستطيع أن يهزم آباءهم جميعًا.

دخلنا في عمق الحقول، فاستنشقنا رائحة زهور مختلطة برائحة طين الأرض. نهق حماري وتبعه حمار سليمان فتردد صدى صوتيهما بين كثافة أشجار الفاكهة والنخل.

عندها سمعنا صوتًا يستغيث: "يا هووووه، يا هووووه". قال سليمان: "إنه صوت عبدون، أنا لا أخطئه".

اتجهنا مباشرة ناحية الصوت. كان عبدون يقف على طرف حقل المعلم رزق بثوب ممزق، ملطخًا بالطين والوحل، وعلى ذراعيه المكشوفتين آثار جروح صغيرة. حين لمح دهشتنا أشار إلى آثار أقدام الثور التي صنعت حفرًا عميقة في الأرض المرويّة في أول النهار ثم قال: "لم أستطع اليوم أن أسيطر على الثور. بعد أن فككت قيده هاج وماج، قفز هنا وهناك ضاربًا الهواء بقائمتيه الخلفيتين، وكاد أن يصيبني في رأسي لولا ستر الله، كنت أقبض على مقوده بأيد من حديد، وهو يجري بي كيفما اتفق حتى جرجرني في وحل الأرض وأنا الآن كما تريان".

"أين الثور الآن؟"

سأل سليمان.

"جرى من هذه الناحية"

أشار عبدون ناحية أرض العم بركات.

"لا بد أن بقرة العم بركات قد طلبته، فلبى نداءها"، قلتُ مفسرًا.

قال عبدون: اسمع يا حسين، ليس هذا وقت المناسب للمزاح.

قلت: أنا لا أمزح، صدقوني، لقد شم رائحتها. الذكور تعرف متى تطلبها الإناث للتزاوج. هيا، لن نخسر شيئًا.

استشعر عبدون صدق حديثي فتبعني، وسليمان أيضًا.

وقف الثور في الخارج، عند حظيرة العم بركات، وهو ينطح السياج برأسه محاولاً الدخول. وعندما اقتربنا منه فرّ هاربًا، ثم وقف عند طرف الحقل. فما كان مني إلا أن فتحت باب الحظيرة ودخلت، ففككتُ قيد البقرة وخرجتُ بها، فما أن رأت الثور حتى حاولَت أن تجرَّني نحوه. لمحها الثور من طرف الحقل فجاء نحونا بخطوة الواثق، وأنا تقدمت نحوه ببطء ولما اقترب سحبت البقرة وقفلت راجعًا حتى أدخلتها الحظيرة، والثور يتبعنا. ابتعد سليمان وعبدون حتى دخل الثور ثم أقفلا الباب. تركناه في الداخل حتى أشبع رغبته، سحبه عبدون، بعد ذلك، ناحية الساقية مهددًا إياه: "هيا أيها العاشق، أصبح عملك الآن أكثر مشقة".

علق الثورَ في الساقية بعد أن وضع الغطاء على عينيه وضربه ضربة خفيفة على مؤخرته. تحرك الثور بخطوة منتظمة وهدوء عجيب. كنت أستمع إلى خرير المياه وهو يتساقط متتابعًا من "قواديس الفخّار" المشدودة إلى "طارة" الساقية التي تغرف المياه من الجُب وتدور، لتفرغها في المجرى.

اندفع عبدون ناحية "الزير"، رفع غطاءه ودسَّ الكوب داخله. شرب، ثم أعاد الكرَّة مرة أخرى كأنه لم يشرب منذ أسبوع. وعندما سمعنا نضحك، ضحك قائلاً: "هذا الشقي، جفف حلقي وأنهكني من جراء العَدْو خلفه".

قال سليمان: على الأقل حقق ما يصبو إليه.

كان سِرب من الطيور يعبر فوق رؤوسنا. نظرتُ إليه متأملاً، وأنا أشير ناحيته، فنظر الصديقان:

قلتُ: تلك الطيور تعرف مقصدها جيدًا، وتندفع نحوه دون تكاسل.

سألني عبدون: ماذا تريد أن تقول أيها الحكيم؟

قلت: حدد الثور هدفًا، ثم اندفع إلى تحقيقه بقوة طموحه وإصراره.

قال عبدون: يا له من هدف.

قلتُ: قال لي الشيخ ذات يوم: "إنك تستطيع السير في أرضٍ لم يطرقها بشر، حتى لو اختلطت عليك دروبها، تقدر أن تصل إلى غايتك"، وحين رأى حيرتي قال: "عليك فقط أن ترغب في ذلك وتطمح إليه. انظر يا بني، الطموح هو دابتك التي تقطع بك الفلوات، كي تبلغ ما تصبو إليه".

قال عبدون: هيا اجلسا، سأصنع لكما شايًا.

ألقى عبدون عبارته تلك بلا مبالاة. لن يصنع شايًا، لكنه أراد الخروج من هذا الحوار الذي يرى أنه لا طائل من ورائه سوى وجع الرأس.

قلتُ وأنا آخذ بيد سليمان؛ أحثه على التحرك: لا يا عم، لا وقت للشاي الآن.

ما أن تحركنا حتى لمحتُ عبدون واقفًا، بشعره المنكوش، وجلبابه الممزق الملطخ بالطين، يتفحص جروح ذراعيه، يتحسسها بأصابعه كأنه يراها للمرة الأولى.

أُنهك الحماران تمامًا حين بلغنا بيت الشيخ. كان الحمل ثقيلاً والطريق المؤدي إلى الحقول يلتف عند منتصفه ليدور حول الكثبان الرملية العالية التي تقطع الطريق. قائمتا الدابتين تغوصان في الرمال، ماإن يقتلعاها حتى تغوص مرة أخرى كأن عفريتا يجذبها للأسفل.

صارت ثمار البطيخ كومة كبيرة في منتصف القاعة. لم أر مليحة طوال الفترة التي كنا نفرغ فيها ثمار البطيخ، فحزنتُ وضاق صدري. اليوم هو يوم فاصل في حياتي. لقد تلبستني نظرتها وسَرت مع دمي. مازلت أشعر بدفء أصابعها في كفي. كل ما قاله الشيخ عن الطموح يجب أن أؤمن به، أُشعلُ ناره داخلي. فلآخذ على نفسي عهدًا من الآن أن تكون مليحة لي ذات يوم.

استأذنتُ سليمان في الانصراف رغم إصراره في أن أبقى لبعض الوقت. قاومت رغبتي في المكوث وخرجت وأنا أقتلع قدمي اقتلاعًا. وضع سليمان أربع بطيخات كبيرة في القفتين قائلاً: " اثنان لك واثنان لحمودة، ربما يرضى". ثم عاونني في رفعهما على ظهر الحمار.

سحبتُ مقود الحمار ومشيت في خطوات وئيدة. لم تكن بي أدنى رغبة في الركوب. أحدق في اللا شيء، بينما

صورتها أمامي تقف في مواجهتي، منبسطة الملامح، عيناها تلمعان في ألق غريب، ورائحة أنفاسها الدافئة كرائحة زهور تفتَّحت للتو. إن الجمال الحقيقي ينبعث من الداخل مثل ضوء، ثم ينعكس على الجسد فيكسبه شكلاً ورائحة.

قبل أن أنعطف لأدخل الزقاق، سمعتها تسعل خلف خصاص نافذة حجرتها التي تقع في ركن البيت، أقصى اليسار. توقف قلبي وتسمرت قدماي، وتوقف الحمار خلفي مستسلمًا لتوقفي المفاجئ.

ظللتُ منغرسًا لفترة قبيل انعطافة الزقاق، أتطلع للنافذة التي انفرجت قليلاً ليظهر منها جزء من وجهها البهي. حملتُ عليها بنظرةٍ تجئ من سفر داخليّ بعيد، وترغب في أن تحط رحالها لتستريح. انفرجت النافذة قليلاً وظهر وجهها كالبدر في تمامه. لم تقل سوى كلمة واحدة "هاك ". ألقت إليَّ بحجرٍ صغيرٍ، ثم أوصدت النافذة إلا قليلاً. لم أصدق نفسي وأنا التقط الحجر المستدير من الأرض، أنفض عنه الغبار، أتشممه وأقبّله، بينما نظراتي لا تحيد عن النافذة المفتوحة قليلاً، والتي أجزم أنها تقف خلفها الآن لترى ردة فعلي. إن ذلك الحجر المستدير هو أثمن ما أملك الآن. أدنيته إلى صدري وأنا أنظر نحو النافذة قائلاً: " أهديتِني إياه أخيرًا؟ أعاهدك يا مليحة ألا أكون إلا لكِ". ثم رفعت صوتي قليلاً: "أحبك، وأعدك".

ذلك الحجر الصغير الذي ربما لا يفيد في شيء، لكنه أثمن ما في الوجود إذا ألقته إليك فتاة؛ لأنه يعني أنها تعاهدك على المحبة والإخلاص إلى الأبد.

دخلتُ في عمق الزقاق، ساحبًا الحمار خلفي. أمشي مُتحسسًا الجَمال في كل شيء. تغيرت الدنيا من حال إلى حال، في لحظة. لقد ألقَت إليَّ بحَجَر الرّباط. سأحتفظ به إلى أن نتزوج... أريد أن أمشي هكذا طوال اليوم. ما بالها السماء اليوم أكثر صفاءً، والهواء عليل، و...

"أين البطيخ؟".

تفاجأتُ بحمودة أمامي في مدخل الزقاق، فانتفض جسدي ورجعت خطوة إلى الوراء.

- ما بك؟ هل رأيت عفريتًا؟

- قبحك اللّه يا حمودة، ألا تبدأ بالسلام؟ أخبرني أولاً، أين كنت؟

- كنت في الحظيرة، أُطعم الذين لا يكفّون عن طلب الطعام. لكن، تعال هنا وأخبرني، فيم كنت تفكر بهذا العمق؟ ولم هذا الشرود؟ وما هذا البريق الذي أراه في عينيك؟ هل أنت مريض؟ لماذا أنت صامتٌ هكذا؟ أجب، هل انسد حلقك؟

قلتُ بينما أشير إلى القُفَّتين فوق ظهر الحمار: ما كل هذه الأسئلة يا ولد؟ خُذ بطيخة من هذه الناحية، وخذ واحدة أيضًا من الناحية الأخرى، واغرب عن وجهي يا ابن بركات.

قال حمودة: لمَ لا آخذهما من ناحية واحدة؟

قلت: يختلّ الحمِل ويسقط، يا أذكى خلق الله.

قال حمودة: طبعًا يختل، مثل عقلك يا مُختل.

قلتُ: امش معي إذن، عند البيت سأعطيك الثمرتين.

مشينا معًا، وحاول حمودة أن يستنبط أية إجابات على أسئلته، لكن محاولاته باءت بالفشل. حدثته عن فكرة السفر إلى القاهرة، بعد أن يعود أبي هذا العام، فاتهمني بالجنون وقال مُعقبًا، وهو يشير إلى نفسه:

"هل تذكُر عندما أخبرك الشخص المتواضع، الماثل أمامك الآن، منذ عامين، عن حلمه بالسفر إلى القاهرة، ورغبته في أن يمسح الله هذه الواحة من الوجود؟ الآن أنصحك بأنه ليس هناك أجمل من الجلوس في ظل شجرة التوت، وعزف المزمار".

- أتمنى لو استطعتُ السفر يا حمودة".

- اغرب عن وجهي وسافر الآن. هناك صنف من الناس أمثالك لا تعجبهم الراحة.

- ماذا أفعل بالرّاحة؟ افهمني يا حمودة، أريد أن أرى الدنيا عن كَثب، أتمنى أن أعيشها بكل فورانها وأحداثها.

- يا رجل، أرح دماغك وانس هذه التفاهات. ما الذي تبغيه من ذلك؟ هذه المجاهل لا يوجد بها سوى الضباع والذئاب والثعابين.

- ما زلت لا تفهمني.

أوقفتُ الحمار تحت شجرة التوت، وحمودة ينظر متحيرًا، أي الثمار يختار، فدفعته جانبًا وقلت له: "فيم الحيرة أيها الجشِع؟ سوف أحضر لك أكبرها". وبينما أحاول إخراج البطيخ لمحتُ أمام بيتنا شيئًا غريبًا: يدخل أناس ويخرج آخرون، الأطفال جميعهم أمام البيت يلعبون مع شافع. تركتُ الحمار بما عليه وتركتُ حمودة وأطلقت ساقيّ للريح في اتجاه البيت. أخذ حمودة يصيح خلفي مستفسرًا: "ماذا هناك يا حسين، لِمَ تجري هكذا؟". لم ألتفت إليه، لكني لوحتُ له بيدي وأنا أُواصل العَدْو.

تيقنتُ أن أبي قد عاد للتو من العاصمة، عندما لمحتُ العم بركات يخرج من منزلنا وفي يده صُرَّة. ارتبكتُ واهتز القلب فرحًا وطارت بي روحي في الخلاء الفسيح. تنهدتُ عدة مرات وكاد الدمع يطفر من عينيَّ، وأنا أمدّ الخطو ناحية البيت بينما يسبقني قلبي ويسحبني خلفه. كان شافع يقود الأطفال؛ ينظمهم ويُكلف كلاً منهم بدور في اللعبة التي يلعبونها. صار صوته - الذي لم يكن يرتفع - واضحًا جليًا ومملوءًا ثقة وبهجة. لابد أن الأطفال يوقنون في قرارة أنفسهم أنه صاحب الحفل وعليهم طاعته.

خارج البيت، كانت قشور الفول المحمَّص متناثرة في كل مكان، وأيضًا أغلفة مفضَّضة وملونة صغيرة. يبدو أن الأطفال أخذوا نصيبهم من الحلوى والفول السوداني، فأكلوا ونثروا البقايا أمام بوابة البيت، ثم تفرغوا لألعابهم

تــاركين شــافع يقــودهــم، علــى أمل أن يختلـس لهـم بعـض الحلوى فيما بعد.

تخطيت بوابة البيت ووصل إلى مسامعي صوت قهقهات الرجال وأصوات النسوة من الداخل وضحكاتهن مع أمي. كان أبي يجلس وقد انبسطت أساريره. عن يمينه جلس الشيخ منطوق وعلام النجار، وعن يساره العم بكير والعم رزق. حين رآني قام متهللاً ثم ضمني بين ذراعيه وهو يضحك:

- كم أفتقدك يا حسين. كيف حالك يا بني؟

- أنا بخير مادمت أنت بخير يا أبي.

- الحمد لله، قال ذلك بينما لمحتُ بريقًا في عينيه، كأن دمعتين قد استعدتا للهطول.

"حسين رجل يُعتمد عليه"، قال الشيخ.

- أنا متأكد من ذلك، آه، كدتُ أنسى، أحضرت لك هديتك.

- شكرا لك يا أبي.

جلست في مواجهتهم أنظر لأبي، أتأمل ملامحه؛ وجهه، نظراته وحركات يديه. لم أر الشيء الذي يقبع إلى جواره إلا بعد فترة فشهقت. أخيرًا أصبحنا نمتلك راديو، نعرف من خلاله أخبار الدنيا. لا يوجد في الواحة كلها إلا جهاز واحد، لدى الشيخ. أصبح الآن لدينا جهاز آخر، هكذا تتسع نافذة الرؤية؛ فما كنت أتخيله أو أخمنه سوف أعرفه يومًا بيوم.. شكرا لك يا أبي.

12

ضوء الفانوس

كنتُ أدير الساقية لأروي أرض "المعلم رزق". لم أتأخر في الحقل بهذا الشكل إلا مرات قليلة. قبل أن تسقط الشمس خلف الأشجار الكثيفة، غرب الحقول كانت الرياح قد اشتدت: اهتزت أفرع الأشجار، وتلاطمت أطراف جريد النخل، وتدحرجت أكوام الأشواك على الممشى، عند رأس الحقل.

سكنت الرياح بعد أن غربت الشمس بقليل، سمعتُ الآباء يقولون: إن الرياح الطيبة تهدأ وتسكن تمامًا مع مغيب الشمس، أما الرياح التي يستمر عبثها إلى أن يجنّ الليل فيجب أن نخشاها؛ ذلك لأن العفاريت هي التي تحركها، وتعبث بها.

عمَّت الظلمة، بعد ما فرّ النهار إلى قمم الجبال ثم اختفى تمامًا. أحكَمَ الليل صمته الكثيف على كل الموجودات وكمَّمَ أفواهها فلم يعد يُسمع في هذا الكون سوى صمت زحف الهوام تحت أوراق الأشجار الجافة. هناك تحت

سماء الواحة المنكمشة، يتساقط الظلام من السقوف ناسجًا ستائره السوداء على جدران البيوت.

أضأتُ الفانوس، فصنع هالة صغيرة من الضوء، وتكاثرت حوله فراشات لا حصر لها. جلستُ أتأملها، لا أعرف من أين أتت، لا أعرف سر وجود مثل تلك الكائنات؛ إن لم تكن تضر ولا تنفع، فلماذا خُلقت من الأصل! اندفعت الفراشات نحو الضوء، محاولة الوصول إليه، أو إلى حقيقته، كما قال الولد حسين، كانت الفراشات تحاول معرفة كُنه ذلك الضوء فتصطدم بزجاج الفانوس المُحْكَم حول الشُعلة، وترتد خائبة، لتعيد الكَرَّة من جديد، ولا تيأس أبدًا.

اختفى العالم من حولي، تلاشى تمامًا بعد أن ركزتُ ناظريَّ وتفكيري فيما تفعله تلك الكائنات الهشة الصغيرة التي لا تيأس. عيناي ثابتتان على هذا العالم الصغير الذي يضج أمامي بالحركة، أشعر أني في قلب شُعلة الفانوس التي ابتدأت تتسع من حولي وتضيء مجاهل كثيرة، لم أعد أرى شعلة القنديل لأنّي صرتُ داخلها: "هل هذا هو السعي الدائم لمعرفة الحقيقة؟ محاولة الوصول إلى ما يسميه الشيخ منطوق وتلميذه بجوهر الأشياء؟ هل هذا هو الطموح والسعي المتواصل نحو الهدف؟".

أمسى العالم أكثر صفاءً ووضوحًا، وبلا معوقات. تسري الحياة، عبر النار، منسابة، سلسلة.. هذا أنا، بجلبابي

المهترئ أعدو لأختبئ من أبي في كومة القش الكبيرة. خبأت رأسي وظننتُ بذلك أنه لن يراني! أبي، بصلعته اللامعة التي يحيط بها الشعر من جهات ثلاث، كان يُفرط في شُرب الماءِ، لا يرتوي منه صيفًا ولا شتًاء؛ يقول: ماء الصحراء لا يروي ظامئ، كان رجلاً هادئًا، لا يحب ارتفاع الصوت، ولا يعرف الشجار، صامتًا كان، وظل هكذا حتى مات.

يقول حسين إن كل شيء في صعود دائم: بداية من ذرَّة الرمل إلى المجرَّات الكونية، كل شيء يسعى نحو اكتماله ونحو نهايته في الوقت ذاته.. لماذا لم تصدُقني القول يا حسين؟ لماذا لم تعرّفني أن الحياة قد تتوقف فجأة، قد تُبتَر دونما سبب واضح.. رحل أبي فجأة بينما لم يتم رحلة صعوده نحو الاكتمال... أخذوه وساروا به غربًا إلى المقابر، حيث لا أحد يعود ثانية... أليس في ذلك ظلم؟

وقت الضحى، كنت أجلس ظل الأشجار، عند الساقية، أفتح غطاء "قادس" الطعام وأنظر داخله متفحصًا محتوياته؛ على أمل أن أجد نوعًا جديدًا من الطعام، بينما كان أبي يشعل النار بعد أن يسكب الماء في السخَّان الأسود. يقول أبي: "إن نفختَ في النار ستنطفئ، النار ابنة الطبيعة، لا تحتاج إلى زفيرك كي تشتعل". مرَّات كثيرة رأيته وهو يشعل النار في حطب الموقد، لم يكن يتخذ من ذيل جلبابه ساترًا من الهواء كما يفعل الآخرون، بل كان يُشعل عود

الثقاب في مواجهة الهواء لأن- كما كان يقول- النار هي المخلوق الوحيد الذي يشف ظاهره عما في باطنه. وكان يقول أيضًا إن النار لا تخدع؛ ثابتة على مبادئها منذ أن خلقها الله. لم أكن أعرف مقصده من ذلك الكلام. إلا أنه كان كثيرًا ما يقول: "الحرباء متلونة وخادعة، تحتال ولا تواجه؛ لذلك أخشاها". الآن فقط، أستطيع أن أربط بين عباراته المتناثرة القليلة التي كان لا يفتأ يرددها.

تحدث حسين معي، مرَّات عدة، في أشياء كان قد قرأها في كتب الشيخ؛ ذلك الكلام الذي لم أفهم منه شيئًا، بل كنت أسخر منه وأصفه بالجنون. كنت أعتقد أن "حسين" يهذي بكل ما يقرأ في كتب الشيخ دون أن يعي منها شيئًا، لكن صديقي أخبرني بأن تلك الكلمات التي يؤمن بها أخذها عن شيخه، فآمنتُ في قرارة نفسي بأن الشيخ وتلميذه يهذيان بكلام فارغ.

ما الذي يحدث لي! هل هذا أنا: عبدون الذي لم يكن يفكر سوى في ري الأرض وزراعتها وجمع البلح والحصاد، وطحن الغلال متى احتاج الناس إلى دقيق يجلس الآن شاردًا أمام ضوء الفانوس مسترجعًا كلمات صديقه، تلك الكلمات التي ترن الآن داخله فيجد لها صدىً غريبًا ووقعًا مؤثرا في نفسه. لو كان حسين قد رأى نفسه ذات يوم فراشة تندفع نحو مصدر الضوء محاولة الوصول إلى حقيقته، فلابد أنه اهتدى إلى الضوء أولاً. ما بالنا لم نر

نقطة الضوء تلك في داخلنا أبدًا؟ إيه يا حسين. تستحق، عن جدارة، لقب "الحكيم"، الذي أطلقه عليك حمودة ذات يوم.

أشعر أنني أحب حُسينًا أكثر من ذي قبل. كانت بيننا مسافة وفجوة. كنتُ أُؤثر عليه بقية الأصدقاء؛ اعتقدتُ أنه يحاول أن يتعالى عليَّ بما يقرأه في تلك الكتب، أو بما يسمعه من الشيخ... اكتشف حسين جزءًا من علاقتي براضية، فشعرتُ بأنني أضحيتُ أسيرًا لما يعرف، وأن إصبعي أصبح بين فكّيه، يستطيع أن يطحنه متى شاء. لكن ما يطمئنني أن معظم ما دار بيني وبينها لا يعلمه إنسان سوانا، كما أن الحكيم لم يفش سرًّا أبدًا، لم يقل يومًا: سمعت فلانًا يقول، أو أخبرني فلان بكذا وكذا.

ظلت الأفكار والخواطر تتدافع في رأسي، وأنا أطوي المسافاتُ محلقًا في فضاء الواحة حينًا، وغارقًا في ذكرياتي حينًا آخر: حافة الهضبة التي تبدو حالكة السواد في الليل، الأشجار الجافة التي أماتها العطش عند أطراف الحقول، الرمال الحارقة التي تشعرنا بالعطش الدائم، البنت راضية بكنوزها العامرة، الولد حمودة وهو يأتمنني على سرِّه الذي لم يبح به لأحد غيري، وكيف أنه رأى "عفاف" ابنة علي المجبراتي وهي عارية في طست الاستحمام، انفعالاتها عندما رفعت وجهها في اتجاه سطح بيت العم بركات لتراه قابعًا خلف السور الواطئ للسطح يراقبها، وكذا مشاعره

عندما قالت له بعد ذلك أن عينيه تشبه عيني القطة في الظلام الدامس. لقد أخبرها أنه رآها أكثر من مرة من خلال النافذة الصغيرة التي تتركها نصف مفتوحة بينما هي عارية تستحم، وأكد لها أن لديه جدولاً بمواعيد استحمامها.

استلقيت إلى جوار الفانوس مطروحًا على ظهري ومتأملاً السماء. تلك هي المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك متعمدًا. تبدو السماء في ناظريَّ كقطعة قماش سوداء واسعة ينبعث من خلالها ضوء النجوم البعيدة. كم هي بعيدة تلك النجوم!! بالتأكيد، هي أبعد من العاصمة التي يصل إليها الناس بعد أسبوع كامل من السفر في دروب الصحراء.

قفز الآن إلى ذهني كلام حسين عن النجوم، وكيف أننا نراها في مجموعات تأخذ أشكالاً مختلفة كالعقرب أو الحَمَل وغيرها. حاولتُ أن أتبيّن شكل أي مجموعة منها: رحتُ أتنقَّل ببصري في صفحة إلى أن عثرتُ على ما يشبه المَغرفة وفي مواجهتها تمامًا ذلك النجم البازغ: "قال حسين إنه النجم القطبي". ابتسمتُ لنفسي وصفقتُ لها مشجعًا: "إنها مجموعة النجم القطبي فعلاً". اعتدلتُ ونظرتُ في اتجاه الشمال، ثم نظرتُ إلى ذلك النجم في السماء، ولما عرفتُ بأنني استطعتُ تحديد اتجاه الشمال بالفعل، ابتسمتُ راضيًا.

نهق الحمـار، محــاولاً تنبيهي أن الــوقت قـد تـأخـر، فانتفضتُ خارجًا من تأملاتي.

كنتُ قد انتهيتُ، منذ قليل، من ري أرض المعلم رزق. لقد تأخرت اليوم بالفعل، فهروب الثور بعد الظهيرة عطلني لأكثر من ساعة، ولولا وجود حسين وسليمان لبقيتُ ألهث خلفه طوال النهار. كان والدي - يرحمه الله - يتولى إدارة الطاحونة، وري أراضي الخلق، إلى أن حدث ما حدث.

تقع الساقية في منطقة مرتفعة وسط الحقول - تلفها أشجار ظليلة عالية - لتروي الأراضي المرتفعة التي لا يمكن ريها من مجرى النبع مباشرة. الساقية ملك للجميع - مثل الطاحونة تمامًا - يتناوبون الري بها، لكني أشعر أنها تخصني وحدي. هي جزء من عالمي الرتيب، لكني أحببتها أكثر بعد أن هبطتُ إلى جُبِّها العميق، ولامست قدماي قاع الجب للمرة الأولى. قليلون جدًا هم من لامسوا القاع، بل إنها كانت المرة الأولى التي يهبط فيها أحد منذ أن بدأت الساقية تدور.

انتبهتُ إلى أن الوقت قد تأخر عندما نهق الحمار. قمتُ مسرعًا ألمُّ أشيائي على عجل، ثم ركبت الحمار مستحثًا إياه على الإسراع. لكن الحمار، الذي انتابه القلق بالفعل، لم ينتظر أن يستحثه أحد، فمضى يقطع الطريق في خطوات سريعة أذهلتني.

❖❖❖

كنا أمام بيت العم بركات عندما عاد عبدون من الحقل، مهوَّش الشعر ممزَّق الثياب، كان يحمل على جسده طين الأرض. تقدم نحونا راكبًا حماره، وفانوسه الصغير في يده، بينما قدماه الطويلتان قاربتا على لمس الأرض. نظر إليَّ متأملاً جلبابي الجديد فقلت: "عاد والدي منذ سويعات من السفر وقد أحضر هدية لك"، فتهللت أساريره حينئذ، صاح حمودة مشيرًا إليه: "انظروا وتأملوا، ثم ليخبرني أحدكم: من أي أرض سفلية خرج هذا العفريت؟". بادرنا عبدون بضحكته الصافية، ثم تأمل ثوبي الجديد مليًّا:" مبارك عليك عودة والدك يا حسين"، قالها بصوت خفيض يفيض صدقًا، ثم مضى في طريقه.

❖❖❖

13

قمر الغُرفَة

لملَمَت العتمة أطراف ثوبها الذي احتوى الواحة طوال الليل، وأزمعت الرحيل. كان ضوء الفجر قد بدأ يظهر في الأفق الشرقي على استحياء، وظهرت معه حافة الهضبة مثل سور أسود عال تزينه قمم صغيرة متعرجة شديدة الدُّكنة. دفعتُ بوابة الدار ودخلت. خطوتُ في قاعة البيت الطويلة بضع خطوات، على هدى ضوء "الفانوس" الذي يرُشّ نوره الخافت على أرضية القاعة في شكل مستطيل يبدأ من الفناء وينتهي عند قدميّ. تنحنحتُ حتى تعلم أمي بعودتي من صلاة الفجر في المسجد الصغير الذي يتوسط البيوت: "حسين؟"، قلت: " نعم يا أم" ربما التبس عليها الأمر بين صوتي وصوت أبي، فهي تقول لي عادة إن صوتي أصبح في خشونة صوت والدي؛ لذا فهي لا تميز بين صوتينا. اعتاد أبي أن يتأخر قليلاً؛ يقف مع رفاقه خارج المسجد ويدور حديث قصير حول خطتهم لهذا اليوم. لا أدري من أين يأتون بتلك الأحاديث التي لا تنتهي؟

يقع المسجد في آخر الزقاق، يتوسط منطقة واسعة، تفترشها الرمال، وتبسُق أمامه نخلتان طويلتان، إحداهما تعانق مئذنة المسجد فيضرب جريدها هامة المئذنة عندما تهب الريح، والثانية أطول قليلاً.

كانت أمي في فناء البيت، تكسّر حطبًا وتعده لسلق الأرز. ما زال ضوء الفانوس يهتز في محاولة بائسة للتغلب على انبلاج الفجر. القاعة الطويلة تتوسط البيت، يبدأ البيت منها، ثم تتفرع من خلالها بقية الغرف على الجانبين، "قاعة المزاير" في آخرها على اليسار: "مَحْمَل" خشبي عليه "زير" وثلاث "قُلل" من الفخار. تستند على المحمل ثلاث "جِرَار"، استحال نصفها الأسفل إلى اللون الأخضر، من جراء نمو الطُحلب عليها. أسفل الزير مباشرة، يوضع سَقَاء من الفخار، يستقبل قطرات المياه النقية التي ترشح من الزير.

تقع غرفتي على يسار البوابة مباشرة، لها نافذة صغيرة يدخل منها ضوء الفجر وأشعة الشمس حين تشرق، وطاقتان علويتان من الناحية البحرية، أستنشق من خلالهما هواء الصبح البارد وتأتيني منهما الأخبار أحيانًا.

طاقتان مفتوحتان على الزقاق، أسُدّهما بالخرق البالية أو قش الأرز في الشتاء الذي يدخل برده في العظام مباشرة ولا يرحم.

طاقتان مفتوحتان، هما أنفي وأذناي، تمر منهما كل الأصوات والروائح: دبيب الأقدام، الضحكات، الأصوات المرتفعة، والهامسة على السواء، رائحة الطعام، ضجيج الأواني، نسمات الهواء الباردة في الصيف، ورائحة روث البهائم أيضًا.. عندما ينزل الليل على الواحة الصغيرة المتلاحمة البيوت والأسطح، يصبح للجدران آذانًا، كما يصبح للكلام أجنحة يطير بها.

غرفتي خالية، إلا من "بُرش" مصنوع من سعف النخل، فوقه مرتبة صنعتها أمي من بقايا الأقمشة والخرق البالية. مازال الفانوس (منذ أن عُدّتُ من صلاة الفجر) مُضاء، يبعث ضوءًا خافتًا فيصنع هالة صغيرة حوله. نفختُ فيه فانطفأ بسهولة، يبدو أنه أحس بضوء النهار فلم يقاوم. أشعر برغبة في أن أظل سويعة في الفراش. تمددتُ فاردًا قدمي بينما عيناي ثابتتان على ضوء خفيف يدخل من النافذة الشرقية، ليُنذر بأن الشمس قد تظهر في أية لحظة قادمة، ضوء أبيض ساحر تظهر حدوده الأربعة على الحائط المقابل. ضوء أبيض يشعرك بالارتياح. نظرتُ إليه طويلاً...

وكانت مليحة منحنية على جرتها، في مجرى الماء بالقرب من عين النبع. جلبابها الأخضر الموشي بورود زرقاء وحمراء كثيرة، ينسجم مع خُضرة أشجار المانجو والنخل المصطفة بوفرة على جانبي الزقاق. يسيل ماء النبع صافيًا رقراقًا في

قناة عميقة، ثم يخرج من أسفل سياج الخوص، ليصب في حوض عميق مربع الشكل، ومبطن بجذوع النخل التي تحول لونها البنيّ إلى الأخضر بسبب نمو الطحالب عليها.. حوض عميق تخرج منه القناة الرئيسية، ثم تتفرع هنا وهناك.

هاهي مليحة؛ ثوبها الأخضر المنقوش ملموم بين فخذيها وساقاها غاطستان في الماء. تنحني على جرتها لتملأها. ابتَسَمَت عندما رأتني، فارتخت أهدابها الطويلة لتغطي عينيها وظهرت تفاحتان رائعتان على خديها. تقدمتُ نحوها، بينما قلبي يدق ومشاعر دافئة تنمو داخلي؛ تعلو وتتفرع مثل شجرة " دوم" :

- كيف حالك يا مليحة؟

- نحمد الله.

اعتدلت بسرعة عندما سمعت الصوت، ولما تأكدت أنه أنا لم تكمل شهقتها. نظرتُ في عينيها نظرة ثابتة قوية. ارتَبَكَتْ قليلاً ونظَرَتْ في الماء، ثم تذكرَتْ أن ثوبها مازال ملمومًا بين فخذيها فتركته ينسدل في الماء. وأنا ارتبكت وضاع مني الكلام، وكان لابد أن أجد موضوعًا أحادثها فيه، وإلا لما كان لوقفتي سبب. خطر على بالي سليمان فقلت:

- هل عاد سليمان من الحقل؟

- لابد أنه قد عاد.

حين هممتُ أن أنطق، كانت تنوي أن تقول شيئًا. فتحَت شفتيها المتوردتين فظهرت أسنان منتظمة بيضاء كالقشدة. كانت "الجَرَّة" بين ساقيها الغاطستين في مجرى النبع، قدماها مثل جوهرتين في عمق الماء، وطرف ثوبها المبتَلّ قد التصق على ساقيها حتى الركبتين فتحددت ملامحهما. وقفتُ كالأبله، أتأملها وأبتسم، بينما تنظر إليَّ نظرات قصيرة تتنقّل بين الجَرَّة الغاطسة في الماء وأشجار المانجو، ثم ترتد إليَّ مرة أخرى.

عندما انحنت لتحمل الجرة، أفسحَتْ قليلاً مابين ساقيها ووضعت يدها اليمنى في عنق الجرة، والأخرى أسفل قاعدتها المستديرة، فتدلت جديلة شعرها الطويلة نحو الماء، كأنها تريد أن تشرب. وغرد القمري في عمق الأخضر الداكن.

"انتظري، سأساعدك"، قلت ولم أنتظر إجابتها. شمَّرتُ عن الجلباب، وعقدتُه حول خاصرتي فظهر سروالي الطويل حتى أسفل الركبتين. لمحتُ نظرها يتجه إليه، ثم يرتد فجأة. ضَحكَت ضحكة قصيرة وهي تنظر إلى ساقي الطويلتين، بينما أسترق نظرات سريعة إلى جلبابها الملتصق بساقيها. وقف كل منا في مواجهة صاحبه، بساقين مبللتين في مجرى الماء. كانت الجرة تستند مستكينة طائعة أسفل ركبتيها:

– لا تتعب نفسك.

رفضت أن أساعدها، لكن ملامحها تنبئ بخلاف ذلك، إنها تدعوني كي أضع يدي مع يدها لنرفع الجرة، رغم أنها تفعل ذلك وحدها منذ سنوات.

- لا بأس، لكني سأساعدك. ثم قلت في نفسي إنه لولا العيب لعرضت عليها أن أحملها عنها.

لا أدري كم من الوقت مرَّ، وأنا أبحر في عينيها الرائقتين. إن لها نظرة ساحرة تفتح نافذة إلى الروح مباشرة، فتستقر هناك ولا تغادر.

إن ابتسامتك المزهرة حولت التلال الرملية إلى مروج خضراء. صوتك يستحث القمري على الغناء. ها أنتِ أمامي الآن، ليس بيننا سوى خطوة واحدة، لكني لكيَ أقطعها لابد أن أسير حافيًا لسنوات. ها هي صورة بائس وحيد تنعكس على حدقتي عينيك الواسعتين. عيناك التي تحتوي الصحراء بواحاتها المتناثرة. سبحان مَن خلق هذه الروعة وأتم صنعها... هل تسمعين ما تبوح به عيناي؟ تقولين نعم، تقولينها بعلو الصوت. ما أسعدني الآن حين يداعب دفء أنفاسك وجهي. إنني استنشق الآن - بكل ما أوتيت من قوة - الهواء الذي كان يتردد في رئتيك للتو. أنفاسك لها رائحة أشجار الكافور عندما تُزهر.. هل تشعرين بما أقول؟ هل تترجم لك نظراتي شيئًا؟

كنت أحاول أن أنقل إليها فورة مشاعري عبر نظرة طويلة واحدة.. كانت تشعر بي، وتبادلني شوقا بشوق، دون أن تتفوه بكلمة واحدة:

- حسين، لقد تأخرت، إلى متى ستطول وقفتك؟

قالت ذلك، بينما نبرات صوتها، ونظراتها الناعسة تصرخ بخلاف ذلك. تنحيتُ قليلاً، ثم خرجتُ من الماء وانتظرتُ حتى حَمَلَت جرتها وولت ظهرها. تأملتها قليلاً من الخلف، هاقد أصبحت أنثى مكتملة. ووجدتني أقول بصوت متهدج:

- "أنا أحبك".

استدارت في لطف وقالت: "نعم"، ثم لوَّحت بيدها هامسة: "مع السلامة"، وعلى وجهها ابتسامة لا يمكن لمن رآها أن ينساها. لوحت لها بيدي، لكنها كانت قد انعطفت في منحنى الزقاق.

أخرجني صوت كركبة الأواني في عمق الدار من هالة الضوء. ليست لدي أدنى رغبة في الحركة. أتمنى لو أظل ساكنًا هكذا لآخر اليوم. تحاملت على نفسي واعتدلت جالسًا. سحبت الوسادة لأعلى، ألصقتُها بالحائط، واستندت إليها. ما زالت قدماي ممددتين أمامي. صوت خطوات أمي يتجه ناحيتي، لم تدخل الغرفة لكنها زعقت من آخر القاعة: "يا ولد يا حسين، ألن تتحرك؟". لم أجبها، لكنني سعلتُ، لتعرف أنني استيقظت بالفعل.

كنت مضطجعًا في الفراش منذ فترة، لكن النوم أبى أن يزورني. أف، ماذا قالت أمي؟ يرن الآن صوتها في أذنيَّ

"يا ولد". ألن تكف عن التلفظ بتلك الكلمة التي تغيظني؟ لابد أن تجعل دمي يفور؟ ألا يكفيني الولد عبدون؟ لقد قالها في الليلة الماضية بكل تبجح أمام البنت راضية.

تسربت أشعة الشمس، من خلال النافذة المشرعة، حمراء باهتة فحولت جزءًا مربعًا من الحائط - المقابل لمرمى بصري - إلى قطعة فحم مشتعلة. قلت: "ما بالها النار لا تريد مفارقتي هذا الصباح؟". ثم قلت في نفسي: "أستغفر الله، نور الله غالب".

شعرت أمي بتأخري في الفراش، فجاءت لتوقظني. كنت مستيقظا بالفعل. عيناي مثبتتان في السقف، تروح وتجيء ولا ترتد إلى أسفل إلا لتراقب بقعة الشمس التي ازدادت توهجًا على الحائط الطيني المقابل. ما زالت أقدامي تحمل ارتباك السويعات القليلة الماضية وما زالت اللحظة المشتعلة بالأحمر تتوهج أمام عيني... كنت قد ذهبتُ لصلاة الفجر مع الشيخ "منطوق" في مسجدنا الصغير الذي يبعد عن البيت مسافة زقاق واحد. كانت الظلمة وقتئذ مازالت تلف الواحة.

استيقظتُ على صوت الديك الأحمر الكبير يؤذن في فناء البيت. يبدو أنه استيقظ قبلي بكثير، إلا أنني حين أفقت كما ينبغي وأدركتُ تمامًا ما يدور حولي كانت هناك ديوك أخرى ترد عليه من أماكن قريبة، وتعالت الصيحات في الفضاء الهادئ، وتناهى إلى أذني نهيق حمير من

النـاحيـة القـبليـة - استطعـت أن أميـز مـن خلالهـا صـوت حمـاري - وثغاء ماعـز، وخوار ثيران. لقد استيقظت الدنيا وما زالت الظلمة تحيل النخل إلى أشباح سوداء.

خـرجتُ أتحسـس موطئًا لقـدمي. كان بـصيص الـضوء في الخـارج قـد بـدأ يجاهـد الـظلمـة علـى اسـتحيـاء. مـشيت في اتجـاه المـسجـد. كـانت الـنافـذة المطلـة علـى الـزقـاق في بيت عـوض مـثل قطعـة فحم مـشتعلـة، ذلك لأن زوجـته "فطّـومـة" تستر الشباك الذي يفتحانه ليلاً - أملاً في نسمة هواء طرية - بقطعة قماش حمراء مثبتة في أعلى النافذة بالمسامير. ولما كـان الفـانـوس مضـاء، فقـد مـرّ الضـوء - مـن خلال الـسـتـارة الصغيرة - إلى الخارج، ملقيًا بوهـج أحمر مثير.

يسمح الشباك الـواطئ للمارة برؤية الحجرة من الداخل، لذا كانت الستارة العبقرية تحجب الرؤية عندما يأذن الهواء بحجبهـا، لكنهـا لا تحـجب الآذان الـتي تـسيـر في صـمت الـزقـاق متلهفـة لأي صـوت تـأنس بـه، خـاصـة في مثل هـذا الـوقت مـن اليـوم. لـم أقف ولـم ألتفت نـاحيـة الـنـافـذة الصغيـرة. لا أنكر أن الـضوء الأحـمر في تـوهجه قـد أثـارني وأعمل فكـري، وتسـاءَلَت نفسـي - مـرات لا تحصـى في كل خطـوة - عمـا عسـاه قـد يكـون خلف تلك النـافـذة المتوهجة بالأحمر؟

انتهت الصلاة بينمـا لـم أدر في الحقيقـة ماذا قـرأ الشيخ طـوال صـلاته. كـانت الـنـافـذة تقف أمـام عيـني ولا تتـحـرك.

أنت إذا رأيتها في النهار لم تعرها انتباها، نافذة صغيرة معتمة ولا شيء آخر. في الحقيقة، أنا رأيتها الليلة لأول مرة بهذا الشكل، ربما لأني لم أمرَّ يومًا من هنا إلا والنافذة تبث العتمة للخارج. حين انتهينا من الصلاة كان الجو لطيفًا في الخارج ونسمة هواء باردة تضرب الوجوه. تفرقنا كل في اتجاه بيته. سار العم بركات أمامي، فتأخرتُ قليلاً حتى اختفي في الزقاق. لم تكن لدي الرغبة أصلا في مرافقته خلال تلك المسافة على قصرها، فهو يثرثر كثيرًا، كما أن صوته المرتفع قادر على أن يوقظ أهل الواحة كلهم، لذا فقد آثرت السلامة وتلكأتُ قليلا. نسمة الهواء الباردة التي تضرب صفحة وجهي تنعشني. أتمنى أن أمشي هكذا ولا أصل إلى البيت أبدًا.

تباطأت خطواتي عندما صرت في محاذاة النافذة، وانتبهتُ.. فقد اصطدمت عيناي بوهج أحمر ينثال من النافذة الصغيرة. كنت كمن يقدم على خطر محقق. أمشي أخفّ من ريشة، وأبطأ من نملة، والهواء يشاكس الستارة الصغيرة، يدفعها للداخل ثم يتركها لترتد خارجة، ثم يدفعها لتنسحب ثانية للداخل، وهكذا. ثم تناهى إلى أذنيّ نثار كلمات حينما أصبَحتُ قُبَالة النافذة مباشرة: "على رسلك يا رجل، آه، احترس، آه، كفى، كفى".

اختلستُ نظرة واحدة. كان عوض يضاجع امرأته. رأيت نصفيهما السفليين ملتصقين. دق قلبي بسرعة حتى ظننت

أنه سيخرج من مكمنه. تخطيت النافذة بخطوات قليلة. كانت الكلمات الملتاعة تتلوى في الهواء، وتصل إلى أذني جمرة مشتعلة: "آه، كفى، قمُ عني".

دفعتني التأوهات خطوات قليلة للخلف، فأصبحتُ، مرة أخرى، في بؤرة الحدث. الهواء يدفع الستارة الرقيقة للداخل ليتضح المشهد، ثم يسحبها للخارج فينغلق، وهكذا. وقفتُ لحظات وأنا أرى شيئًا جديدًا لم أرتّب له ولم يخطر لي على بال. ساقاها حول خاصرته، وأصابعها تدخل في لحم ذراعيه، مؤخرته تعلو وتهبط، وكلما تأوهت أو قالت "كفى"، يزيدها.

صفعتني نسمة هواء باردة فانتبهتُ واقتلعتُ قدميّ من مكانهما، وأنا لا أفكر إلا بشيء واحد: هل ذلك الشخص هو أنا!! ذاك الذي كان يقف على بعد خطوات قليلة منذ لحظة!! أنا مَن كان يقف قبالة النافذة ليتلصص؟ كان الاستنكار ينمو داخلي لكنني لم أترك له الحبل على الغارب. لفظته وقلت: "لم أكن أتلصص؛ لقد مدَّت لي النافذة شعاعًا ومنحتني يدًا، وقالت: "هنا، انظر هنا". ما أغربها من لحظة!! "فطومة" تضحك الآن. من أين جاءت بذلك الصوت الساحر!! إن صوتها المرتفع على الدوام يصم الآذان. تسير في الشارع متعجلة، كأن وراءها شيئًا مهمًا لا يقبل التأخير. لكن عجلتها تلك تؤجج النيران في القلوب. تدق الأرض بخلخالها، فيئن التراب.

هي امـرأة سـمراء شابـة متوهجـة، نـاهضـة الثـديين، خصرهـا النحيل كـامل الاسـتدارة كجذع شجـرة الدوم. هي أقصر قـريناتهـا تقريبـًا، لكن عيـنيها السـوداوين الـواسعتين تميـزانها. لهـا نظـرة جريئـة تنخلع لهـا القلـوب، وسـاقاهـا الملفـوفتـان رائعتـان. حين تـدق بخلاخيلهـا الأرض، تـرتفـع الموسـيقا "تك، تك، تك". ترن الخلاخيل مـع إيقاع خطـواتها فيهتـز ردفاهـا؛ جسـدٌ مشتعلٌ بـالحركـة في تناغـم مكتمل لا يـختـل. تلك المرأة لا يـعيبهـا شـيء سـوى صـوتهـا المـرتفـع، وضحكتهـا الصاخبـة. لقد تنـاقلت الأفواه ذلك الأمـر. قالوا إن الأمر يعود إلى ليلة دُخْلَتِهَا...

عـاد عوض من القـاهـرة بعد أن جمع مالاً يـؤهله للزواج. رأى "فطـومـة"، لأول مـرة بعد عـودته، وهـي تحمل جـرَّة الماء وقد بـرزت تضاريس جسدهـا ونضـجـت ثمـارهـا. يومئذ أخبـر والده عن رغبته في الزواج منهـا. أخذه الـوالد وذهبـا لطلب يدهـا من الشيخ؛ فوالدهـا ميت وأمهـا كفيفـة. لقد كبـر عوض في أعين الجـميع حين قصـد بيت الشـيخ منطـوق، مع والده، طـالبًا منه أن يزوجه فطومة. فرحَت معهمـا الواحة كلها، يوم عُـرسهمـا. تضـاحكت الفتيـات بسبب ودون سبب، وتعـالت أصـوات النسـاء بـأغـانـي العُرس. كـانت أمي تـروح وتجئ في البيـت وتغني، تغسل الأواني في الفنـاء وتغني، تكنس البيت وتغني، تمـلأ الجرار وتغني. تفعل كل ذلك وعلى محياها ألق وفرحة عجيبان.

الرجال يضحكون ملء أشداقهم. يعملون بنشاط كأنهم ولدوا من جديد. وفى كل يوم تغطس فيه الشمس في بحر المغيب، ويلقى الليل غطاءه على الواحة، تجتمع النساء والفتيات في بيت السيدة وجيدة ليضربن الطبلة، ويطلقن الزغاريد في فضاء الواحة فتتراقص لها قلوبنا طربًا. يُرقِّقْن أصواتهن في الأغاني ويرقصن. ونحن خارج البيت مع الرجال، نصنع حلقة واسعة يتصدرها العم بركات بمزماره البوص، وبدر، ابن علام النجار، يضرب الطبلة بينما يصفق الجميع. ينزل الراقصون وسط الحلبة وهم يربطون الأحزمة الملونة على خصورهم، يرقص الواحد منهم حتى يتعب، فيترك الساحة لغيره من الراقصين.

جاء أناس كثيرون أيضًا من واحات قريبة. بعضهم جاء يهنئ العروسين، وآخرون جاءوا أول ما سمعوا صوت الطبلة يتردد في صمت الليل، فركبوا حميرهم وغذوا السير قاصدين مصدر الفرح. ليس مهمًا لديهم مَن الذي سيتزوج، المهم أن يشبعوا رغبتهم في الرقص والغناء. كنا نسهر طويلاً في تلك الليالي، ونردد وراء المغني:

"ما تحسبوش يا بنات إن الجواز راحة
أول سبوع يا بنات خوخة وتفاحة
تاني سبوع يا بنات على الأرض مرتاحة
تالت سبوع يا بنات في الشمس قدَّاحة"

الأطفال جافاهم النوم قبل العُرس بأيام.. كانوا يقولون "سننتظر الفَرَح"، وبكي بعضهم طالبًا من أمه أن تجعل يوم العُرس يأتي بسرعة!! أما نحن فلم نكفّ عن المرح. كنا نجتمع في كل وقت، تعلو وجوهنا أحيانًا علامات الجدة والصرامة؛ في الحقيقة، كنا نتعجل الرجولة حيث البيت والزوجة وأشياء أخرى تدور في الأذهان. كنا نجلس فوق الكثبان الرملية على أطراف الواحة ونحصي فتيات الواحة المقبلات على الزواج. نضحك ونقفز ونعدو، ونتدحرج كالأطفال من أعلى الكثبان إلى أسفلها.

إن شيئًا ما قد بثه الله في الهواء فاستنشقته الأنوف، لتدبّ الحياة بقوة في الأجساد. إنه الفرح، وقد أتى في وقته بعد أن غاب لسنوات. أمشي في الزقاق فاسمع الخالة وجيدة تغني، وفى آخر الزقاق كانت أم حمودة تغني. أدخل البيت، لأجد أمي تضع أخي شافع في "الطست" النحاسي الكبير. يجلس عاريًا ومربعًا قدميه، وأمي تدلق عليه المياه وتدندن:

"ومليت له القُلَّة من لبن الجمِال
ولا عايز القلة ولا لبن الجمال
ما عايز إلا أنتي يا ضَيّ الهلال
وحياتك يابا ما آخد إلا دا
دا جدع شملول كَيَّاد العدِا"

تدندن بصوت خفيض، وتهز جذعها إلى الأمام والخلف بينما تدعك جسده. شافع شديد الخجل؛ في كل مرة تحاول أمي أن تنزع عنه ملابسه يأبَى، ويذيقها المرارة قبل أن يرضخ... دائمًا ما يصرخ في وجهها قائلاً: أنا كبرت، أنا كبرت.

في ليلة العُرْس، دخل بها عوض. يقولون بأنه كان مثل ثور هائج؛ لم ينتظرها حتى تنزع ثيابها، بل نزعها عنها بالقوة ومزق ملابسها التحتية مما أفزعها، لكنه حين طرحها على الفراش وسفدها للمرة الأولى صرخت.. واستعذبت الصراخ.. ثم أصبحت تشعر، في كل دقيقة تمر من معاشرته لها، برغبة في الصراخ وفي التلفظ ببعض الكلمات الفاحشة... في الليلة الأولى، كلما حاول معها، كانت تصرخ: "آه، قم عني. كفى، كفى". منذ ذلك اليوم وهي لا تكف عن "كفى". صوتها المرتفع وصراخها تردد في صمت الليل، وحمله الهواء إلى كل أذن. حتى الأطفال تساءلوا عن سر صراخها. يومها سأل شافع أمه عن سبب صراخ فطومة وتألمها بهذا الشكل، فأجابت:

- إنهم ينتزعون شوكة دخلت في باطن قدمها.

- من هم؟

- زوجها عوض.

- ولماذا ينزعها عوض؟

- لأنه زوجها.

- لابد أنه يضربها.

- لا.

- لماذا إذن كانت تصرخ هكذا؟

- اخرس يا ولد.

يبدو أنه لم يقتنع بكلامها، فجاء يسألني، فأجبته الإجابة ذاتها.

العجيب حقًّا أنني رأيتها منذ قليل تقبض، بأصابع قوية على ذراعيّ زوجها، تشده نحوها وتقول: "قُم عني". ثم تصرخ بعدها: "آه، آه"، لكنني كنت ألمح ابتسامة عذبة على وجه أنثى راضية، تمام الرضا!! ما هذا الجنون؟ كيف تصرخ وتبتسم في اللحظة ذاتها؟ كيف تجذبه إليها، وتطلب منه الابتعاد!! غريب حقًّا أمر أولئك النسوة.

14

مياه هادئة

يُقال إن الفتاة إذا ما تزوجت، ذبلت وردتها وتهدلت ثمارها، لكن "فطومة" ما زالت – رغم زواجها – تملك وجهًا بريئًا لا يخلو من ملامح طفولة: عيناها سوداوان، ووجهها الأبيض مستدير في امتلاء مُحبب، جسدها ممتلئ قليلاً، وقدماها الصغيرتان نظيفتان. تمشي في خطوات متعجلة، تتحدث في جرأة، تضحك بصوت مرتفع ولا تستحي من أحد. لم تخجل حين أخبرت راضية؛ ابنة "علام النجار" أنها ذهبت ذات صباح لتوقظ أخاها عبدون، فوجدته مستلقيًا على ظهره، مباعدًا قليلاً ما بين ساقيه، وعضوه المنتصب يرفع جلبابه مثل عمود في وسط خَيمة.

كان أخي شافع يلهو على مقربة منهما، وسمع راضية تروي لثريا شيئًا من حديث فطومة عن أخيها، وثريا تضحك ملء شدقيها. سألني شافع بعدها عن حكاية إصبع الموز الذي تحدثت عنه ثريا. يبدو أن ثريا الخبيثة أرادت أن تُذكِّر راضية، للمرة الألف، بحكاية إصبع الموز الذي اقتطفه

لها والدها من شجرة الشيخ منطوق دون أن يخبره، كان ذلك منذ سنوات.

أخبرني شافع أن راضية وثريا تحدثتا بكلام "قلة أدب"، وأنهما فتاتان سيئتان. شافع طفل خجول بطبيعته. رفض أن يحكي لي شيئًا مما سمعه، لكنني ضغطتُ عليه وأنذرته أني سأخبر والدته إن لم يقصّ عليَّ ما سمعه، ثم أغريته بثمرة مانجو ناضجة، فحكي لي كل شيء.

❖ ❖ ❖

تزورنا "سبيل" – ابنة الخالة زهرة والزوجة المرتقبة لأخي سليمان – على فترات. تتعلل بأنها تريد الحديث معي، ولكنها في الحقيقة تأتي لرؤية أخي سليمان، وإلا لمَ لا تأتي إلا إذا تأكدت أنه بالفعل في البيت؟ لا بأس، فما دامت الأمور تسير على هذا النحو، فليس ثمة ما يستوجب القلق، ذلك لأنها لا تخفي عني شيئًا من أحوالها مع سليمان، باستثناء ما لا يقال، والذي أعرفه دون أن تتحدث. أنا أعرف قصتهما وأباركها، وأتعمَّد الانشغال عنهما حين تكون أمي في الخارج. أعرف تمامًا، إلى أين تصل الأمور بينهما، وإن كنتُ واثقة تمام الثقة من تصرف أخي الذي يكبرني بعام ونصف. أتركهما وحدهما يتهامسان في الفناء الخلفي للبيت، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من الاقتراب منهما؛ متعللة بقضاء بعض أشغال البيت لأعرف كيف يدور الحديث. وحينما يخيم الصمت بينهما لفترة، أقول في

نفسي أنه لا بأس من قُبلة تُشعل الحبَّ بينهما، وتدفع الأيام لتقترب بهما إلى بداية مُبهجة.

❖ ❖ ❖

عندما سمعتُ صوت كركبة الأواني في المطبخ، تأكدتُ أن والدتي قد استيقظت، كعادتها، قَبْل أن أعتدل في فراشي. فركتُ عينيّ ونظرتُ، فلم يباغتني ضوء النهار الذي عادة ما يلوح من خِصاص نافذتي الشرقية. أعرف أن الوقت مازال مبكرًا علىَ الاستيقاظ، إلا أن أمي وجيدة قد استيقظت، وهذا جزء من عذابي اليومي، لأنها متى جافاها النوم قامت وأيقظتني. هي تشعر ببزوغ الفجر - رغم ذهاب بصرها - ومَقْدَم النهار أكثر مما أشعر بهما. تحفظ أركان البيت شبرًا شبرًا، تعرف أماكن الأشياء بدقة غريبة وتنهرني حين أتعثر في الأواني؛ تنعتني بالبلهاء لأنني كثيرًا ما أتعثّر.

بعد أن تزوجني عوض قلقتُ كثيرًا بشأن أمي وأخي عبدون: ملء مواعين الماء، وترتيب البيت. لكن راضية نظَّمَت زيارات متواترة إلى بيتنا، كي تساعد أمي في شئون البيت، وتجد حجة مُقنعة تلتقي بها وعبدون.

تمطَّيتُ في الفراش وتثاءبت، وخطر ببالي أنها قد تنادي عليّ في أية لحظة. وقبل أن تتوالى الخواطر كانت أذناها قد التقطتا صوت تثاؤبي فزعقت:

- يا بنت يا فطومة.

- نعم يا أم، أنا مستيقظة.

- ولماذا تتلكئين في الفراش هكذا يا بلهاء، الشمس سوف تبزغ الآن.

- حاضر، سأقوم.

كانت الشمس قد بدأت بالفعل في إرسال أشعتها الحمراء عبر خصاص النافذة... تحاول أمي أن تظهر أمامنا امرأة قوية، لكني أشعر بها. أعرف أن والدي تركها زهرة ناضرة ورحل؛ شجرة نمت في حر الصيف وتحتاج إلى كل قطرة ماء لتزدهر. تحمّلت قيود المعيشة، وقيود البشر، وقيود الجسد. مرت عليها لحظات ثقيلة. حَمَلَت العبء دون أن تتألم. هي دون غيرها، تستحق أن تكون أمي الرائعة.

زعقت أمي بغضب: هل سمعتني أم صُمَّت أذناك؟

لم أجبها، لكنني قمت في التو، وما أن وضعت قدمي خارج باب الحجرة حتى اخترق صوتها أذني:

- أسرعي يا بلهاء، أرى فأرًا يعبث هنا.

- أنا قادمة.

حين وصلتُ، كان الفأر يطلّ برأسه من جُحر صغير وهو يسدد نظراته الزائغة نحوي. أمي لا ترى، لكنها دائمًا تقول: "كم من أناس لهم أعين لكنهم لا يبصرون"، وأنا أصدقها.

انتهينا من إعداد الإفطار، فأمرتني أن أذهب لأوقظ أخي عبدون. عندما دخلتُ حجرتَه، هالني ما رأيت (لك الله يا عبدون). كيف لم أنتبه أنك كبرت، وصرت رجلاً؟!

❖❖❖

انتظرنا حتى هدأت حرارة الجو، ثم خرجنا لملأ الجرار من مياه العين كما اعتدنا كل يوم. سرتُ متمهلة في الزقاق حتى بلغت بيت العم رزق. كانت جَرَّة ثُريا تستند إلى حائط البيت. لابد أنها ملَّت من انتظاري فتركت جرتها بالخارج لتكون شاهدًا على تأخري. تعتقد منذورة أن ابنتها أميرة فتيات هذا العالم الذي لا نعرف أين ينتهي. تنعتها بالغزالة حينًا، ووردة أو قمرًا أحيانًا أخر؛ تقول ذلك تحديدًا، إذا كانت تقف في جمع من النساء. الحقيقة أن ثريا تمتلك الكثير من أمارات الجمال؛ جسدها فارع وملفوف، وعيناها واسعتان، لهما لون ثمار الزيتون. لا يوجد في مظهرها عيب، سوى عيب واحد ظاهر للعيان، أنفها الكبير الذي يشبه أنف أمها منذورة. هي صديقتي، لكنها تحمل قدرًا كبيرًا من الغرور، ففي كل مرة أتأخر عليها وتنتظرني تقف واضعة حول خصرها النحيل وتقول وهي تهز عودها النحيف: " أنا، ثريا، ابنة المعلم رزق تتركيني هكذا على جمر الانتظار يا ابنة علام النجار؟" وتركز على كل حرف من كلمة "النجار" لتعلمني بمدى تواضع مهنة أبي التي أعتز بها؛ فلولاه ما دارت الساقية ولا ارتوت الحقول.

خرج أخي بدر معهم، في مرّة من المرَّات النادرة، التي كان يخرج فيها لرعي الأغنام. المنطقة واطئة عامرة بالحشائش، تتخللها أشجار السنط والدوم، وتتصل بأطراف الحقول من ناحية الجنوب. كانوا يتناوبون حراسة الأغنام من تلك

الناحية، حتى لا تغافلهم وتشردُ نحو الزراعات المجاورة. كانوا يقَسِّمون وقت المرعى إلى ورديات؛ يقف كل واحد منهم ناحية الحقول مرة. يقف بدر بعصاه الطويلة في مواجهة الأغنام، ثم يأخذ مكانه آخر وهكذا. عندما يحين دور ثريا، يجري بدر إلى الناحية الأخرى موضحًا أنه سيأخذ مكانها...

منذ صغره وهو يفضِّلها على بقية بني جنسها، ويؤثرها على نفسه، لكنها لا ترضى أبدًا! كلما حاول محادثتها رفعت ذقنها لأعلى وزفرت، ثم تابعت طريقها وهي تتلوى واثقة أن عينيه تتابعانها من الخلف.

على باب العم رزق، ثُبِّت مقبض من نحاس صدئ، تتدلى منه دائرة نحاسية. طرقتُ الباب فجاءني صوتها سريعًا من الداخل:

- مَن بالباب؟

- أنا راضية.

- ادخلي.

كانت ثريا تضطجع في قاعة البيت، على فروٍ من الصوف، بينما تتكئ على وسادة من قماش. حين ظهرتُ أمامها بادرتني:

- ما الذي أخّركِ اليوم هكذا يا هانم؟

- أخي بدر.

- ما شأنه؟

- مريض.

اعتدلت فجأة حين سمعَت ذلك، ثم عادت واتكأت على وسادتها ببطء، وسألتني دون أن يبدو عليها الاهتمام:

- ما الذي أصابه؟

- حرارته مرتفعة.

نظرت إلىَّ مليًّا، وبدا عليها الاهتمام فقلت ضاحكة ساخرة:

- أصيب بحُمى غريبة اسمها العشق. الأغرب من ذلك أن التي يحبها ليست من بني جنسنا.

- جنية؟

- لا، بل أميرة الفتيات.

- ومن تكون تلك يا ترى؟

- ألا تعرفينها؟ إنها تتكئ أمامي الآن.

نظرت إليَّ ولم تعقب، لكني لمحتُ ابتسامة غريبة تكسو ملامح وجهها.

كثيرًا ما رأيت تلك الابتسامة على ملامحها عندما تحاول الاستهانة بشخص ما. غضبتُ وفار الدم في عروقي، وكدت أوبخها على ما تفعله بأخي، لكنني تمالكت نفسي. فإني لو فعلت ذلك لأصابها مزيد من الغرور.

"هيا، تحركي من مكانك، إن فطومة تنتظرنا"، قلت في حدة. مدَّت يدها لأساعدها في النهوض، ففعلتُ ذلك على مضض، ثم اتجهنا إلى بيت فطومة.

كان الأطفال بالخارج، يضعون بين سيقانهم عصيًا طويلة. يهرولون بها في الزقاق على اعتبار أنها دواب. يركبونها ويذهبون بها إلى الحقول ويصيحون: "شي يا حمار، حا يا حمار" ثم يقلدون صوت نهيق الحمير بأفواههم.

مالت الشمس قليلاً إلى الغرب، وامتدت ظلال البيوت، متداخلة فوق الرمال الصفراء التي تكسو أزقة الواحة ودروبها الملتوية.

كانت فطومة تقف على باب البيت، بثوبها الأخضر الموشي بورود صفراء وحمراء كبيرة. ابتسمت عندما رأتنا، ثم غمزت بعينها وقالت قبل أن تلقي علينا السلام: "هيا يا فتاتيّ". سارت أمامنا بخطوتها الضيقة. ثوبها الطويل يضيق عند خصرها مما أبرز مؤخرتها الممتلئة التي ترتج بصورة تثير غيظنا، نعرف أنها تتعمد ذلك. تفحصتها ثريا جيدًا، لكزتني بإصبعها الطويل وهي تشير ناحية فطومة، ثم سارت أمامي بدورها وهي تحاول تقليدها.

تنساب مياه العين، صافية رقراقة، في المجرى الرئيسيّ لأمتار قليلة، تصب بعدها في "المَغْطَس" وتتجمع لتخرج في قناة طويلة تنعطف مع انعطافات الزقاق، وتتفرع في قنوات

صغيرة هنا وهناك. كثافة أشجار الفاكهة والنخل، تَهَبُ المكان ظلاً دائمًا. تحاول الشمس اختراقه فلا تفلح إلا في صُنع ثقوب مستديرة، تنعكس على المياه مثل قطع معدنية لامعة.

ملأت كلٌّ منا جرتها، ثم وضعناها جميعًا إلى جانب السياج، واتجهنا مرة أخرى نحو المغطس. جلستُ على حافة الحوض فاقتربت فطومة لتجلس إلى جواري، بينما تركتنا ثريا لتجلس في مواجهتنا. حسرت ثوبها ووضعت ساقيها في المياه، وأخذت في تحريكهما بالتبادل للأمام والخلف. كانت تنظر إلينا، ثم تنظر إلى ساقيها ولسان حالها يقول: "هل رأيتما جمالاً كهذا؟". رسالتها وصلت بالطبع، فلم نتوانَ في وضع سيقاننا ونحن نتضاحك ونرشها بالمياه. مياه العين فاترة تبعث على الاسترخاء. كأنها تتسرب لتسري في الأجساد. مياه صافية، نستطيع بكل سهولة أن نُحصي من خلالها عدد جذوع النخل التي تصطف فوق بعضها صانعة جدران "المغطس".

فطومة التي لا تعرف أن تتحدث دون أن تحرك رأسها وذراعيها، ضربتني على فخذي ضربة خفيفة ومالت نحوي هامسة: "سوف أطلعكِ على سر وإياكِ أن تخبري أحدًا". لمحتنا ثريا ونحن نتهامس، فظنت بنا ظن السوء. تجهَّم وجهها وقالت في حدة: "هيا بنا، فالجو أصبح باردًا هنا". ثم حملت جرتها وهرولت بخطواتها الواسعة. لقد ظنت أن

همس فطومة كان بشأنها، فألقت في وجهينا شيئًا من برودة الجو - بالطبع تقصدنا. حاولنا اللحاق بها وضاعت محاولتنا سُدى. أمسكتني فطومة من ذراعي، وجذبتني قليلاً للخلف كي أتمهل فأطعتها، وفي الطريق سألتني:

- ما أخبار قلبك؟

- من أي ناحية؟

- أشعر أنك تميلين إلى أخي عبدون.

حين ذكَرَت اسمه أمامي، كاد قلبي أن يسقط بين قدمي. نعم أحبه، وكلما رأيته أمامي يخفق قلبي وتدور بي الدنيا، لا أعرف كيف أصفه بالكلمات.. هو بالتأكيد شاب وسيم، رغم ما يقولونه عن هيئته. إن جمال نفسه وطيبته يغلبان على أي شيء آخر. إنني راضية به هكذا، فاتركوه لي يا ناس.

صمتت فطومة قليلاً ثم قالت :

- انظري في عيني، ألا يميل قلبك نحوه؟

- كلا.

- هل أُخْبِرهُ بذلك؟

- ولِمَ تخبرينه أصلاً، هل ذكرني بشيء؟

- لا، إلا أن الفتاة لا يسبر غور قلبها إلا فتاة مثلها، أليس كذلك؟

- بلى.

- حسنًا، هل يميل قلبك إليه؟

- نعم.

- أصغر منك هو.

- بعام واحد، لكني أشعر أنه يكبرني بأعوام. حاولتُ التودد إليه مرارًا، لكنه مثل حجرٍ ملقى في صحراء.

- أو تدرين كم مرَّ على ذلك الحجر من تجارب مريرة؟

- أعلم.

صمتت فطومة قليلاً، ثم ضحكت قائلة: "إن تزوجتِه ستصيرين أسعد امرأة في الواحة"، ولما لاحظت حيرتي تابعَت: أمرتني أمي أن أدخل عليه لأوقظه، فإذا هو نائم و... ".

قلت: غير معقول، كان نائمًا، هل ينام مثلنا أيضًا؟

قالت: رويدك، كان نائمًا على ظهره، مباعدًا قليلاً ما بين ساقيه و...

قالت ذلك ثم غابت في ضحكة طويلة. عندها بدأت أتخيله مطروحا على ظهره، بجسده القوي و...

سألتُها: وماذا بعد؟ لكنها صمتت، فقلتُ؛ مصطنعة الغضب: هيا تحركي، فقد تأخرنا.

كنا قد وصلنا بالفعل أمام بيتها، فقلت آمرة إياها:

"ادخلي بيتك يا فطومة، لا أريد أن أعرف شيئًا عن أخيك، اذهبي إلى زوجك لعله اشتاق إليك، إلى اللقاء".

جذبتني من يدي وقالت ضاحكة: "كان نائمًا على ظهره، وحيوانه منتصب، بين فخذيه، مثل وتد".

بُهِتُّ لكلامها العاري وارتبكتُ، وضعتُ يدي على عينيّ ولم أدر ماذا أقول، ثم تركتها ملوّحة لها بيدي، إلاّ أنها لم تتركني في حالي، بل صاحت خلفي "هنيئًا لكِ يا راضية ".

❖❖❖

عندما دخلتُ المنزل كانت أمي جالسة أمام الموقد، تلقمه حطبًا وتنفخ في النار كي تشتعل. كان الدخان يملأ جوّ الحجرة، وهي تسعل فيهتز جسدها، ولما أحست بخطواتي التفتت. عيناها دامعتان من كثافة الدخان، لكنها تنبهت لحالي:

– ما بكِ يا ثريا؟

– لا شيء.

– إذن، اذهبي فانظري إلى وجهك في المرآة، وتعالى لتخبريني عن سبب كل هذا الغضب الذي يكسو وجهك الجميل.

– راضية وفطومة يا أم.

– ما الذي فعلتاه معك القبيحتان؟

حكيت لها ما فعلتاه عند المغطس فقالت:

- ما أدراك أنهما قد تهامستا بشأنكِ، مادُمتِ لم تسمعي حرفًا واَحدًا؟

- أحسستُ بذلك.

- لا يا بُنيتي، اذهبي الآن واسألي راضية عن ذلك الأمر مباشرة. أعرف أنها تحبك. اغسلي وجهك أولاً، وضعي كُحلاً في عينيك، ولتغيري ثوبكِ إن أردت.

فعلتُ كل ما قالت أمي، ثم خرجتُ مهرولة ناحية بيت علام النجار. في الزقاق، كان بدر يسير أمامي حاملاً على كتفه عود حطب جاف. يقبض عليه بيده اليمنى ويرفع طرف ثوبه باليد الأخرى، كاشفًا عن ساقيه الرفيعتين. ما إن تجاوزته حتى سمعته يشهق. تمهلت في مشيتي وأنا واثقة أنه يمشي ورائي مباشرة حتى أني لأسمع صوت تنفسه (أمشي كأميرة؛ الشباب خلفي، تتوق نفوسهم الجائعة إلى نظرة واحدة من عينيّ). إن كل خطوة يخطوها خلفي متهدج الأنفاس، ترفعني قليلاً عن الأرض حتى أني، بعد بضع خطوات، ظننت أنني أرتفع على بُعد أقدام في الهواء. إن محبته ظاهرة لي، لكنه لم يجرؤ يومًا ولم يحاول أن يواجهني بعشقه.

لا أنكر أن ذلك يرضي غروري تمامًا. يضعني في المكانة التي أستحقها: أنا ثريا، ابنة المعلم رزق، آمُر فيطاع أمري.. أُجزم أني لو أمرته أن يجثو على ركبتيه أمامي، لفعل دون

تردد. مشيت وأنا أبتسم لنفسي.. أكاد أصفق لها، حتى سمعته يردد اسمي:

- ثريا، ثريا.

لقد داخ ورائي في الدروب والأزقة، لكني لم أُشعِره أبدًا أنني أميل إليه. لو فعلتُ لانتهى الأمر، لكنه يبذل طاقة فوق طاقته كي ينال مني كلمة ترضيه.

تابعتُ خطواتي وأنا أتيه دلالاً أمامه، وسمعته يكررها:

- ثريا، ثريا.

حدثتني نفسي أن أقف قليلاً لأرى ماذا يريد، وإن كنتُ أعرف ما يريده بالطبع. اتخذتُ منعطفًا في الزقاق. ثم وقفتُ ولم التفت خلفي، حتى صار أمامي. أسند العود الذي كان يحمله إلى الجدار ووقف قبالتي وهو يلهث. لاحظتُ عينيه الزائغتين، وصدره يعلو ويهبط بينما ظهرت بضع قطرات من العرق على جبهته.

نظرت في عينيه مباشرة عندما واجهني. تقول عيناه كلامًا كثيرًا ينمُّ عن حب عميق وطاعة عمياء.

"ماذا تريد؟"، قلت وأنا أحاول جاهدة أن أُظهر غضبي.

- لماذا أنت غاضبة مني يا ثريا؟

- لا ترد على سؤالي بسؤال. فهمت، أم أنك لا تفهم؟

- فهمت يا ثريا، فهمت.

- حسنًا ماذا تريد، أجب بسرعة.

- أنا، إنني. . في الحقيقة. . أأ..

وبينما يتهته هكذا، إذ نبح كلب في الجوار.

- هل ستظل تنبح مثل ذلك الكلب، أم أنك ستتحدث؟

- سأتحدث يا ثريا، لا.. لا تغضبي، أرجوك.. أنا.. أأ

- أفٍّ لك، انطق يا أبكم فقد ضاق صدري.

- حاضر، أنا طوع أمرك، أنا..

- سأقولها كلمة واحدة، اغرب عن وجهي حالاً ودعني أمر.

- طوع أمرك يا ثريا.

ابتعد جانبًا، وما إن خطوتُ خطوة واحدة إلى الأمام، حتى اختلط بكاؤه بحروف كلماته:

- أنا .... أحـ . . أحبـ . . ك، أحبك يا ثريا.

خرجت كلماته متحشرجة مع بكائه، كلمات منكسرة وحزينة. لم ألتفت، واصلت سيري وكلمة "أحبك" تسري كخدر لذيذ في أوصالي. مشيتُ، بينما صوت بكائه يتوارى شيئًا فشيئًا حتى يتلاشى تمامًا.

جذوع الأشجار التي يقطعها علام النجار، وابنه بدر، مرصوصة في صف منفرد أمام بيته، بينما رقدت بوابة لم يكتمل صنعها على الأرض وتناثرت أخشاب وبقايا أغصان

جافة هنا وهناك. للبيت بوابة كبيرة مؤطرة بالمعدن ومزينة بنقوش بارزة وأخرى غائرة، ولها مقبض من نحاس. وقفتُ أمامها مباشرة ثم زعقت: "يا راضية"، فجاءني صوتها من عمق البيت كأنه يخرج من جُب ساقية: "تفضلي يا ثريا"، فقلت: "لا، اخرجي الآن". خرجت راضية وعندما وقَفَت أمامي سألتها مباشرة عن سر تهامسها مع فطومة، وأخبرتُها أن تهامسهما عند النبع كان عنّي. أقسمت راضية أن الكلام لا يمسني بشيء ولا يخصني لكني كنت مُصرَّة أن أعرف. كان شافع ابن الخالة "صباح" يلهو على مقربة منا. راضية تعرف أني لن أتحرك شبرًا واحدًا حتى أعرف حقيقة الأمر، فتنهدت وقالت مستسلمة:

- أمرك يا سيدتي، سوف أقصّ عليكِ الخبر، لكن عِديني أنه سيظل سرًّا بيننا.

- أعدك بذلك.

وقفت راضية صامتة لحظة وهي تنظر في الأرض، ثم قالت وهي تتنهد:

- قالت فطومة إنها دخلت لتوقظ أخاها عبدون فوجدته نائمًا على ظهره و...

- أكملي أنا أسمع.

- لَمَحَت عضوه الضخم منتصبًا يرفع جلبابه.

ضحكتُ ضحكة مجلجلة، في ذات اللحظة التي مر فيها بدر من أمامنا. ألقى علينا السلام بصوت خافت وسارعتُ

بالرد عليه:" أهلاً بدر، كيف حالك؟ ". لكنه لم يرد، بل دفع البوابة بعد أن ألقى ما في يده أمام البيت ودخل. طلبت راضية مني مرارًا ألا أبوح بما سمعت، فأكدتُ لها أني لا أفشي سرًّا مهما كلفني الأمر. حينئذ، لمحتُ نافذة البيت تُفتح قليلاً، ثم أطلت منها رأس بدر. كان يقف كتمثال ينظر إليَّ، ولما تأكدتُ أنه هو، ضربتُ راضية على مؤخرتها قائلة: "يا لكما من شقيتين، إلى اللقاء".

بِت ليلتي وأنا أفكر في بدر، وكلما تخيلت انكساره وذله ازدادت غبطتي. لا أنكر أني أميل إليه، لكنني أريده هكذا، ولا أستطيع تفسير ما أشعر به حين ألقاه، ولا أدري لم أشعر بالسعادة، وأكاد أطير عندما يقف أمامي ذليلاً طائعًا. عندما رأيته في المنام للمرة الأولى، طالني العجب: رأيتني أجلس على ربوة مرتفعة، في ظل شجرة خضراء عالية. كان بدر في الأسفل يتطلع نحوي. يحاول جاهدًا الوصول إليَّ، وعندما أفلح في ذلك، رأيته وقد تحول إلى قط أبيض وديع. أخذ يتمسح بي، وأنا أمس شعره الناعم. كان جسده دافئًا وهو يحتك بي في مواضع مختلفة. أنا مستسلمة راضية وأشعر بلذة غريبة. تمددتُ في ظل الشجرة بينما القط يحك جسده الدافئ في جسدي. تمسَّح بساقي، ثم هبط لأسفل حتى أحسست به يتشمم قدمي، ثم قبضت أنيابه الحادة فجأة على أصابع قدمي اليمنى فانبثق منها الدم. دفعتُه صارخة مستغيثة: " انجديني يا أمي".

جاءت أمي مهرولة على صوت استغاثتي التي كسرت صمت الليل: "ما بك يا ابنتي؟". قمت ألهث بينما أحس بألم شديد في أصابع قدمي. أجبت والدتي مطمئنة إياها: "لا شيء يا أمي. فقط، كنت أحلم".

❖ ❖ ❖

ترحل الشمس مسرعة نحو الغرب، ويرحل الضوء، فما تلبث العتمة أن تنتشر ليستقر كل كائن في موطن مبيته. لم أكن قد أضَأتُ الفانوس بعد، حين مر الرجال أمام نافذتي عائدين من صلاة المغرب. أصواتهم المختلطة ما بين ضحك وسعال تبعث في النفس الطمأنينة. لزوجي "عوض" صوت عميق. أحبه حين يتحدث. يقترب مني حين يحادثني، كأن صوته يخرج من بئر. ينعتني دائمًا بالبنت، يقول هامسًا أو صارخًا حسبما يقتضي الموقف: "يا بنت يا فطومة". إن ذلك يرضي غروري. يشعرني بأنوثتي التي كثيرًا ما لمحتُ آثارها في نظرات عينيه، فأنطلقُ في البيت سعيدة، أتعمد المرور أمامه بسبب وبدون سبب. أتحرك بكامل حريتي راضية مقرورة، بينما ترمقني نظراته المتوهجة التي لم تنطفئ جذوتها منذ لقائنا الأول.

كان عوض قد عاد للتو من القاهرة. تقابلنا صدفة في سقيفة "علام". كنا عائدات من النبع، مواعين الماء فوق رؤوسنا وقد ابتلت أثوابنا. كان في مواجهتنا حين ظللتنا السقيفة، وقد ملأت أنوفنا رائحة عطره الزكية. مضى

وقت طـويل دون أن أراه. تغيـرت مـلامحهُ كثيـرًا خلال العامين الماضيين. نسير أنا وثريا وراضية على مهل ونتبادل الحديث. صمتنـا حين بـرز أمامنـا. صـارت الكلمات بعيدة المنال. ثوبه نظيف وشعره الناعم مـرجَّل لأقصى حد. وجهه متـألق، وعينـاه ثابتتان ﰲ اتجاهـي. اختلـج قلبي حتـى كدتُ أتعثـر ﰲ تيار الهواء الذي يتخلل السقيفة. لم أنس تعبيرات وجهه منـذ ذلك اليوم. أذكر أني تبسـمت له حين مر بالقرب منا، ولا أدري لِمَ فعلت ذلك. الفتاتان لاحظتا نظراته أيضًا، وضحكتـا بعـد أن صـار خلفنـا. ﰲ اليوم التـالي، كـان خبـر خطبتنـا قـد انتشـر ﰲ أنحـاء الـواحـة. جـاء أخـي عبـدون ليخبرنـي أنه قَدِم للتو من عند الشيخ منطوق، وأن عـوضًا قد طلب يدي منه. فانطلقت والدتي تـزغـرد بعـد أن غـابت الفرحة عن بيتنا منذ أن مات والدي.

عوض يحبني ويخاف عليَّ مـن الهواء، وأنـا أبادله الشعور ذاته. أشعـر، حين يدللني، بأني ملكة تحمل على رأسها تاجًا من الأزهار. العم بكير يحبني أيضًا ويدللني. يقول: "فطومة بنت مطيعـة". وحين يكون رائق المزاج ينعتني بـ "قمر البيت"، أو "زهرة الحديقـة". لم تستطع الخـالة فرحـانة أن تنجب له بنتًا. عوض هو ابنهـما الوحيد، وأنـا غدوت ابنتهم التي طالما اشتاقوا إلى إنجابها.

منذ لحظات والخالة فـرحانة تروح وتجئ ﰲ البيت، قلقًا على زوجهـا وابنهـا. لقد تـأخرا اليـوم ﰲ الحقل بـالفعل. لم

تكن تلك المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك، لكنها في كل مرة تنتابها الهواجس ذاتها، ولا تكف عن التساؤل: "لمَ تأخرا هكذا، ترى ماذا حدث؟ اللهم عجَّل بإرسالهما".

كنت أجلسُ في قاعة البيت، لا أبدي حراكًا. أنتظر أن يعودا في أية لحظة، بينما الخالة فرحانة في منتهى القلق؛ تخرج من حجرة لتدخل أخرى. عندما انتبهت إليَّ، رمقتني بنظرة متأملة هندامي ثم قررت: "لا يروقني شكلك هكذا، قومي الآن، خذي هذا الطست وادخلي حجرتك، اغتسلي وغيّري ثيابك".

ضيّعت الظُلمة ملامح الغرفة التي أحفظها عن ظهر قلب. وضعتُ الطست النحاسي في وسط الحجرة وأنا أتحسس خطواتي ثم قفلتُ عائدة لجلب الماء. انتهيتُ سريعًا وتوجهتُ إلى النافذة لأفتحها حتى أرى موضع الفانوس المُعَلّق على الحائط.

حين فتحتها، انسل ضوء خافت اتضح من خلاله شبح الفانوس. اتجهتُ إلى كُوّة صغيرة في الحجرة، اعتدنا أن نضع فيها الحاجات الصغيرة، تحسستُ أرضيّة الكوة بدقة حتى عثرتُ على علبة الثقاب.

أشعلت فتيل الفانوس، فانتشر نوره الأحمر الخافت، ملقيًا ظلالاً واهنة هنا وهناك. في ركن الحجرة، يقبع صندوق الملابس الخشبي المكسوّ بقماش حريري أزرق. لم أكن قد ارتديت ملابسي بعد. توجهتُ مباشرة نحو نافذتي

الصغيرة كي أغلقها وأنا أترنم بأغنيتي المفضلة: "يا ساقية يا بحرية". رفعتُ ذراعيَّ ولم أقوَ على ردهما ثانية. توقف الزمن لحظة عندما فاجأني مرور حسين. يبدو أنه تفاجأ بوقوفي هكذا أيضًا.

كان ينظر إليّ كأنه لا يرى شيئًا، لا، بل كأنه يرى كل شيء. تقهقر خطوة للوراء، ثم قفز للأمام في خطوة واسعة، وعيناه تتابعاني. كانت ذراعاي مرفوعتين في الهواء، ولا أدري ماذا أفعل.

***

أعرفُ أن الأمور لا تحدث عبثًا. فالحياة تسير وفق قوانين محددة، لا تحيد عنها. لكن ما يحدث معي لا أدري حقًّا مغزاه، ولا أدرك الهدف من ظهورها هكذا على فترات أمام عينيَّ؟ لتوقظ داخلي ماردًا لا أقدر على كبح جماحه، ماردًا يقتلع جذور أشجاري، ويوقد النار في أعشابي الخضراء، ثم يتركني بقايا تجرفني الرياح إلى هوة عميقة لا قاع لها.

كنتُ في طريق عودتي إلى البيت، أتعجَّل خطواتي ورأسي منشغل بانشغال والدتي الحتمي لتأخري عن المعتاد. ثم انبثَقتِ من النافذة كأنها تخرج من حلم. ضوء الفانوس، في عمق الغرفة، يصنع حول جسدها هالة من سحر الأساطير. ينسدلُ شعرها الأسود الناعم ملتصقًا بوجهها المستدير ويتابع هبوطه حتى أسفل النهدين. كان قمر الغُرفة في

تمامه بينما الليل في كامل عتمته. ذراعاها المرفوعتان لأعلى تتساقط منهما قطرات الماء وصدرها المليء العاري ناهضٌ، ينظر من النافذة الصغيرة فيضئ ظلمة الزقاق، ورائحة صابون قوية تعبق في المكان.

كان ظهوري غير متوقع في ذلك الوقت بالمرة، كما كان الحال مع وقوفها في النافذة على تلك الحال. كان نصفها العلوي فقط في مرمى نظري؛ امرأة مكتملة كثمرة نادرة وأنا في مواجهتها تمامًا. ما أعرفه هو أنها رأتني في اللحظة ذاتها التي اكتشفتُ فيها حضورها البهي خلف النافذة. اشتبكت نظراتي - التي لا تعرف كيف تذهب ولا كيف تجئ - مع كلمات الأغنية التي كانت تصدح بها في فضاء النافذة:

"يا ساقية يا بَحْريّة

مليانة زلال وميّة

خَشّك عريسي بطوله

يتعاجب على جوز عيونه

والطربوش أحمر على لونه

والساعة دهب يا عينيّه"

كانت فطومة تغرِّد، وذراعاها المرفوعتان تستعدان لإغلاق النافذة، وأطراف شعرها الطويل تقطر ماء يسيل نحو خصرها. عيناها تنظران إلى أعلى بينما اشرأب

نهداها كي يملآ فراغ النافذة الصغيرة ويكتشفان العالم الخارجي... بعد لحظات، وجدت نفسي أمام بوابة بيتنا، أدفعها لأدخل.

❖❖❖

لا أدري ما الذي حدث على وجه التحديد؟ هل رآني حسين هكذا؟ إن المفاجأة سلبت مني شهقة عميقة، ثم خطوة لا إرادية للوراء. وحين اندفعتُ للأمام مرة أخرى لأغلق النافذة كان حسين قد قفز في خطوة واسعة للأمام، ثم اختفى تمامًا. لقد انتبهتُ لشهقته أيضًا حين تفاجأ بي. أغلقت النافذة واستدرتُ وأنا ألهث، والحجرة تدور بي. لماذا حسين؟ وما الذي ترتبه الأيام؟ هاهي الخيالات تنتصب أمام عيني مرة أخرى. لماذا تأخرت هكذا ياعوض؟

15

زقاق الطاحونة

خرجتُ عصر اليوم من البيت منتشيًا، لا أدري لماذا. انعطفتُ يسارًا في طريقي إلى الحظائر. تمهلتُ قليلاً عند بيت علام النجار وتطلعتُ إلى بوابة البيت الكبيرة، لعلني ألمح البنت "راضية" فأريها جلبابي الجديد الذي أهداه لي حسين بالأمس؛ فقد عاد والده من القاهرة محملاً بهدايا وأقمشة تخطف الأبصار، في الحقيقة أنا ممتنٌّ له أشد الامتنان لأنه لم ينسني..

عيناي تتنقلان بين أكوام الحطب، الذي يضعه العم علام في الفضاء الواسع، أمام بيته، حتى يضيق به المكان، فيرصّ ما تبقى منه لصق جدران الزقاق. كنتُ منشغلاً بالبوابة التي يمكن أن تُفتح في أية لحظة ليطل منها وجه "راضية"، الذي أحبه. تناولتُ قطعة حطب صغيرة، قلَّبتها بين يديَّ، فرأيت أنها تصلح لأن تكون مقبضًا جيدًا لمنجلي التي أعتزُّ بها، بدلاً من ذاك المقبض الذي انكسر في يدي بالأمس.

كنت قد جلبتُ له قَبْلاً قطعة من خشب، كي يصنع لي مقبضًا للمنجل. كان جالسًا، في ذلك اليوم، كعادته أمام البيت، يداه مشغولتان بالخشب، وأدوات النجارة متناثرة من حوله. فُتحت نافذة الحجرة التي على يسار البوابة بينما أحادث الرجل. رفعتُ رأسي في حذر، فوجدت راضية تقف في جانب من النافذة بحيث لا يظهر وجهها كاملاً. أشارت إليَّ تحييني ثم تجرأت وطيَّرت لي قُبلة في الهواء. ارتبكتُ وخشيت أن يراني الرجل على تلك الحال فأعطيتها ظهري وتناسيتها تمامًا... تأمل الرجل قطعة الخشب وقلَّبَها بين يديه، ثم نصحني: "اسمع يا عبدون من الأفضل أن تحضر لي قطعة من خشب الزيتون بدلاً من تلك لأنه الأكثر صلابة وتحملاً"، لكني لم أنصت لنصيحة الرجل، متعللاً بأنني في عجلة من أمري (كنت متعجلاً بالفعل)، كما أني لا أمتلك غير تلك المنجل..

بالأمس فقط ندمتُ على أني لم آخذ بنصيحة النجار.

انتظرتُ أمام بيتها للحظات، ولما لم تُفتَح البوابة ولم تخرج، عدتُ أدراجي منكسرًا، لأقطع الساحة الواسعة وأدخل الزقاق الغربي مارًا بالطاحونة التي تقع في بداية الزقاق على اليمين. عندئذ، اخترقت أذناي أصوات مختلفة متداخلة للحيوانات التي تحتل حظائرها تلك الناحية. عندما وصلتُ إلى باب الحظيرة، أحسستُ أن شيئًا ما قد حدث بالداخل يدل على أن الأمور ليست على ما يرام.

ووصل إلـى أذنيَّ نبـاح كلاب يـأتي مـن بعيـد، فلم أستبشـر خيـرًا. تـشم الـكلاب رائحـة طعـامهـا علـى بعـد آلاف الخطوات، فهي من أقدر الحيوانـات علـى الـشم. سـحبتُ لسـان التـرباس بـالمفتاح الخشـبي ودخلت... وقفتُ ساهمًا وأنا أرى إحدى معـزاتي ممدة علـى الأرض. تحسستها، كان جسدها باردًا ولا أثر فيه لحياة، حزنت كثيرًا لتلك الخسارة المفاجئة، فـأنـا لا أقصـر في رعـايـة حيوانـاتي؛ أعتني بهـا جيدًا، وأسعد أيما سـعادة وأنا أراقبها تكبـر أمام عيني على مـر الأيـام. أشفقـت عليهـا ولم أشعـر أنـي أحبهـا كثيـرًا إلا الآن..

ازداد نبـاح الكلاب وتواصل صداه القـاسي في أذني بينما استعـادت ذاكـرتي مشهـدًا، كنـت قـد نسيتـه، لـكلب أسـود يطـاردني بلا رحمـة. عضضتُ علـى أسنـاني غيظًا وأنـا أحدث نفسي: "كم أكره الكلاب".

انتهيتُ إلـى الفضـاء الـذي يفصل زقـاق الطـاحـونـة عن المقـابـر، مـن هنـاك، نعـرِّج إلـى أرض الحمـراء، لنتـرك الحيوانـات النـافقـة علـى أطـراف الكثبـان الـرمليـة، حيث تتجمع الكلاب، وتقعي إلى جوارهـا حتـى تنتفخ وتتعفن؛ مسـاحـة واسعـة مـن أرض صلبـة يفتـرشهـا حصـى أبيض مستدير في حجم حبة الحُمص، تتنـاثر فيها هيـاكل عظمية لأبقـار وحمير وأغنـام نـافقـة وتتخلل شقـوقهـا، التي تـشكل شبكة عنكبوتية، بعض النباتات الشوكية القصيرة.

ما إن خرجتُ من الزقاق حتى قذفت الشمس أشعتها مباشرة في عيني. رفعتُ يدي اليمنى في موازاة جبهتي لأتقيها ومشيت قاصدًا أرض الحمراء.

هناك أسفل شجرة السنط، والتي يعلق فيها الشيخ منطوق "مِنْشَالاً" من الفخار، يملؤه سليمان، كل صباح، بالماء، ليشرب منه الرائح والغادي، قفزت إلى ذهني فكرة فعزمتُ على تنفيذها في الحال. قلتُ في نفسي "ستصبح معزاتي حديث الأحاديث": لن أترك عزيزتي وليمة للكلاب التي ازداد نباحها الآن. وحدثتني نفسي بأنني سأكون سعيدًا لو حفرتُ لها حفرة ودفنتها في التراب نكاية فيهم، لكني سأفعل ما هو أعجب من ذلك...

وضعتُ المعزاة النافقة تحت الشجرة ثم تسلقت الجذع الضخم، ربطت الحبل من منتصفه في فرع مائل وتركته يتدلى للأسفل من طرفيه، ثم نزلتُ. أوثقت الحيوان جيدًا في أحد طرفي الحبل المتدلي، ثم رفعته لأعلى وسحبت الحبل من طرفه الأخير لأسفل، فارتفعت المعزاة من الناحية الأخرى لأعلى، وأمست معلقة في الهواء.

قَطَعتُ ما يقرب من ثلاثين خطوة، ثم جلستُ في ظل شجرة سدرٍ أنتظر مقدم الكلاب التي وصلت إلى أنوفها حتمًا رائحة الطعام.. بعد قليل، بدأت البشائر تهل؛ كلبان نحيفان قادمان من بين أشجار النخيل المتناثرة شمالي المقابر، كلب قادم من الجهة القبلية فيما وراء الحظائر،

رابع وخامس.. بعد ما يقرب من نصف ساعة، كانت الكلاب أسفل شجرة السنط، كأنهم على موعد محدد سلفًا.. يرفعون رؤوسهم وينبحون.. يتقافزون وينبحون.. يتدافعون ويتصارعون بُغية الوصول إلى الجائزة المُعَلَّقَة، ولا فائدة... ظلوا في عراكهم وحركتهم الدائبة إلى قبيل مغيب الشمس، ثم خارت قواهم فتكوموا أسفل الشجرة ملتصقين كأنهم أخوة، بينما رءوسهم ما زالت مرفوعة ونظراتهم ثابتة في وليمتهم التي يضربها الهواء فتهتز اهتزازات لا تكاد ترى، كأنها تغازلهم. كنتُ مضطجعًا في سكينة على الرمال أسفل شجرة السدر أراقبهم عن كثب مُتشفيًا منتشيًا.

❖❖❖

عاد عبدون من حظيرته مع مقدم الليل. كنت أجلس أنا وحمودة، على المصطبة أمام بيتهم، جلسة صفاء، وفوجئنا به فوق رأسينا. قبل أن يصل بلحظات، كان حمودة يحكي لي شيئًا من مغامراته مع عفاف – بعد أن أخذ عليَّ عهدًا ألا أبوح لأحد بسره. طمأنته، وذكرته بأمر تلصصه على "تعلب"، ليلة زفافه، وكيف أنني لم أبح لأحد بذلك السر الذي مرَّ عليه عامان... كان حمودة قد روى لي حكاية صعوده النخلة العالية في تلك الليلة، وقد نسيت ذلك الأمر تمامًا ولم يخطر ببالي إلا هذه الليلة: "كانت حفلة الزفاف قد انتهت بصخبها وغادر الناس إلى بيوتهم وأووا إلى فرشهم.. الظلام يلف الواحة. أضواء خافتة تتسرب من

كوّات صغيرة في بعض المنازل كأنها نجوم متناهية البُعد في السماء. تسللتُ إلى فناء البيت متجاوزًا سوره الواطئ وتسلقتُ النخلة العالية التي تُشرف على رواق تعلب مباشرة، تسلقتها في خفة وسهولة لا تصدق: تعلب ممدد في فراشه والفانوس القديم معلق في مسمار بالحائط يضئ الرواق. زوجته إلى جانبه تداعب صدره على ما يبدو. ظلال مشوَّهة منكَّسة على الحائط. الشباك المفتوح لا يسمح برؤية المشهد كاملاً، لكن يدًا تخمش في النهدين الطافرين. يقبّلها، ينسدل رأسها إلى الوراء، تنطرح أرضًا، هي لا تظهر الآن، يظهر نصف جسده الأعلى عاريًا، يبدو أنه اعتلاها. دقيقة واحدة، ويقوم عنها متثاقلاً. ينطرح مرة أخرى على فراشه، ويسود الصمت".

قبل مجيء عبدون بلحظات مرَّت "سبيل" في اتجاه بيت العمة وجيدة. كانت تلفُّ في شالها شيئًا للعمة؛ رغيفين من الخُبز على ما يبدو. لم نكتشف مرورها إلا بعد أن أمسى بينها وبين جلستنا خطوات. كان حمودة يستفيض في وصف تلصصه المنتظم على حبيبته من فوق السطح، عندما انشقت الأرض فجأة عن سبيل التي لم نرها لسخونة الموضوع. قال حمودة، بعد أن تجاوزتنا: "أخشى أن تكون قد سمعت شيئًا". قلتُ: "لو كان ذلك كذلك، فاعلم أنك فقدتَ عفاف إلى الأبد، لأنها ستحكي لها ما سمعته بالتأكيد، واعلم جيدًا أن ما تخبئه الصدور تكشفه الأيام". ظل

حمودة ساهمًا للحظات يفكر فيما قُلته، حتى فاجأنا عبدون بمقدمه.

جلس عبدون إلى جواري بعد أن ألقى التحية وأخبرنا عن معزاته التي وجدها ميّتة وعن فعلته العجيبة التي فعلها نكاية في الكلاب. تناسينا مرور سبيل المفاجئ، بل إن حمودة ضحك حتى كاد يُغشى عليه، ثم قال: "لم أكن أظن أبدًا أنك بهذا الذكاء". تجاهل عبدون سخريته، ثم مال إلى أذني ليخبرني بأنه يريدني في أمرٍ مهم، قال: "حاول أن تتخلص منه، ثم وافِني عند "دومة عنترٍ"...

لحقت به هناك، لكن عتمة الليل، والذي هجم سريعًا، لم تتح لي رؤيته، برغم ذلك، استطعتُ تحديد مكانه عندما تحدث قائلاً: "أنا هنا، أسفل الشجرة. الليلةُ، سيتأخر القمر في الظهور". كنت أعرف أن القمر سيتأخر في الظهور عن الليلة السابقة، مثلما سيتأخر ليلة غد عن هذه الليلة. جلستُ إلى جواره على حجر أسود مستطيل الشكل، يرقد أسفل الشجرة منذ سنوات.. تحدث عبدون إليَّ بكلام غريب؛ قال إنني أقرب أصدقائه إليه، رغم إني لم أكن كذلك، لكنني شعرت بصدق كلامه. قال إنه كان يراني متكبرًا، أتعالى عليه بما قرأتُ في كتب الشيخ، وإنه كان مخطئًا بشأني في كل شيء. صوته كان خفيضًا مرشوشًا بالحزن، قال: "إني أتذكر ذلك الصباح الذي حدثتني فيه عن اكتمال الحياة، وأن الكون لا يسير عبثًا، وأن لكل

الأشياء، مهما تضاءلت قيمتها في نظرنا، قيمة ووظيفة حتى إن كنا لا نعرفها. في ذلك اليوم، قلتُ في نفسي: "إنك تهذي بما لا تعرف، بل تردد ما تسمعه من الشيخ... والسلام".

كنت أسمعه ولا أنبس ببنت شفة، فقد كان صوته الرائق مختلطًا بصمت الكون وصفائه وصدقه، كما أنني لم أعرف بم أردّ عليه...

تأكدتُ أخيرًا أن عبدون في احتياج لمن يسمعه ويتسع له صدره. كنت سعيدًا لأنه اختارني أنا وخَصَّني دون بقية أصدقائه بما سيحكيه (على حد قوله) للمرة الأولى. كنت، بالفعل، أسمع تلك الحكاية، بصورة مكتملة، لأول مرة، ولأول مرة أيضًا تتضح الرؤية أمامي بخصوص كرهه الزائد للكلاب...

ظل ذلك اليوم محفورًا في ذاكرة عبدون، لا ينساه. كان طفلاً يلعب، في عصر أحد الأيام، وسط بساتين النخل. يتمرغ على بساط أخضر ندي. يتأمل طيور القمري وهي تفر من نخلة إلى أخرى، يحاول أن يُحصيها: واحدة، اثنتان، ثلاثة. كانت طيور أبي قردان تدور إلى جواره، تنقر الأرض بمناقيرها الحادة، وعبدون يستلقي متمرغًا على الحشائش الطريَّة. يتأمل السماء الصافية التي تظهر أمام عينيه في أماكن متفرقة من خلال أغصان الأشجار. جريد النخيل يطوحه الهواء يمينًا ويسارًا، فيتخيل نفسه معلقًا في أطراف

الجريد يتطوح، وتتمايل معه جذوع الأشجار: تلك الشجرة تقف باسقة، تتمايل أغصانها كأنها تتراقص، تبدو أفرعها المتباعدة كأنها أذرع مرفوعة نحو السماء.. تأمل الشجرة وتساءل: "هل تعرف الأشجار أن اللّه موجود في الأعالي؟"

انسحبت الشمس بخفة، وغاصت وراء غابات النخل الكثيفة. ما زال الضوء الأحمر للأفق يترك نتفًا واهنة من ذكرى النهار الذي مضى، وعبدون تائه في الملكوت. لم يفق إلا على صوت نباح كلاب يأتي من بعيد. تلفت حوله منتفضًا. تذكر أنه ما زال في الحقول. وحيدًا كان، ما من شيء الآن يستطيع أن يدفع مخاوفه التي تحلّقَتْ حوله وتسلقت جسده الضئيل كنملٍ أبيض يستعد للانقضاض. نفض جلبابه وأسرع الخطى وهو يخترق الحقول، متوجهًا إلى الطريق المؤدي إلى البيوت. أرعبه الظلام الذي هبط فجأة و شوَّش على تفكيره، وانتصبت الأشباح أمام عينيه، بينما تسارعت دقات قلبه وتداخلت في سمعه أصوات غريبة لكائنات الليل.

وصل بالفعل إلى أول الطريق، وفتح عينيه على أقصى اتساع لهما محاولاً أن يتبين ملامح وعلامات الطريق التي ألفها وحفظها مثل ظاهر يده. هو الآن يخشى النظر إلى الكثبان الرملية التي كان يحب اللعب مع أصحابه بينها. لقد تحولت إلى أشباح سوداء عملاقة، لا يدري ما يختبئ خلفها. قفزت صورة أمه أمام عينيه واستعادت ذاكرته

صورة ذويه وهم يجتمعون إلى مائدة طعام العشاء بدونه. طفرت الدموع من عينيه. حاول أن يأخذ نفسًا عميقًا فلم يستطع، كأن الظلمة سحبت كل الهواء من حوله. كان يحث الخُطى ولا يكف عن التلفت حوله، بينما تدافعت في رأسه كل حكايات العفاريت والجان التي كثيرًا ما سمعها من الخالة فرحانة في ليالي الشتاء.

بكت أمه وناحت فاجتمعت حولها النسوة يشددن من أزرها. خرج "عبد الفضيل" يبحث عن ابنه وخلفه خرج الرجال بفوانيسهم التي تضيء على بعد خطوات. كانت أخته "فطومة" قد سألت عنه أصحابه فأخبروها أنهم لم يروه منذ الظهيرة. دارت على كل البيوت تسأل، لكن دون جدوى. رجعت خائبة تتلفت يمنة ويسرة، حتى أنها كانت تنظر في شقوق الحوائط وخلف الأشجار التي تقابلها، لعلها تجده هنا أو هناك.

جرى عبدون حتى انقطعت أنفاسه، وهو لا يكف عن التلفت. كان يطأ بأقدامه الحافية كل ما يقابله من نباتات جافة وأشواك "عاقول" وروث بهائم، لكنه لم يكن يأبه. تحولت كل الأشياء حوله إلى عفاريت لها أعين مشقوقة بالطول. على أجسادها، شعر كثيف ولها أظلاف سوداء كالأغنام. حين دار حول الكثيب العالي، الذي تدور معه الطريق، ظهرت أمام عينيه أضواء خافتة متفرقة مثل نجوم بعيدة في السماء، فتنفس الصعداء وأيقن أنه على مشارف

الوطن. تذكر والديه وندم على أنه لم ينتبه لانسحاب الوقت هكذا. لم تعد عيناه تحيدان عن نقاط الضوء التي بدأت تقترب وتكبر شيئًا فشيئًا، لتمنحه عزمًا وإصرارا هائلين.

كان يحث الخطى ناحية الضوء، عندما شعر كأن حيوانًا يلهث في أثره. التفت وراءه فأبصر شبحًا، عيناه المتوهجتان تقدحان شررًا. ارتعش جسده وخارت قواه... ضاقت المسافة بينه وبين مُطارده فأحس بشعر رأسه ينتصب كالإبر، ولما أصبحت المسافة بينهما خطوات قليلة، سمع زمجرته عرف أنه كلب، لكن أنفاسه كانت قد انقطعت تمامًا وسقط مغشيًا عليه.

عندما وصلوا إليه بأضوائهم الخافتة، وجدوه مطروحًا على الرمال، بينما يُقْعِي كلب أسود على بُعد خطوات منه. جثا والده إلى جانبه، هزّهُ عدة مرات، احتضنه وشرع ينادي عليه لكنه لم يُجب. حمله بين ذراعيه واستدار وهو يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قضى الصبي ليلته في الفراش مُرتعشًا محمومًا. حاول والده أن يستفسر منه عما حدث فلم يخرج من بين أسنانه المصطكة سوى همهمة غير مفهومة. أكدت العمة وجيدة أمام كل النساء اللواتي زرن ابنها - وهي تضرب على صدرها ضربات متتالية واهنة - أن مَسًّا قد أصابه من ساكني الأرض السفليين. وأكدت أنها ستؤدي طقوس الترضية كما ينبغي، كي يرضى عنه "الأسياد". وعبدون في الفراش، ليس على لسانه سوى: "الكلب، الكلب".

قصدت والدته - في صباح اليوم التالي - المكان الذي أصيب فيه، ونثرت فيه ملحًا ورشّت ماءً... بعد غروب الشمس، أخذت معها ابنتها الصغيرة وقصدت المقابر. كانت تضع في طرف شالها الأسود كل ما تحتاجه لترضية "الأسياد". الفانوس في يدها بالكاد يضيء مواضع قدميها، وابنتها خلفها، تمسك بذيل جلبابها وهي تتلفت. قطعت ساحة المسجد واخترقت زقاق الطاحونة الغربي، بخطى ثابتة. سمعت كثيرًا عن العفاريت التي تظهر هنا في الليل. دارت الأفكار في رأسها، لكنها نظرت إلى شُعلة الفانوس وهمست: "العفاريت تخاف من النار".

كانت بيوت الواحة المتلاصقة تقبع خلفها، هادئة صامتة بينما تمر هي وابنتها وسط المقابر. لا يُسمع سوى نباح كلاب يأتي من بعيد. كان الهواء ساكنًا تمامًا والظلمة تطبق على الكون. تبدو السماء قُبة سوداء، يتناثر فيها عدد لا يحصى من النجوم. قرأت سورة الفاتحة في سرها سبع مرات... كأن يدًا هائلة حملتها وطارت بها في السماء، ثم وضعتها أمام جبانة الشيخ "سليمان" والد الشيخ منطوق. كان - يرحمه الله - رجلاً تقيًّا حاملاً لكتاب الله.

وقَفَت مترددة أمام الباب المُغلق للجبانة وابنتها تمسك بطرف ثوبها، تشدها للخلف آملة أن ترجع أمها عن فكرة الدخول. لكن الأم كانت قد وضعت في رأسها هدفًا واجب التحقيق. فَكَّت عُقدة الشال ووضعت رغيف الخبز إلى

جوار الباب، ثم دفعته برفق. مدت يدها بالفانوس إلى عمق المكان فانقشع الظلام وظهرت حوائط الجبانة بيضاء ناصعة... في الداخل، أشعلت "السراج" الذي جلبته لهذا الغرض ووضعته في أحد الأركان، ثم أطلقت البخور ودارت حول قبر الشيخ، وهي ترفع عينيها إلى السماء وتدعو لابنها بالشفاء، حتى امتلأ المكان برائحة البخور النفاذة. خرجت وأغلقت الباب وراءها برفق. دارت حول الجبانة و"المَبْخَرَة " في يدها بينما تردد:

"يا ملوك السما

يا ملوك الأرض

ارضوا على عبدون ابن وجيدة

ابن المشيمة والخلقة العظيمة

اهدوا عليه وارضوا عليه

أنتم في الأرض، واحنا في العَرض"

ظلت الأم تدور وتردد، حتى احترق البخور تمامًا وانطفأ. انصَرَفَت في خُطى واسعة، راضية مقرورة العين وواثقة أن ابنها سيشفى ببركة الشيخ سليمان!

كان زقاق الطاحونة هو أصعب مرحلة في رحلة العودة. الزقاق واطئ ومسقوف حتى نهايته تقريبًا. ما أن تدخله – نهارًا – حتى تشعر كأن الليل قد هبط فجأة في المكان، فما بالك في ليلة غاب فيها القمر؟ كان الظلام دامسًا، في

منتصف الزقاق، والفانوس في يدها يجاهد في طرده فلا يفلح. كانت تفكر في حديث زوجها عن الكلب الأسود الذي وجدوه يقعي إلى جوار الولد، وكيف أنه لم يتزحزح برغم جمع الرجال الذين قالوا أنه حيوان أشبه بالكلب وما هو بكلب! وأيا ما كان ذلك الكائن فإنه كان على بُعد خطوات من الصبي المُلْقَى على رمال الكثيب ولم يحاول أحد أن يزجره؛ حملوا عبدون وانصرفوا، وبعد عدة خطوات في اتجاه البيوت، التفتوا وراءهم فلم يجدوه.

في الصباح، كانت آثار أقدام عبدون على الرمال واضحة جلية. أمه نثرت الملح في مكان سقوطه الذي كان واضحًا على الرمال. تذكرت الآن أنها لم تر آثارًا للكلب الذي حكوا عنه فانقبض قلبها وشرد ذهنها. حاولت أن تستعيد المشهد مرة أخرى، فربما رأت آثار خطواته مطبوعة على الرمال، لكن دون جدوى...

بينما هي شاردة الفكر إذ جذبتها ابنتها من الثوب جذبة شديدة، واندست بين سيقانها من الخلف وهي تشهق وتشير بإصبعها للأمام. نظرت الأم فلم تر في الظلام سوي عينين متوهجتين، وزمجرة تشبه زمجرة الكلاب. ارتعش جسدها وارتخت مفاصلها وظلت تحدق، محاولة أن تتبين كُنه ذلك الكائن الذي لم يتحرك من مكانه خطوة واحدة. تنظر إليه وهو يحدق فيها ويزمجر. شعرت كأن جسدها كله قد اشتعل فيه النمل. عينا الكلب كانتا تشعان وهجًا،

تضيئـان ـ في الظلام. كان الفانـوس في يدهـا، رفعته قليلاً لأعلـى وهي تتمتم بـالفاتحـة وعنـدما أرخت ذراعهـا لـتتبين ملامح الكائن المنتصب أمـامهـا، لم تجـد شيئـا. استعـاذت بـالله من الشياطين، وتقدمت في ارتباك إلـى الأمام وابنتها تدُسُّ وجههـا في طرف الثوب. كانت تشعر بـارتعاش الجسد الصغيـر الملتصق بهـا. حاولـت أن تسـري عنهـا بكلمـة، لكن جفاف حلقها حال دون ذلك.

دخلت البيت مـرتعشـة، خائـرة القوى. كان عبـدون يروح ويجيء في قاعة البيت، كأن شيئًا لم يصبه. ابتسمت والدته في وجهه وجسدها كله يؤلمها... وعنـد بزوغ الـنهار، نهرها زوجها:

- قومي يا امرأة، لقد تأخر الوقت.

- لماذا تريد أن تقوم الآن، وضوء الفجر لم يبزغ بعد؟

- هل جُننتِ!! إن ضوء الشمس يغمر الدنيا.

فتحـت وجيدة عينيها على أقصـى اتساع لهما، لكن ظلمة ثقيلـة كانت تحيطهـا. ظنت أن زوجها يمـازحها كمـا يفعل أحيـانًا فـاستلقت مكانها ثـانيـة، إلا أنه نهـرهـا وزجـرهـا، وأسمعهـا كلامًـا قـاسيًا، نـادرًا ما كـانت تـسمعه منه. تلفتت حـولهـا لعلهـا تـستوضح أثـرًا يدل علـى بـزوغ النـهار، مـا من شيء سـوى كتل الظـلام بعضهـا فـوق بعض. تـذكـرت، الآن، الألم الـرهيب الـذي شعـرت به يكتـسح عينيهـا في الـليلـة

الماضية. هاجمت الأفكار المخيفة عقلها مثل عاصفة رملية مفاجئة، واضطربت دقات قلبها. شعرت أنه سيُغمى عليها أو أنها ستفقد حياتها في أية لحظة. كان زوجها يتمدد ساكنًا بينما هي جالسة إلى جواره لا ترى شيئًا، تتلفت محاولة أن تتبين أي أثر يُكَذِّب تلك الفاجعة التي حطَّت عليها، ولا فائدة. لا تدري كيف تخبره، صار لسانها ثقيلاً مثل جثة... في ذلك الصباح، أيقنت وجيدة أن نور بصرها قد غاب إلى غير رجعة.

16

بـــداية

قال لي الشيخ ذات يوم: لتعلم يا بني، بأن الإنسان عالَم قائم بذاته. كون كبير لا يُحَدُّ. اكتشف نفسك، وذاتك، وقوّتك. وغُص في داخلك. تأمل باطنك تر ما حولك بجلاء. إن جوهر الإنسان هو نواة هذا الكون ومحور دورانه. ابحث عن جوهرك. أَزِلْ ما عليه من التراب تحلَّ بصيرتك محل بصرك، ويشعَّ نور قلبك إلى ما لا نهاية. ابحث أولاً عن الباب الذي تستطيع من خلاله أن تلج إلى ذاتك. ساعتها يمكنك أن تلمس الحقيقة المطلقة.

كثيرًا ما كنتُ أجلس وحدي: أفكر، أتخيل، ربما يكون ثمة شخصٌ في نهاية العالم يجلس مثلما أجلس، ويفكر في أن يترك موطنه مثلي ويخرج في رحلة طويلة إلى منطقة منعزلة عن العالم، لا يعرفها أحد؛ منطقة لا تهتم كثيرًا بما يحدث خارج حدودها. الناس هنا لا يشغلهم إلا الحقول والأبقار وجمع البلح وحصاد القمح، وشتل الأرز. حتى في أوقات الفرح والمتعة لم يكن هناك سوى شراب "اللَّجبِي"،

يصنعونه من قلب النخلة الذكر ليشربوه في ليالي المرح واللهو.

قضيتُ ليالي كثيرة، يراودني حلم يتكرر في نومي، إذ أحلم بأنني أطير، وما عليَّ إلا أن أفرد ذراعيّ فأجدني أطير فوق قمم الأشجار وهامات النخيل، أرى كل شيء من أعلى. إن أكثر الليالي هدوءًا واستقرارًا لديَّ، هي تلك التي أحلم فيها أنني أطير. ألهم الطيران كما ألهم النفس. ساعتها أصحو في الصباح رائق النفس، لديَّ أمل كبير في أن أصبح فردًا حرًا في يوم من الأيام يفعل ما يشاء. يتعلم، يسافر ويشاهد.

كانت الجُزُر الرملية الراقدة غرب الواحة تحاول ابتلاع الشمس، وابتدأ الظلام يهبط بجثمانه الثقيل ليصبغ البيوت والأشياء بالأسود القاتم.

لا أدري سرَّ هذا السيلان العارم في رأسي، وهذه الفوضى المعقدة التي تجتاحني حين أتأمل الغروب. ذلك القرص الأحمر يهب الكثبان الرملية لونا شفقيًا أحمر، كما يصبغ جدران البيوت ويغلفها باللون ذاته، وتمتد الظلال الباهتة للنخيل إلى ما لا نهاية. تغطس الشمس بعدها خلف التلال كأن يدًا قوية تسحبها، فتستحيل الأشياء التي كانت تنبض بالحياة منذ قليل، أشباحًا ظلامية جامدة، كأن الغروب يسحب منها آخر أنفاس الحياة. إنه الفناء الذي يُشعرنا كل يوم بتفاهة حياتنا ولا جدواها!!

برغم ذلك أعشق لحظة الغروب. أقابلها بعينين شغوفتين ومثبتتين على الأشياء جميعًا في آن. ومع احمرار الأفق الذي يمتد وراء كثافة النخيل اللانهائية ودكنة الجبال وامتزاجها الحالم مع زرقة السماء في الناحية الأخرى، أمشي على رمال صفراء قاصدًا الخلاء الواسع شمالي الواحة. يتملكني شعور غريب بأنني أستطيع الآن أن أحلق عاليًا. أرى جسدي هناك في الأسفل. ألمح آثار قدميَّ الحافيتين على الرمال. أعرف ذلك الغروب الصيفي. أكاد أرى انعكاس زرقة السماء على الأصفر المتموج الذي أراه الآن من أعلى، بينما تداعب رئتي نسمات باردة أستنشقها في أنفاسي طويلا. آه، لو تتسع رئتي لشهيق واحد أبَدي لا يتبعه زفير. آه، لو أجد بابًا للخروج من هذا الحيز الضيق الذي يضغط على رأسي بيده الضخمة حتى يدفنني واقفًا في الرمال...

على المرء أن يشعر في بعض الأحيان على الأقل، في تلك الواحة التي وُلدَت وسط الصحراء القاسية ما بين حدود اليأس والألم، بأنه إنسان يحيا، يشعر بالفرح والحزن، ويمتلك القدرة على الحلم برغم أن الأحلام هنا نبتة صغيرة لم تذق طعم الماء. الأحلام مُسيَّجة بالكثبان الرملية العالية التي تزحف نحو الواحات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، تمد أذرعها الطويلة نحو أعناق النخيل. تضغط بجسدها الثقيل على مساحات واسعة من المزروعات، فلا تجعل لها أثرًا.

قال لي الشيخ: على المرء أن يستدعي قوة روحه، يتأمل ما حوله. يتعلم، ويتشبث بالأمل. لا أدري عن أي أمل يحدثني الشيخ. فذراعاي ليستا مزودتين بأجنحة حتى أطير. إن أقل هبّة ريح هنا تسد الأفق. أشعر بأني غريب في هذا الكون، ووحيد. أشق طريقي عبر أودية صخرية ضيقة، ولا أدري إلى أين تؤدي. كما أنني بلا ماء وبلا زاد، أتخبط على غير هُدى. وكلما عثرت على باب للخروج، وجدته موصداً بصخور سوداء لا أستطيع تحريكها وحدي. أنا أحبك يا شيخي. لطالما علمتني أن الحب هو الخيط الخفي الذي يربطنا بالحياة. لكن الأمل بلا قوة تدفعه إلى الأمام يصبح فخًّا للنسور التي تحلق حرة في الفضاء.

لماذا قررت الآن أن أفتح النافذة؟ بعد أن أصبَحَت السنوات القديمة كومة واحدة مركونة في البعيد. قررتُ أن أستعيد هذا الدفء. الأيام التي تشع طِيبة وألفةً وفِطرةً صافية... أين ذهبَت!!

كنتُ أرى الحصاد قطعة من العذاب: ذلك العرق اللزج الذي يسيل على الأجساد التي تنحني فقراتها وكل مفصلة فيها بمنتهى النشاط تحت قيظ الهاجرة: رؤوس تنزل ورؤوس ترتفع، الأذرع القوية ذات العروق النافرة والأيدي الخشنة في حركة دائبة، مع تقدم بطيء ومحسوب للأمام. يتكوم القمح الذي تم قطعه في أكوام صغيرة مرصوصة وراء الرجال الذين يعملون متجاورين، في صف واحد،

مباعدين ما بين سيقانهم وظهورهم مقوسة في هيئة الركوع، كأنهم في صلاة.

ما من نسمة هواء تلوح في الأفق، أفرع الأشجار وجريد النخل في سكون أبدي، والعرق يغسل الوجوه والأجساد، يتضافر لهاثهم المحتدم في الصدور، مع صوت ارتطام السنابل الجافة مع بعضها البعض. أذيال جلابيبهم معقودة حول خصورهم. يقبضون بأيد قوية على المقابض الخشبية للمناجل الحديدية المقوسة؛ يضربون بها عيدان القمح بينما المحصول الذهبيّ يُفرغ في وجوهم المحترقة، كل الغبار الناعم الذي خبأته الريح بين العيدان والسنابل طوال الموسم؛ غبار صحراويّ يقصد الرئتين مباشرة، فيعلو السعال والتمخُّط وتختنق الصدور.

كنت أرى موسم الحصاد قطعة من العذاب، أما الآباء فكانوا يتعاملون مع موسم الحصاد من منظور آخر تمامًا؛ الكلام والضحكات الصافية لا تهدأ في معسكر العمل حتى اعتقدتُ أن التعب لن يطولهم، كأنهم في نزهة، وهم في منافسة مستمرة أيضًا:

- هيا يا رجل، يبدو أنك هرمت.

- أنا ما زلتُ في ريعان شبابي أيها العجوز؛ ألا تراني أطوِّق العيدان وأضربها بمنجلي فتستلقي على الأرض بلا أدنى مقاومة؟

- وسِّعوا لي الطريق، لئلا تجرحوا أياديكم بمناجل الصغار تلك التي تلعبون بها، سأريكم كيف يكون الحصاد.

- هأ، هأ. هيا اشحذ عزمك وحاول أن تلحق بنا، مازلت متأخرًا عنا بما يقربُ من خطوتين.

سوف أجعلكم وراء ظهري حالاً.

- وسِّعوا الطريق للوحش الذي لا يرحم.

- اتركوا ذلك المسكين يتقدم قليلاً، قبل أن تزهق روحه من التعب.

- لم يطلني التعب بعد يا صغيري، بل لم يصل حتى لأطراف أصابعي.

- حسنًا، أرِهِم القوى المخبأة يا رجل.

هكذا تستمر الممازحات أثناء العمل، كنا نرقبهم عن كثب بينما نرعى الأبقار في المساحات التي تم حصادها وجَمْع السنابل منها... كنتُ أقول في نفسي: ما أروعهم! هؤلاء الرجال الذين أحرقت الشمس جلودهم، يؤدون أعمالهم بكل ذلك الحب.

إن سرب الطيور الذي يمر أمامي الآن، يقطع رحلته كاملة إلى أرض جديدة بدون أن يتردد لحظة واحدة.

عندما أختلي بنفسي الآن، لا يكون ثمة مناص من تمشية طويلة في ذلك الزقاق الذي تظلله أشجار الذكريات.

ظليل هادئ لا يتسع إلا لشخص واحد. أتمشى هنا على راحتي، وأقف صافيًا وحياديًّا أمام كل لمحة ولفتة حتى أستعيدها كاملة بكل عنفوانها وطزاجتها القديمة.

بعد ساعات طويلة لا أشعر بانفلاتها، أجد نفسي في آخر الزقاق وحيدًا، أحاول جاهدًا أن ألتفت مرة أخرى إلى الخلف، لأتأكد من الطريق، ثم أمضي إلى الأمام بلا تردد.

بدَأتُ

صدر للمؤلف

- البنات، ديوان شعر بالعامية المصرية (إقليم وسط وجنوب الصعيد الثقافي، فرع ثقافة الوادي الجديد٢٠٠٢م).
- كتاب جوائز ناجي نعمان الأدبية، مع مجموعة من كُتَّاب الوطن العربي، بيروت ٢٠١٠م.
- ريحة الحزن، ديوان شعر بالعامية المصرية، فرع ثقافة الوادي الجديد ٢٠١٣م.
- صحراء العابرين، ديوان شعر باللغة الفصيحة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة تجليات أدبية رقم ١٨، صدر عام ٢٠١٣م.
- الشقوق (رواية) ٢٠٠٣م "طبعة محدودة " عن سلسلة إبداعات الداخلة .
- باب للخروج، (رواية) صادرة عن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بالإمارات وشركة المطبوعات للتوزيع والنشر – لبنان٢٠١٠م.
- الهبوط لأسفل ببطء، (رواية) صادرة عن دار كيان للنشر والتوزيع بالقاهرة، بدعم من الصندوق العربي للثقافة والفنون – آفاق ٢٠١٢م.
- مليحة (رواية) صادرة عن دار الأدهم للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٣م.

دراسات شعبية:

- لمحات من الأمثال الشعبية في الواحات، صادر عن سلسلة الدراسات الشعبية بالهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ٢٠١٨م بالمشاركة مع الشاعر أيمن أنور.

فهرس

في المرعى 9
مغلوبان على أمرهما 34
بيوت ورمال 42
في الظل 68
هذا هو الملك 114
البائع الجوال 130
في الحقل 146
يا ولد 177
عبد الفضيل 206
الساقية 216
مليحة 229
ضوء الفانوس 252
قمر الغرفة 260
مياه هادئة 276
زقاق الطاحونة 299
بداية 315

طبع بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

2019

إبداعات قصصية

47

رمال سوداء

الرجال يضحكون ملء أشداقهم، يعملون بنشاط كأنهم ولدوا من جديد. وفي كل يوم تغطس فيه الشمس في بحر المغيب، ويلقي الليل غطاءه على الواحة، تجتمع النساء والفتيات في بيت السيدة وجيدة ليضربن الطبلة، ويطلقن الزغاريد في فضاء الواحة فتتراقص لها قلوبنا طربًا. يُرقّقن أصواتهن في الأغاني ويرقصن. ونحن خارج البيت مع الرجال، نصنع حلقة واسعة يتصدرها العم بركات بمزماره البوص، وبدر، ابن علام النجار، يضرب الطبلة بينما يصفق الجميع. ينزل الراقصون وسط الحلبة وهم يربطون الأحزمة الملونة على خصورهم، يرقص الواحد منهم حتى يتعب، فيترك الساحة لغيره من الراقصين.

"ما تحسبوش يا بنات إن الجواز راحة
أول سبوع يا بنات خوخة وتفاحة
تاني سبوع يا بنات على الأرض مرتاحة
تالت سبوع يا بنات في الشمس فداحة"

***

مازال فضاء الأمكنة الطرفية، ووقائعها السحرية، موضوعًا صالحًا للسرد الروائي. في مثل هذا الفضاء العجائبي، لا يمكنك أن تميز بين الحقيقة والخيال. رمال سوداء، بلغتها الوصفية المترعة بالتفاصيل الدقيقة لعالم بسيط في واقعه، ثري في خياله، ستأخذك إلى أعماق الصحراء، حيث الأمكنة والأزمنة مكتنزة بتراثها الحي الدافق.

رمال سوداء ◆ رواية ◆ طارق فراج

تصميم الغلاف: هند سمير